من مصادر تاريخ المغرب الدبلوماسي

الحماية الفرنسية

بدءها - نهايتها

حسب افادات معاصرة

تعريب

عبد الهادي التازي



من مصادر تاريخ المغرب الدبلوماسي

الحماية الفرنسية

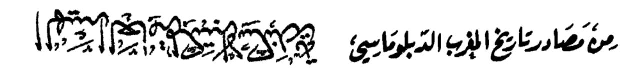
بدءها - نهايتها

حسب إفادات معاصرة

تعريب

عبد الهادي التازي







الحماية الفرنسية

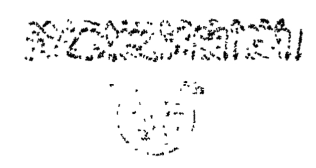
بدءها - نهايتها
حسب افادات معاصرة

تعريب

عبد الهادي التازي

دار الرشاد الحديثة

40 شارع فيكتور هيكو
الهاتف : 748.17 — 732.56
الدار البيضاء (03)



الطبعة الأولى 1401 — 1980

« .. وتلك بشرَى يطيب لنا أن نزفّها إليك في هذا اليوم الميمون ، بشرَى انتهاء عهد الحجر والحماية وبزوغ فجر الاستقلال والحرية ... »

من خطاب جلالة الملك محمد الخامس
يوم 18 نونبر 1955 بعد عودته من المنفى



باسمه تعالی

تـقـديـم

كثير من جيلنا الصاعد وخاصة منهم الذين نشأوا مع الاستقلال لا يعرفون — أو لا يكادون — عن الظروف التي واكبت عقد الحماية منذ الأيام الأولى لبسط الحكم الفرنسي في المملكة المغربية ، وهم على نحو ذلك لا يعرفون أو لا يكادون عن الظروف التي عملت على نسف هذا العقد الذي لم يكن طبيعيا في حياة أمة كالمغرب عاشت أحقاباً من حياتها تقود ولا تقاد وتسود ولا تساد

وقد حبب إلي أن اعتمد في القاء الضوء على هاتين الفترتين البارزتين من تاريخ المغرب السياسي، على مصادر فرنسية عاشت تلك الفترة وهذه .

كان المصدر الأول مذكرات للصحافي الفرنسي (هبير جاك) الذي كان يعيش في مدينة فاس حيث شهد توقيع معاهدة الحماية وحيث حضر بنفسه « الأيام الدامية » وكاد أن يكون هو من ضحاياها لولا الحظ الذي ساعده ... وحيث سمع بأذنيه الخطب التي نعتت العاصمة الاسلامية الأولى بأنها « المدينة المجرمة » تلك الأيام التي كانت طالع نحس على الاستعمار الفرنسي الذي فكر أول ما فكر في نقل العاصمة الى الرباط !

وكان المصدر الثاني استجوابا مع الرئيس الفرنسي السابق **إيدكار فور أجرته معه** مجلة (جور دوفرانس) في أعقاب اجتراء قادة الاستعمار على نفي جلالة المغفور له محمد الخامس وتصاعد الأزمة المغربية

وكان المصدر الثالث مذكرات الجنرال دولاتور المعروف باحتكاكه ببلاد المغرب وقد ظهرت عندما تحول المغرب **كله** إلى « أيام دامية »

نغصت الحياة على المستعمر وأرغمته على أن يعود الى رشده وأن يرجع العاهل المغربي وأسرته الكريمة الى الوطن حيث استرجع المغرب استقلاله واستأنف مسيرته التي ابتدأها منذ عشرة قرون أو تزيد ... وهكذا عادت العلاقات مع فرنسا على قدم المساواة الى سابق عهدها . لقد عرَّبت تلك المذكرات في حلقات متوالية لكن نشرها موزعة فوَّت على كثير من القراء متعة التتبُّع ومزية الحفظ ، فعسى أن يكون تقديمها اليوم مجموعة إلى المعنيين فرصة لاستعادة تاريخ ملذ شائق بل ومناسبة تذكرنا بوحدة مصير بلاد الشمال الإفريقي وضرورة عمله المشترك من أجل الغد الافضل كما تبصرنا من جهة أخرى بما يمكن أن يقوم به المواطنون المغاربة وهم يد واحدة وقلب واحد ، وهم منضوون جميعا تحت قيادة واحدة تعرف اقدارهم ولا تسلمهم للضياع.

د . عبد الهادي التازي

أيام فاس الدامية [1]

— 1 —

كيف تم عقد الحماية البائد ؟ وهل استقبله المغاربة بالحليب والتمر كما كان يقال ؟ ثم ماذا كان موقف المولى عبد الحفيظ ؟ وماذا كان رد الفعل الذي قامت به العاصمة فاس ؟ ومن هم أبطال الثورة على ذلك العهد ؟ « والعاطفيون » سماسرة الاستعمار من كانوا ؟ وهل عرفت شيئا عن الخلاف الذي احتدم بين المسيو **رونيول** والجنرال **موانيه** عندما كان الأول يرى أن للحماية حدودا لا ينبغي أن تتعداها بينما فكرة الثاني تتلخص في أن القوة والفتك هما الدواء الوحيد .. ؟ وهل تريدون أن تأخذوا صورا عن تلك الأيام التي ظل آباؤنا يتحدثون بها إلينا كدليل على أنهم لم يستسلموا للأمر الواقع إلا عندما خربت منازلهم وتحطمت مآثرهم وقطعت رؤوسهم ... ؟ ستجدون الجواب — إن كان يعنيكم شأن التاريخ — في هذا الكتاب الذي يرجع تاريخ تأليفه إلى سنة 1913 ..

ولكن قبل أن نتصفح كتاب « أيام فاس الدامية » نرى من اللائق أن نجعل كتمهيد لذلك .ما جاء في كتاب فرنسي آخر في خمسمائة وتسعين صفحة للمؤرخ **الشهير مارتان** بعنوان « تاريخ المغرب طيلة أربعة قرون » .

فلقد تعرض هذا الكتاب في بعض التفصيل إلى حوادث أواخر مارس 1912 ويسلمنا في آخر عرضه إلى « الأيام الدامية » ... فلنقرأ اذن ما كتبه

(1) جريدة (العلم) المغربية عدد 31 — 3 — 1957

الاستاذ مارتان لننتقل إلى ما كتبه **المراسل العسكري الحربي لجريدة الصباح** الباريزية جاك. قال مارتان :

لقد كان الشخص الذي حمل **من باريز** وثيقة الحماية من أجل عرضها على السلطان هو الوزير الفرنسي المسيو **رونيول**.. ولقد خرج من مدينة طنجة في اليوم السادس عشر من مارس ووصل إلى القصر الكبير في اليوم **19** حيث استقبل من طرف الكولونيل **سيلفستر وسائر** الضباط الاسبانيين استقبالا بالغا الغاية في التودد وبعثوا معه من الغد حرسا شرفيا حتى وادي لكس.

وفي اليوم 21 وصل الوزير إلى دار الزراري ، وفي اليوم 24 كانت لقياه بالجنرال **موانيه** قبيل فاس في الجهة الأمامية. وكان ثالثهما في هذه الملاقاة الصدر **الأعظم المقري !**

ومنذ اليوم السادس والعشرين استقبل من طرف السلطان المولى عبد الحفيظ وكان تصحبه حاشية مهمة تتركب من عدة جنرالات. علاوة على القنصل الفرنسي وكان يحيط بالسلطان رجال مخزنه على ذلك العهد.

وهنا تليت رسالة الحكومة الفرنسية التي كانت بمثابة تقديم للمعاهدة التي عرضت على المولى عبد الحفيظ...

وباسم السلطان تقدم المقري فأجاب الوزير الفرنسي ورحب به وهنأه وشكر فرنسا ذاكرا أن جلالة السلطان مستعد لسماع الاقتراحات المقدمة.. وهنا أخذ الوزير الفرنسي يتحدث إلى جلالة السلطان.. وبعد برهة من الزمن ودع الوزير الفرنسي مع حاشيته القصر الملكي تاركا السلطان ووزراءه وجها لوجه مع الوثيقة المحمولة من باريز.. وهنا يأتي المسيو مارتان بملخص لعقد الحماية ذلك الملخص الذي يعرفه القراء في كتب التاريخ المتداولة ويحيل من يريد الوقوف عليها بنصها وفصها على مؤلف آخر..

قال مارتان : « وأمام هذه الوثيقة فهم السلطان ماذا كان ينتظره من

عناء . وما ينتظر **الإسلام كذلك من مذلة** وهوان ، ذلك الاسلام الذي عرف منذ أيامه الأولى بمناوأته لكل تدخل أجنبي .. ان قبول التدخل الأجنبي من طرف المولى عبد العزيز كان من أبرز ما حفز بالمولى عبد الحفيظ إلى القيام ضد أخيه.فكيف يذعن اليوم لما قاومه بالأمس ؟ هذا هو المولى عبد الحفيظ الذي استطاع بفضل الله أن يتقلد مهام الخلافة العظمى التي حظي بها أجداده الأبطال . لقد اختير المولى عبد الحفيظ ليكون كنموذج للمولى اسماعيل .. فكيف يرضى أن يتنازل قيد شبر عن الواجب الذي ينتظره ؟ وهل يرضى أن يقبل هذا المكتوب الذي حررته أدمغة **مسيحية** محتالة في أسلوب مكشوف من الفصل الأول إلى الآخر .. يشهد بذلك كل من له المام بالفقه الإسلامي .. نعم هل يرضى أن يفرق بين الأشياء التي لا تقبل التفرقة والتي يكون مجموعها ذلك الواجب المقدس الملقى على عاتقه من لدن الله ! والذي نزل به الوحي على رسوله عليه أزكى التحيات والتسليمات .

وهذا نرى السلطان مولاي عبد الحفيظ « سلطان العمل » سلطان الاصلاح يتحول بكل صراحة من شخص **مجامل إلى شخص يصارع وزراءه وسائر** أفراد حاشيته !

لقد أظهر في نفس حية كاملة وقوة هائمة بالاستقلال المتوارث عن أبيه العربي الشريف وعن أمه التي لا تقل عروبة هي الأخرى عن أبيه .. أقول أظهر ما يكنه من اشمئزاز وتقزز ..

— آه ! ياليتني لم أطلب **منهم عونا ! وياليتهم لم يكونوا ورائي** في هذا الوقت العصيب الذي يتطلب المزيد من العمل ! إنني أريد الاستمرار في الكفاح ! إني أريد أن أجعل المسلمين في مأمن من هذه الكارثة التي تهددهم من جراء هذه الوصاية الأجنبية وهذا النفوذ المسيحي دمره الله ومحقه .

وأطرق الحاضرون برؤوسهم إلى الأرض سواء منهم الوزراء والشرفاء والعلماء كذلك ، وبعد هنيهة تقدم الوزير المسن الحاج محمد المقري (طبع الكتاب 1923) واتجه في هدوء نحو السلطان بهذه الكلمات :

— إنا لله وإنا إليه راجعون ! وأخذ المقري يحكي للمرة المائة .. يحكي للعاهل أمام الجماعة الحاضرة سائر ما رآه عند المسيحيين سواء قواتهم العسكرية ومؤسساتهم الصناعية ونفوذهم القوي ، وقطعهم الحربية التي **استفاد السلطان نفسه منها زمنا** طويلا كما استفاد منها المتقدمون في المصالح المخزنية وأخيرا ذكر السلطان بالموقف المهم الذي اتخذته فرنسا تجاه الدول الأخرى فلقد استطاعت **أن تشتري التنازل البريطاني والاذعان الألماني** ، **والعدول الايطالي** .. فرنسا التي استطاعت واستطاعت في إمكانها كذلك أن تضرب عرض الحائط **بالترددات الاسبانية** وتستغل الخلافات التي تشب بين (القبائل المسيحية) الأخرى ... فكانت كلمة السلطان :

— لله الأمر من قبل ومن بعد وساد الجمع سكون ظل مخيما مدة من الزمن ...

ورجع السلطان بعد لحظات إلى فورته القوية العنيفة . واستمر الأمر على ما ترى طيلة الليل واليوم الموالي ..

فماذا كان يريد السلطان ؟ انه يريد أن **ينصرف يريد أن يلتحق** ببلاد زايان يريد أن يعتصم بجبال بلاد البربر وبلاد الشلوح من حيث يشن الجهاد مرة أخرى !

ولكن الوزير المقري انتحى جهة السلطان وفي ملاطفة وتحنن قال له :

— مولانا ! .. **إن ذاتك الشريفة هي الأمل الوحيد** الذي بقي للاسلام والذي سيقف حجر عثرة في طريق من يريد النيل منه .. وانه بمجرد ما يغيب عنا وجهك فإن المسلمين هنا سيغرقون في بحر لجي من

العار والشنار وستكون النهاية الموت المحقق للجميع .. نعم سيكون ذلك مصيرنا إذا لم تقم أنت بإرجاع السكينة إلى القلوب ... ان (المكتوب) هو ما ترى فيجب أن يستسلم المرء لقضاء الله ويقلع عن كل حركة ..

هذا ، وماذا كان يجري في هذا الوقت خارج قاعة الاجتماع ؟ انها **أصداء أصوات السلاح** .. فإن الفرنسيين لهم هنا **خمسة آلاف جندي أخذت** صفوفها مع الجيش المخزني الذي أخذت على عاتقها تمرينه .. لقد كان من المقرر أن ينظم استعراض عسكري عظيم يحضره بالإضافة إلى الوزير الفرنسي وحاشيته أمير المومنين .

وأخيرا أقبل يوم 30 مارس فوقعت معاهدة الحماية وحملت منذ هذا اليوم الطابع السلطاني الشريف ..

انها (مكتوب) الله !

لكن بقي علينا أن نعرف أن الفرنسيين منذ البداية أخذوا يسيرون بسرعة فلقد أخذوا منذ الآن ينظمون الجيش المخزني .

لقد قبلت معاهدة الحماية ولكن ... بقي علينا أن نرى ماذا سيعقب الأقوال من أعمال ؟ فكيف تصبح الحماية حينا حقيقة واقعة في هذه البلاد المضطربة التي يشب فيها التمرد والعصيان في لمح البرق الخاطف .. هذه البلاد التي نراها طيلة **المفاوضات** التي كانت جارية من أجل المعاهدة تستعد وتتأهب للمقاومة سواء في ناحية أزمور ، كيروان ، أيت يوسي ، زيان ، أيت شغروشن ، غياثة ، بني وراين ، التسول ، البرانس وقبائل أخرى لا نذكرها .

وفي فاس العاصمة نفسها نرى الهيجان يتزايد منذ اليوم الثامن عشر من مارس .. فلقد قتل ضابط فرنسي بطلقة نارية من قبل جندي مغربي أثناء التمرين .. على أن موقف أولئك **التقليديين من العلماء** والشرفاء لم

يكن مما يبعث على التفاؤل .. فلقد كان هؤلاء يعملون على نشر دعايات مغرضة بين رجال الجيش يقصد منها إثارة الناس أجمعين ضد التدخل الأجنبي ... وان هؤلاء لم ينالوا في دعاياتهم من المولى عبد الحفيظ ، بل كانوا على العكس من ذلك يشيعون بين الناس أن السلطان **مخنوق** الأنفاس وأنه **سجين قصره** .. وان الفرنسيين سيحملونه معهم إلى الرباط ومن ثمة سيرحلونه إلى فرنسا بعد أن يحملوه بالقوة على بيع البلاد للفرنسيين !

ولم يحن اليوم السابع عشر من أبريل حتى بدأت المأساة .. فكانت **الأيام الحمراء** التي ذهب ضحيتها **عشرات من الضباط** والمواطنين الفرنسيين .. أيام ويا ما أسوأها من أيام ..

وهنا سنطوي كتاب « المغرب طيلة أربعة قرون » لنرجع إلى تاريخ فاس طيلة ثلاثة أيام ..

— 2 —

لقد أهدَى المؤلف كتابه هذا « إلى أرواح ضحايا حوادث فاس المدينة المجرمة عسى أن تجد أسر تلك الضحايا الحقيقة حول مآسي فاس » .

ثم يصدره بمقدمة يبتدئها بهذا السؤال : « لماذا كتبنا هذا الكتاب » ؟ طيلة أربع جلسات صاخبة عقدها البرلمان الفرنسي (14 — 22 — 12 — 28 ينيه وفاتح يوليه 1912) من أجل الاستماع إلى كثير من الاستجوابات حول السياسة المتبعة من الحكومة الفرنسية في المغرب ومن أجل **المصادقة على نصوص معاهدة الحماية المبرمة بين فرنسا والمغرب** يوم 30 مارس 1912 ... أقول طيلة المناقشات الطويلة يتجلى بوضوح أنه لا البرلمان ، ولا الحكومة لم يفهم كل منهما بالضبط الحقيقة عن تلك الحوادث التي أدمت فاسا مدة ثلاثة أيام كاملة 17 — 18 — 19 أبريل 1912 .

لم يوجد ولو واحدا من جملة أولئك الخطباء المتعددين من عرف كيف يضع المشكلة كما هي على أنظار العموم ، فمن خلال تلك الكلمات التي كانت تتردد في زوايا البرلمان كان المرء يشعر بأن الالتباس والخفاء كانا يحلقان بجناحيهما على أجواء البرلمان ، ذلك الالتباس والاشتباه الذي كان مقصودا من دون شك من طرف أولئك الذين ضللوا **بتقاريرهم أصحاب النفوذ** نظرا لما لهم من المصلحة في خلق مثل ذلك الجو...

واننا لنعتقد أنه خدمة للحقيقة يجب أن توضع الأشياء في مواضعها الخليقة بها ، وأنه ليس هناك من يستطيع أن يؤدي الحقيقة كما هي إلا شاهد عيان عاش بنفسه تلك الساعات المؤلمة ، وكان يوجد في صميم تلك

الأمكنة المحمومة ، وبالتالي شاهد استطاع أن يقف بنفسه على كل التفاصيل المتعلقة بهذه المذبحة ، شاهد انقطع إلى الدرس العميق ، وتجرد عن كل غرض وقصد ، أقول خدمة لتلك الحقيقة قمنا وبكل صدق ونزاهة باعلان نتائج تلك التحريات ..

وقبل كل شيء فإننا نوجه عناية القراء إلى أنه ينبغي أن تتأكدوا من قيمة هذه المعلومات الثمينة فهي صادرة عن علم ودراية بحقائق الأشياء في المغرب : هذا المغرب الذي استطعت — يقول المؤلف — أن أجوبه من أقصاه إلى أقصاه طيلة سبع سنوات قضيتها فيه ، موزعة على المدن والبوادي ، فمن الحدود الجزائرية إلى السوس كنت أتتبع العمليات العسكرية عن كثب ، وفي الشاوية كنت صحبة الجنرال دريد ، ثم مع الجنرال داماد ، ثم في بني يزناسن ، وفي جنوب وهران صحبة الجنرال ليوطي ، **وعندما زحفنا نحو فاس سنة 1911** مع الجنرال موانيه ، وفي الريف مع الجنرال الاسباني مارينا .. وشيء آخر كنا في رفقة السفارات التي قام بها **مسيو رونيول في الرباط** منذ سنة 1907 لدى المولى عبد العزيز ، وفي فاس **1909 لدى المولى عبد الحفيظ** وأخيرا في فاس أيضا 30 مارس 1912 عندما وقعت معاهدة الحماية الفرنسية .

إن البواعث الأصلية والأسباب الحقيقية للحوادث التي جرت بفاس تفرض علينا رعيا للمصلحة وابقاء على حمايتنا أن نقوم بما من شأنه أن يقصي عنا شبح أشباهها ، ويبعد عنا خطر تكرارها .. ولكن هل كان من رأي المسؤولين أن يقفوا على أسبابها ؟

دونكم التصريح الذي أفضى به رئيس لجنة الشؤون الخارجية المسيو بارتو في الجلسة التي جرت في فاتح يوليه 1912 فلقد قال :

ليس لنا أن نبحث عن أسباب الفتن التي كانت فاس مسرحا لها حيث إن لجنة الشؤون الخارجية لم تتوصل بعد بتوكيل من لدن البرلمان يخولها هذا

الحق ، فلذلك لم تعن هي بدرس ذلك .

كيف ؟! ففي الأشياء التافهة جدا نرى البرلمان يبذل أقصى ما في وسعه ليلقي الضوء الكافي على الأشياء حتى تظهر أمام الجمهور ، ويكون من أجل ذلك لجنا فرعية برلمانية ، بل وأحيانا يسعى لتكوين لجن استثنائية . بينما البرلمان يعنى بهذا يظل غير مبال وغير مكترث بالأسباب التي كانت مصدر المجزرة ، مجزرة ثمانين فرنسيا ! والتي أوشكت أن تأتي في يوم واحد على نتائج مجهود عشر سنوات قضيت في خدمة السياسة المغربية ، نعم كادت تأتي عليه ولا أمل يبقى في الاستدراك ولا في الانقاذ ..

بل وأكثر من هذا فإن البرلمان الفرنسي قبل بكل تلطف ، وبدون أقل إشارة تدل على الاحتجاج التأكيدات التي فاه بها رئيس الحكومة عندما قال بتاريخ فاتح يوليه 1912 أي بعد مرور شهر ونصف على المذبحة : « إن المعلومات التي أتوفر عليها لا تمكنني لا بصفة قطعية بل ولا بصفة احتمالية كذلك أن ألقي المسؤولية على شخص أو أن أجرم أحدا .. » .

بل وإن رئيس الحكومة الفرنسية استطاع كذلك أن يسمح بأن يضيف إلى هذه الكلمات — والتصفيقات تحييه من هنا وهناك — : « إن الذي يظهر من الآن هو أن الإنسان وجد نفسه أمام حالة نشأت عن قوة جارفة ما في ذلك شك . » فاشهدوا أنه بعد مضي شهرين ونصف الشهر على الحوادث نرى الحكومة الفرنسية — وقد ضللتها تقارير مسيو رونيول المغرضة — تفسر أسباب ثورة فاس بماذا ؟ بأنها « حالة نشأت عن قوة جارفة » .

لقد توالت الكوارث في المغرب فمنذ 1901 ونحن نسجل الواحدة تلو الأخرى ، بل وهي أكثر من أن تحصى ، وفي كل هذه الحالات ليس هناك أحد أبدا يمكن أن توجه إليه المسؤولية ولو إلى الديبلوماسية .

وفي هذه المرة أيضا كان رد فعل الحكومة الفرنسية جميلا فبعد أربعة

أيام فقط على المأساة المروعة التي جرت يوم 17 أبريل بعث رئيس مجلس الوزراء إلى المسيو رونيول بواسطة اللاسلكي بالتهاني الرسمية !

بل ولقد أرادت الحكومة أن تبرهن على ما تكنه من تقدير وثقة بشخص المسيو رونيول فأقرت له السلطات المطلقة التي كانت مكنته منها منذ خمسة عشر يوما فقط ..

وما من شك في أن الحكومة قد أسفت لكونها لم تستطع أن تمنح المسيو رونيول رتبة عسكرية أكثر من التي يتمتع بها حيث إنه لم تمض على ترقيته أكثر من أسبوعين ، ولذلك فإنهم لم يجرؤوا على أن يذهبوا بعيدا فينعموا عليه بوسام الضابط الكبير.. !

على أن هناك شيئا آخر ذلك أنه منذ البداية أغدق على سلك السفارة بطنجة كله بالحمالات والأوسمة كدليل الاكبار لرجال الديبلوماسية .

إن رئيس مجلس الوزراء الذي يعلن في فاتح يليه عن عدم استطاعته ابراز الهفوة ولا كذلك تحديد المسؤولية ، كان — ولو أنه يصرح بالعكس — على تمام العلم في اليوم الواحد والعشرين من أبريل أعني بعد مضي أربعة أيام فقط عن الحوادث الدامية يدل على ذلك أنه استطاع أن يبعث بالتهاني الرسمية إلى موظفيه بالمغرب وأن يؤكد في اسهاب لا يخلو عن قصد سلطات رونيول كنائب ملك !

ومما لا ريب فيه أن معالجة الشؤون بهذه الجرأة النادرة المثال كانت خليقة بأن يكون لها أعمق الأثر في البرلمان.لذلك فنحن نريد هنا في هذا الكتاب أن نبسط الأحداث ونبحث عن أسبابها ولقد وجدنا أنفسنا مرغمين حقا على كتابته .. لماذا ؟ نظرا لما راج في أثناء المناقشة بالبرلمان فلقد تعرضنا نحن الصحفيين سواء بصفة مباشرة أو غير مباشرة لطعنات ولمزات .. الذين اشعلوا نار الفتنة في فاس !

انه لاتقان عظيم !

ألم يكن من واجبنا أن نبحث بكل بساطة عن المسؤولين من بين اعضاء الحكومة الفرنسية؟ من بين الديبلوماسيين الذين كانوا في سفارة طنجة نعم من بين رؤوس السلطة العسكرية؟ بل ومن بين المنظمين للجيش المخزني؟ لكن شيئا من هذا لم يكن.. وإنما المسؤولية باجمعها وبما فيها يتحملها كلها من؟ نحن الصحفيين.

لسنا نقول هنا هراء.. فإن الأمر هكذا كان في البرلمان وهكذا أيد من قبل رئيس مجلس الوزراء ودونكم ما جاء في الجريدة الرسمية عندما تعرضت للمحاورات الجارية.

— رئيس المجلس الوزاري؛ إنكم تركبون متن الغواية عندما تؤكدون أن افشاء بنود الحماية كان عملا قامت به فرنسا.

— الجنرال بيضويا: ولكنه على كل حال عمل قام به أولئك الذين يمثلون فرنسا.

— الرئيس: أبدا انه اعتقاد خاطىء.

— بيضويا: إن السلطان كان حريصا أتم الحرص على أن لا تذاع بنود المعاهدة.

— الرئيس: سأفصح لكم عن الحجة التي تؤكد لكم أن هذا الافشاء ليس من عمل الذين يمثلوننا ولقد سبق لي أن أدليت بهذه الحجة أمام لجنة الشؤون الخارجية.

— بارتو رئيس لجنة الشؤون: حقيقة إن التصريح الذي أشار إليه سعادة الرئيس واقعي ولقد كنا نحن وضعنا عليه هدا السؤال، فإن هناك صحافيين هم الذين ارتكبوا الخطأ ولم يتبصروا وهذا شيء لا يقبل الجدال.

— بيضويا: حقيقة أنه عمل الصحفيين يؤسف له!

— جواريس : أهم صحافيون فرنسيون ؟

— بارتو : ليس لي ما أقوله عن هوية هؤلاء الصحافيين

— الرئيس : لقد غفل المخزن فتسرع لاخبار الصحافيين فانطلق هؤلاء ... بيد أن من المحقق أن عدم التبصر هذا ليس من عمل المسيو رونيول ولا من عمل حاشيته . فإن هذا كان قد أخذ جانب الحيطة حيث إنه أبرق إلي ليحيطني بالوضع الراهن ...

— بيضويا : مهما يكن صاحب هذه الغفلة فانها لما يرثى له .

— بارتو : بكل تأكيد

لقد كان الحاضرون باستثناء جواريس يعلم أن جريدة لوماتان كانت الجريدة الوحيدة التي استطاعت أن تعلن قبل الجرائد الأخرى باربع وعشرين ساعة بخبر التوقيع على معاهدة الحماية فلقد بلغ الخبر في نفس اليوم 30 مارس ..

وهكذا فإن الصحافيين الذين ارتكبوا الغلط يتلخصون في شخص واحد هو مؤلف هذا الكتاب ؟ فهو اذن المتسبب في العواقب الوخيمة !

ولسنا من أولئك الذين يرضون أن يقبلوا عبارات الصفح والغفران التي يريد رئيس مجلس الوزراء أن يغمرنا بها عندما يصرح بأنه لا يستطيع أن يتوجه بمسؤولية محققة أو مشكوكة لأحد ما من الناس ، وأنه وجد نفسه أمام حالة قوة جارفة.نحن لا نقبل أن يعفو عنا ! ... وليس مما يرضينا أن يشتبه الناس في أمرنا وأمر أولئك المسؤولين الحقيقيين عن حوادث فاس ، أولئك الذين تتضرج رؤوسهم بدماء أولئك الأبرياء الذين سقطوا .

وحيث إننا قد اتهمنا فلنا الحق في أن ندافع في هذا الكتاب وإن هذا الدفاع الذي يهدف بكل بساطة إلى إفضاح سر المجرم الأعظم سنخصص له الجانب الثالث من هذا الكتاب . بينما نخصص القسم الأول منه للعلاقة

الدقيقة بين الأحداث المروعة التي جرت بفاس .. نعم سيتناول القسم الثاني منه الإشادة ببطولة جنودنا الأشاوس الذين قاموا بواجبهم فسجلوا صفحات جديدة من المجد في الدفتر الذهبي لتاريخ فرنسا الوطني !

— 3 —

من هو الفاسي ؟

إن سكان فاس سواء من حيث تفكيرهم الخاص أو من حيث شكلهم الذي يمتازون به يختلفون تمام الاختلاف عن سائر السكان الآخرين الذين يقيمون في الجهات الأخرى من المغرب .

وكهذا فإن الفاسي ساكن فاس يمتاز على العموم بلونه الأبيض الناصع حتى لكأنه اللبن أما زيه فخاص به وهو يعتني به كما أن أيديه الناعمة كذلك دائما محل رعاية زائدة . مشيه متئد خفيف الاشارات نظراته ثاقبة وانك من عيونه وحدها تستطيع أن تقرأ ما في سريرته المحتجبة . نظراته تحمل معها كل الخصال التي يمكن أن يتصف بها المرء .. فهي تدل على الهدوء الهازىء إلا أنها تدل على الحقد العنيف .

وإن هذه الحواص التي يستأثر بها الفاسي توجد على مختلف الدرجات بيد أنها أكثر ملاحظة في أولئك الذين ينعمون برخاء العيش وكذلك في تلك الطبقة الصغيرة من البورجوازيين . هذا وإن الفاسيين كذلك الذين ينتمون للطبقة المتواضعة التي لا تستطيع أن تتوفر على حسن الهيئة في الملبس كما هو الحال في الطبقة الأولى والتي لم تجد متسعا من الوقت للعناية باطرافها أقول إن هذه الطبقة تحتفظ هي الأخرى بنفس النظرات العميقة التي تنطوي على الحقد والضغينة وتحتفظ بنفس السحنة التي يستحيل عليك أن تصل إلى أسرارها وهي تحمل على الخصوص نفس الأفكار ونفس العقلية التي يحملها السكان الآخرون ..

وبعد هذا يتخلص المؤلف إلى الحملة الشعواء على أهل فاس ولعل الاخوان الذين أتيح لهم أن سقطوا في أيدي البوليس في العهد البائد يذكرون جيدا كيف أن الولاة الفرنسيين كان لا يرضيهم بحال أن يسمعوا صدى أهل فاس وان مبعث هذا التشاؤم من الفاسيين كان أمثال هذا المؤلف من الذين ملأوا القلوب قيحا وصديدا ودما على فاس وما يأتي من فاس لماذا ؟ لأنها أول من ثار ضد بنود الحماية ولأنها لم تستقبل الفرنسيين كحماة مثل ما استقبلتهم كأشباه الأعوان وكان ينبغي في نظر هؤلاء المؤلفين أن تظل فاس 1912 كهي قبل ذلك . قال المؤلف :

إن الفاسيين خونة أنذال جبناء

ولقد أعطوا الدليل على خيانتهم ونذالتهم يوم الأربعاء 17 أبريل 1912 وقد كانوا أعطوا دليلا على الجبن طيلة ثورة 1911 عندما هاجم رجال القبائل ويتراوح عددهم ما بين العشرة آلاف والخمسة عشر فاسا وحاصروها وهددوها بالنهب .. ان هؤلاء السكان سكان فاس الذين بلغ عددهم مائة ألف نسمة لم يكن لهم أبدا ما يساعدهم على أن يدافعوا وبالأحرى أن ينظموا الدفاع عن بلادهم بنفسهم وليس هناك ما يبرر القول بأنهم كانوا سنة 1911 عزلا من السلاح فإن حوادث أبريل 1912 تؤكد على العكس من ذلك أنهم كانوا كاملي العدة ولكنهم كانوا رغم ذلك يقبعون وراء أبواب فاس السميكة المرتفعة !

انه ليس الا رجال الكولونيل مونجان ، والكمندان بريمون وحدهم هم الذين قاوموا الحصار طيلة ثلاثة أشهر ولما فني جهد هؤلاء وانقضى ما بين أيديهم من الزاد والمواد الحربية وكانوا على وشك الانهزام أمام حملات البدو . لما وصل الأمر إلى هذه النقطة الحرجة كان لزاما على كتيبة فرنسية أخرى أن تأتي لنجدة هذه المائة ألف خائن جبان تلك المائة ألف التي تنكرت للسلاح فلم تعرفه إلا بعد سنة نعم لقد فقدوا رجولتهم ولم يستعيدوها إلا بعد ما تحركوا من أجل الاغتيال من أجل المذابح من أجل

السفك بفرنسيين عزل من السلاح وجدتهم الظروف في منازلهم أو في الشارع العام .

إن الفرنسيين لا يستطيعون بحال أن يتجاهلوا الطباع المغربية فهم يعلمون حق العلم أنه لو أهملت المدينة لكان النهب العام الشامل لا فرق في ذلك بين فاس الجديد وفاس البالي .. إن المغاربة لا يستطيعون أن يصمدوا أمام النهب والمصادرات التي هي نتيجة حتمية لكل أعمالهم الحربية فمتى انهزمت أمة إلا ويجري في بيوتها أشياء من هذا النوع ولا شيء عند المغربي يستحق الاعتبار والاحترام وان الشخص الذي هو بصدد النهب يقوم بذلك ولا يتردد فيه ولو في بيت أبيه إذا لم يبق بين يديه إلا ذاك !

ويظهر أن مثل الدار البيضاء التي غُزيت وأُخليت وخربت سنة 1907 من قبل رجال الشاوية كان بمثابة انذار للفاسيين يذكرهم على الدوام بأن المغاربة لا يتحفظون أبدا من تعرية أحدهم الآخر فلو أن ثوار سنة 1911 كانوا دخلوا فاسا العاصمة لاصبحت المدينة القديمة والحي التجاري من فاس الجديد أثرا بعد عين ما في ذلك شك ولا ريب .

نعم ! رغم كل هذا فإنه لم يكتب لفاسي واحد أن يكون قديرا في هذه المرحلة العصيبة التي كان المرء ينتظر فيها نهايته بين الآن والآخر .. أقول لم يتقدم ولو واحدا منهم فيتطوع بتنظيم نوع المقاومة من الدفاع ولو عن ثغر باب من أبواب مدينة فاس ولم يتح لأي واحد منهم أن يطلق عيارا ناريا من بندقية مثلا ! ولكنهم ظلوا في داخل منازلهم ترتعد فرائصهم أما دكاكينهم فكانوا يكتفون فقط بغلقها في سرعة البرق الخاطف متى طرق سمعهم صدى قعقعة السلاح .

سنرى بعد لحظات كيف أن هؤلاء الأنذال استرجعوا شجاعتهم كلها عندما حلت سنة 1912 .

المدينة المجرمة

وعلى جدث تلك الضحايا التعسة الحظ الذي سقطت يوم 17 أبريل سمى الجنرال موانيه في خطاب تأبين ألقاه .. سماها المدينة المجرمة .

وان أولئك الذين لا يتوفرون على معرفة تامة بعقلية الفاسي يستطيعون أن يوجهوا اللوم للجنرال على عبارته هذه .

أما نحن فنعتقد على العكس من ذلك أن هذه الكلمة كانت أصدق عبارة وأعدلها يمكن أن تستعمل للتنديد بهذه المدينة المرذولة التي ظلت طيلة ثلاثة أيام كاملة تنتشي برؤية الدماء والمذابح ، وتتسلى بالإجرام الفظيع وتتفكه بالمشاهد الشنيعة التي كانت أعنف ما عرفته الوحشية .

على أن هذه المجازر لم تكن بحال مما يصح أن يدخل في دائرة الأعمال الحربية التي يشيد بها أبطالنا ولو أنها صادرة عن الخصوم .. ان المغاربة الذين بادلوا الكولونيل كوروا حربا بحرب وكان عددهم خمسة عشر ألفا كانوا بحق رجال حرب فلهم منا كامل الاعتبار والتقدير وانه لا يفكر أحد في أن ينال من سمعتهم .

بيد أن الفاسيين ...

— 4 —

... بيد أن الفاسيين خانوا الأمانة وتنكروا لقواعد الضيافة المقدسة حتى لدى الشعوب البدائية فقتلوا وفتكوا بالرجال والنساء الذين لا يتوفرون على وسائل تمكنهم من الدفاع عن أنفسهم.. أولئك أهل فاس القتلة الفجرة! وتلك هي فاس التي يجدر بحق أن تسمى المجرمة.

ولقد قلنا إن للفاسيين طابعا خاصا يميزهم عن غيرهم، فهل تريدون دليلا على ذلك؟ عندما وردت جنودنا سنة 1911 لتخلص الفاسيين وتعمل على انقاذهم من الثورة: ثورة القبائل.. أقول عندما كانت جيوشنا تقوم بدور الحارس المدافع عن هذه المدينة التي جبن أهلها وعجزوا — وهم ذوو عدد كثير — أن يصمدوا. هل تعتقد أن الفرنسيين الذين وردوا على ذلك العهد قوبلوا كمنقذين حقيقيين للبلاد؟ .. أبدا.. ان الفاسيين ظلوا مع ذلك يضمرون لنا من العداء والكراهية ما هو معروف، وان عيونهم المليئة بالحقد والضغينة كانت تتبع بنظراتها النافذة لكل فرنسي قدر له أن يجول داخل المدينة الأهلية، ولقد ظل ضباطنا سرمدا هدفا لهذه الاهانات.. فبمجرد ما يمر أحدهم بجانب أحد هؤلاء الفاسيين المتعطرين المتنظفين الذين يتأبطون في أغلب الأحيان لبدتهم المخصصة للصلاة، أقول متى مر بجانبهم أحد من الفرنسيين إلا والتفتوا بوجوههم ممتعضين وارسلوها بصقة في أثره ليشفوا بذلك حقدهم الكامن!!

إن كثيرا من مثل هذه الحوادث كان يسبب في جل الأحيان هيجانات خطيرة ويكاد يفضي إلى ما لا تحمد عقباه.. وفي سوق القيسارية؟ كم مرة تعرض ضباطنا لمضايقات واحتقارات، وذلك من لدن ناس

يماشقونهم في غطرسة وسخرية ولو أن أصحابنا لم يحكموا جانبا من العقل لتكررت الحوادث ..

هكذا كان استقبال الفاسيين للذين وردوا من أجل انقاذهم .. فماذا كان في الجهات الأخرى؟ ..

انه في اليوم 8 يليه 1911 دخل الفرنسيون إلى مكناس فما أعظم الفرق بين الاستقبال والاستقبال! والمعاملات والمعاملات لقد دخل الفرنسيون مكناسا بعد معركة قوية في الجملة دامت طيلة الصباح .. دخلوا ليخلعوا السلطان مولاي الزين ويلقوا عليه القبض ، هذا الرجل الذي كان المكناسيون بايعوه كملك .. نعم دخلوا لينزلوا ضربتهم القاضية بسائر الوزراء والموظفين الذين نصبوا أنفسهم خارجين بذلك عن القانون. فانت ترى الفرنسيين دخلوا مكناسا وهم يتسمون بسيمة العدو المغتصب بينما كانوا في فاس يتسمون بسيمة المنقذ .. فكان من المتوقع نتيجة لهذا أن يكون شعور المكناسيين المعادي عادلا حيث إن هناك فرقا بين الموقفين ، فهل تعتقد أن الأمر تم على نحو هذا المنطق؟ لا! إن الأمر كان على العكس من ذلك .. فلقد استقبلوا الفاتحين الفرنسيين عاطفيا وواضحا في العاطفية .. وكانت علائم السرور تلوح عليهم كما كان في كل مكان دخله جنودنا غير فاس . فلا نظرات حانقة ولا مواقف استفزازية ، ولا اهانات مكشوفة ولا عبارات مزرية كما كان الأمر بالعاصمة فاس! وانه ليس في الاستطاعة أن ندعي أن هذا الموقف من جانب المكناسيين كان وليد ضغط ... فلقد كانت بحق في عواطفها تلقائية وبكل تأكيد كانت طبيعية ومجدة في أفراحها ..

وما زلت أذكر أننا ذات يوم بينما كنا نقوم بجولة في أحياء المدينة صحبة بضعة من الضباط وقفنا أمام أحد المقاهي نطلب كؤوساً من الشاي.. وعندما أردنا أداء الثمن رفض القهوجي بكل الحاح أن يأخذ

أجرا للشاي وفي مرات عديدة كان الموقف مع آخرين نفس موقف القهوجي ، ودائما وفي كل مكان وبابتسامات مشرقة وكلمات ترحيب بالغة ، كان المكناسيون يستقبلوننا .. وانه لمن دواعي الأسف حقا أن لا تسمح الظروف بتلقين الفاسيين المنكرين للجميل الدرس الذي يستحقونه على غطرستهم وحنقهم .. والعجب أن الفرصة سنحت وكان في الامكان أن ننزل الضربة عليهم في نفس اليوم 17 أبريل 1912 لكن واحسرتاه تركناها تفلت من يدنا وكنا بحق مجرمين عندما تهاونا .

وإنه لا ينبغي بحال أن يدخلنا عجب متى حدث في يوم من الأيام مثل هذه الأحداث الخطيرة التي جرت اليوم . لماذا ؟ لأننا لم نقتص منها اليوم ، ولم نؤدبها على فظائعها التي ارتكبتها يوم 17 أبريل 1912 .

عندما اغتيل الدكتور **موشان** في مراكش اقتحمنا الأرض المغربية انتقاما لروح الفقيد ، وأخذنا نعوض عن ذات الدكتور مدينة وجدة .. ! وعندما اعتدي على حياة بعض العمال الأجانب في مرسى الدار البيضاء نرى المدينة تتعرض لوابل من القنابل طيلة يومين كاملين بل ونزل ثلاثة آلاف من الجنود بالدار البيضاء واستولوا على الشاوية وعندما اغتيل الضابط ميو بالشاوية وثبت كوكبة من الجند فاكتسحت حالا زعير واستعمرت الناحية بعد أن أرغمت السكان على تسليم القتلة .. وهكذا كان المبدأ المتبع دائما يتلخص في أنه عند أقل اعتداء يبدر من الجانب المغربي إلا ويعقبه حالا وبدون تأخير قمع من النوع العنيف القاسي .. وبهذه الوسائل وحدها استطعنا أن نحمل السكان على احترام عزة الأروبي . إن المغاربة لا يومنون إلا بالقوة فهم يعتبرونها حليفا للعدالة ، والحق عندهم ما فرضته القوة ! وهم بناء على هذا يعتبرون أن كل تدبير للرحمة والصفح دليل على الضعف وقلة النفوذ ! لكن فاسا .. فاسا التي اسلمت نفسها طيلة ثلاثة أيام كاملة إلى الفوضى وسمح سكانها لأنفسهم بارخاء العنان فارتكبوا أفظع ما يرتكب .. جابوا الشوارع وهم يجرون على الطرقات

الاشلاء البشرية ! غرزوا رؤوس الضباط في عصى طويلة ... بينما كان البعض من الفاسيين يلعب الكرة برؤوس أخرى ! ولو رأيت الجثث وقد تلطخت بالوحل ولو رأيت أمعاء الضحايا وقد اديرت على رؤوس أصحابها ولو رأيت ورأيت .. فماذا كان العقاب ؟ ثمانية واربعون اعداما فقط ! وبعد مضي شهر كامل على ارتكاب هذه المخازي ! هذا بينما فقدنا نحن اثني عشر ضابطا وخمسة مساعدين وكبرالا وجنديين اثنين وتسعة مدنيين .. في ظرف يوم واحد 17 أبريل . ولم يفتأ عدد أمواتنا يتصاعد فأصبح ثمانين ..

— 5 —

يوم الانذار بالخطر

لقد غادر السفير الفرنسي مدينة طنجة يوم 16 مارس 1912 متجها نحو فاس من أجل الحصول **على توقيع** المولى عبد الحفيظ ولقد كان عليه أن يفارق فاسا بعدما أنهَى مأموريته صباح اليوم السابع عشر من أبريل .

حقا إن معاهدة الحماية تمت ولكن في **ظروف غامضة**.. ولقد أتَى بعد ذلك اليوم الذي ورد فيه السفير الفرنسي على السلطان المولى عبد الحفيظ ليستأذنه في الانصراف وأعني به يوم **16** أبريل وهنا تبادل الرجلان بهذه المناسبة عبارات التهاني على حسب العادة المألوفة بالقصر الملكي وأقيمت حفلة فاخرة على شرف المسيو رونيول وحاشيته .

وبعد تناول الغذاء قصد الجميع المنزه الملكي وهو عبارة عن سرادق أعد للاستقبال يوجد داخل المشور فتناول الضيوف الشاي والقهوة وعندما كان السلطان المولى عبد الحفيظ يتناول بعض **السجاير الشرقية** كانت امارات الهم والحزن بادية على محياه على أنه في أثناء الغذاء لم يترك الفرصة تمر دون أن ينطق ببعض الكلمات التي كان لها في الحقيقة وجهان **اثنان في معناها** .

وهكذا فعندما انتقد المسيو رونيول على الجنرال بريلان الذي سمي أخيرا جنرالا أنه ما يزال يحمل بذلة كولونيل .. أجاب المولى عبد الحفيظ قائلا : حقيقة ينبغي له أن يرتدي لبسه كجنرال فإنه سيحتاج ذلك في القريب ورغم هذا فإن المولى عبد الحفيظ كان يتظاهر بأنه يشعر بجو عائلي فلقد

لعب **دورا من الشطرنج مع المسيو رونيول** بيد أنه خلافا للطقوس التي تفرضها تقاليد القصر ، فإن وزيرنا المسيو رونيول أراد أن يبرهن على عبقريته السامية في كل الأشياء واعتقد دون ما شك أن من المشرف للدبلوماسية أن يكون هو الفائز على **جلالة** السلطان بل إنه ذهب أبعد من هذا فلقد كان يلاحظ ويمعن في الملاحظة متى حاول السلطان أن يخاتل في اللعب أو حاول أن تكون لجنوده الكلمة على جنود رونيول .

لقد توجه المولى عبد الحفيظ نحو ابن غبريط وقال في ابتسامة ساخرة معلقا على سيرة اللعبة « فليس لدي ولو الحق في أن آمر الجنود أن تذهب حيث **أشاء أنا ! ولا كذلك أن أنظم دفاعي !** »

هكذا قال ولقد سجل عليه كذلك أنه أضاف إلى قوله لقد أصبحت لا أمثل شيئا ! وإن الفرنسيين الآن هم الذين يحكمون .

ولقد لعب المسيو رونيول دورا مع الصحافيين بيد أن الديبلوماسية هذه المرة قد أخفقت وانتصرت عليها الصحافة .

إن هذا اليوم كان يحمل معه بكل تأكيد بوادر الخطر .

عاصفة ولكنها محمودة العواقب

لقد كانت الأحوال الجوية منذ الصباح تحمل على توقع حدوث عاصفة في ذلك اليوم وكان أن انفجرت بغتة . فحوالي الساعة الثانية بعد الظهر وفي قوة زائدة لم يسمع بمثلها نزلت أمطار طوفانية فاصطخبت سيولها بالمدينة وتكونت بذلك ضايات من المياه حول القصر الملكي أما السرادق الصغير الذي كان السلطان يجلس فيه صحبة ضيوفه الفرنسيين فقد كان يخيل إلى المرء أن المطر ينزل عليه أكثر مما هو خارج السرادق وأن الدرج الداخلية التي تربط بين صالة الجلسات وصالون الاستقبالات كانت بدورها قد غطاها السيل العرم وكانت كل درجة تكون شلالا من الماء يترامى بعضه على بعض .

وحيث إن أعضاء السفارة لم يكن في استطاعتهم أن يتعرضوا لمثل هذا الطوفان الجارف فقد ترقبوا حتّى الساعة الخامسة مساء أقول ترقبوا وقتا مناسبا وهادئا ليتمكنوا من الانصراف آمنين.

وإن المتاعب التي كانت تحتف بالمسافرين في طريق أفسدها توالي المطر وفي منعرجات غطيت بالوحل سيما والركب الوزاري الفرنسي يشتمل على بعض السيدات أقول إن ذلك كله فرض على قومنا أن يأخذوا بجانب الاحتياط وهكذا فبعد أن كانوا يريدون السفر من الغد فرض عليهم أن يرجئوه إلى ما بعد بضعة أيام حيث تكون السماء قد أشرقت والأرض قد يبست.

ولقد اتخذ هذا القرار من طرف البعثة في أثناء لعب الشطرنج عندما كانوا يتناولون أقداح الشاي المعنبر المنعنع وعندما كانوا ينتشون بروائح العود القماري في مبخرة ذهبية نعم لقد ارجئ السفر إلى يوم 20 أو 21 أبريل أعني بعد أن تمضي ثلاثة أو أربعة أيام.

وكما يقع في كثير من الأحيان فلقد أصبح من المتعين على أعضاء السفارة ومن دون ما شعور منهم أن يسيروا في اتجاه غير الاتجاه الذي كانوا يزمعون عليه بادئ ذي بدء وسنرَى قريبا أنه لو قدر للبعثة المذكورة أن تأخذ طريقها ابتداء من الغد في الساعة التي كانت محددة لديهم لكان نصيبها التقتيل والتقطيع بجميع أفرادها أليست أنها عاصفة محمودة.

الحصار من الزوال إلى التاسعة

في اليوم السابع عشر من شهر أبريل صباحا كانت السماء زرقاء الأديم ولكنها تحمل سُحبا كثيفة في أسفلها لقد كانت درجة الحرارة باردة انه يوم كسوف الشمس التام (الأربعاء 29 زبيع 2 1330) ذلك الكسوف

الذي لم يرصد في فاس لأسباب أخرى غير الأسباب التي ترجع لأحوال الجو.

منذ وصل السفير كنا نأوي إلى دار صغيرة مغربية تقع في شارع الطالعة ذلك الشارع الذي يعتبر أكثر خطرا من غيره في المدينة بأجمعها لقد كنا ثلاثة مسيو مينو وكالة هافاس واليوتنان بيزو وكنت أنا ثالث الثلاثة. الطالعة هذه عبارة عن الشارع الرئيسي الذي يؤدي إلى ضريح المولى ادريس حيث يلتجئ عادة كل ثائر قرر أن يعلن الجهاد.

لقد كنا منذ لحظات نتهيأ للأكل، الساعة تشير إلى الواحدة إلا ربعا دخل علينا أحد خدامنا وهو من الأهالي الجزائريين وكنا قد أرسلناه للمدينة ليقوم بجولة هناك. دخل بغتة وآثار الدهشة والتأثر تبدو عليه قال إن الثورة شبت منذ هنيهة وأن الفاسيين يقتلون الفرنسيين في الشوارع فأغلقوا الأبواب بسرعة.

حقا لقد قرس هذا النبأ قلوبنا ولكن الموقف كان يفرض علينا أن نفكر. يا لها من دعاية خرقاء؟ ثورة نشبت فجأة في فاس وفي الوقت الذي يهم فيه السفير الفرنسي بمغادرة فاس. مستحيل؟

كنا نعرف حقا من خلال الاخبار التي ترد علينا أن الحالة الفكرية للسكان ظلت دائما تنذر بالخطر، ولكن لم يكن من المقبول بالنسبة إلينا أن نفرض وقوع حادثة تبلغ هذه الدرجة من الخطورة دون أن يكون للسفير الفرنسي علم بها دون أن يتخذ الاحتياطات اللازمة لتلافيها ودون أن نكون نحن الصحافيين على علم تام منها. هل إن الأمر يتعلق فقط بشجار شب بين أهالي وأروبيين أم أنها ثورة حقيقية؟ لهذا قررنا أن نرسل خادمنا إلى خارج الدار من أجل أن يقتطف لنا بعض الأخبار الدقيقة، وذلك في انتظار أن نتناول الدجاجة المخضرة بالشامبينيون (الفطر) لكن الخادم رفض بكل صراحة ذاكرا أن بذلته الجزائرية تفضحه أمام الملأ!

وأن الناس يعتبرونه كخادم لأوربي ، لهذا فإنه يخاف على حياته .. ولكننا هل كنا قد اقتنعنا بما نقل إلينا ؟

— 6 —

رفض خادمنا الجزائري أن يخرج لألتقاط بعض الأخبار محتجا بأن بذلته كجزائري تفضحه وأن الناس يعتبرونه كخادم لأروبيين يجب القضاء على حياته فأخذنا نتفكه على حسابه وقررنا أن نشتغل بالمهم أعني أن نتناول طعام الغذاء تاركين الاستخبار إلى ما بعد.

بيد أن خادمنا أخذ يلح في الاحتياط ويذكر أن الحالة من الخطورة بمكان ولقد كدنا أن نتوجه إليه بالعتاب واللوم ولكن سرعان ما سمعنا أصداء معادية تصعد من الشارع.

وهنا قال مينو : لا شك أن شيئا غير عادي يجري فهلا حاولنا الوقوف على الأحوال ؟

إن صالة الأكل كانت لا تتوفر على نافذة للشارع ولهذا فقد صعدنا إلى الطابق العلوي لنتمكن بواسطة الكوة التي توجد في بيت بيرو — من رؤية الشارع وتبعنا خدامنا السبعة بعد أن أوصدوا باب الدخول ! فماذا رأينا ؟ رأينا الشارع يموج بعدد كبير من المغاربة يرفعون أصواتهم في عنان السماء.. وعدد لا يحصى من الجنود المغاربة يتزلون الطالعة قاصدين ضريح مولاي ادريس.

شيء غريب لقد ادخلت علينا رؤية هؤلاء الجنود باديء الأمر اطمئنانا فلقد كانوا مسلحين كل وبندقيته،كل وحزام الرصاص.

قلنا إن كل شيء على ما يرام ولعلها حادثة جرت داخل المدينة فأرسل هؤلاء الجنود للتدخل لفائدة الأمن والنظام بيد أن خدامنا الذين كانوا

يوجدون في ناحية أخرى ــ أثاروا انتباهنا لحادثة تجري تحت أنظارهم فهذا مغربي يملك اصطبلا وهو يكتريه لأحد الفرنسيين يجعل فيه خيوله يعاني الشدائد من الجمهور إنهم يطالبون بتسليم المفتاح ليستولوا على الخيول الفرنسية ولما استمر المغربي في رفضه ضرب ضربة قاسية وسرعان ما اختفى عن أنظارنا ، وطلعنا إلى سطح الدار لنتمكن من رؤية المناظر. فماذا كان ، إن سائر سطوح فاس مكتظة بالنساء فلا ترَى إلا رؤوسهن تبدو وهن يزغردن . إن الحركة تزداد لحظة بعد لحظة في الشارع المجاور وإن عدد الجنود المدججين بالسلاح ينمو عددهم من وقت لآخر .

ماذا يجري ؟

إن الاشاعات التي انتشرت والتي كنا نتلقفها تذكر أن هؤلاء الجنود ثاروا وأنهم قتلوا ضباطهم وهم يقصدون اللحظة مولاي ادريس .

وفي هذا الوقت بالذات نصح إلينا أحد الجيران من المسلمين الأتقياء ألا نبقى أبدا على سطح المنزل حتى لا نثير علينا غضب الجمهور وثورته فرجعنا اذن لبيت بيرو ، وأرسلنا طباخنا المغربي خارج البيت وذلك قصدا أن يحمل إلينا بعض التدقيقات حول الموقف الذي أخذت بوادر الخطر تكتنفه من سائر الجهات ان طباخنا شيخ مسن وهو مغربي كما قلت لكم يرتدي لباسا حسب قاعدة البلاد فهو اذن بعيد أن يثير أي انتباه حوله كما كان الأمر بالنسبة لخادمنا الجزائري .

وفي هذه الأثناء أخذنا نستعد للمعركة استحضرنا جميعا أسلحتنا ومعداتنا ولكن واحسرتاه إننا لا نملك إلا مسدسين اثنين مع كل مسدس ثلاثون خرطوشة فالمجموع ستون لقد أخذ بيرو بمسدسه وأمسكت أنا بمسدسي أما ثالثنا مينو الذي أتى للمغرب لأول مرة فهل كان معه سلاح ؟ اسمعوا مني أسطورته : عندما كان في طريقه لفاس كان سأل وهو في طنجة القبطان بيطلا الضابط الملازم للمسيو رونيول . هل ما إذا كان في حاجة

إلى أن يتزود بالسلاح وهو يتجه نحو فاس ؟ فأرسلها القابطان ضحكة عالية وأجاب مينو على سؤاله قائلا : تريد السلاح من أجل الدخول لفاس ؟ وماذا تصنع به،يالله من تفكيرك يا مينو أتريد أن تمزح بسلاحك ؟ .. لا .. لأجل الدخول لفاس ليس عليك الا أن تريد الدخول وستدخل .

لهذا كان رفيقنا لا يتوفر على سلاح هنا ! أما خدّامنا فهم الآخرون لم يكن بيدهم ما يدافعون به عن أنفسهم .

وهكذا فبعد أن أغلقنا الأبواب في احكام زائد وممعن قررنا أن نعتصم ببيت بيزو الذي يوجد في الطبقة الثانية وبهذا الوضع كان في استطاعتنا أن نضبط تمام الضبط الباب التي تؤدي إلى ساحة الدار وذلك في حالة ما إذا تغلب عليها متغلب أو اقتحمها مقتحم ولقد كان علي وعلى صديقي بيزو أن لا نستعمل السلاح إلا في آخر لحظة عندما نضطر اضطرارا لماذا ؟ لأن المواد الحربية كما ذكرت لكم كانت ضئيلة جدا أما مينو فقد كان وظيفه معنا أن يتكلف بحشو المسدسين بكل سرعة متى استنفدنا ما فيها .

هذه الساعة الثانية والنصف بعد الزوال !

الصيحات تتعالى من كل ناحية والطلقات النارية أخذت تنبعث من كل مكان وكل الدكاكين أخذت تغلق أبوابها في سرعة البرق الخاطف ، وعلامة أخرى للهيجان أدل على الخطوة مما سبق . تلك زغاريد النساء الحادة المتواصلة فأنت لا تسمع إلا يو يو يو يو ممزوجة بالانفجارات النارية .

وعلى م تدل يو يو عند المرأة المغربية ؟ لقد اعتدنا قبل هذا الوقت أن نسمع هذا الصوت في الحفلات ولكنه هل كان وقفا على ساعات الأفراح والسرور وهل كانت تلك الصيحات تختص بساعة الولادة أو الزواج أو أي مناسبة مشابهة لا بل هي صيحات انذار بالموت بالنسبة إلينا . نعم يو يو تتحول اليوم من بشير بالسعد إلى نعيق للغراب يا لها من صيحات مشؤومة !

قلت لكم أرسلنا طباخنا المغربي .. هانحن نراه الآن وقد اشتبك مع عدد من المغاربة . انه المسكين أصبح هدفا للتهديد لقد أمسك أحد المغاربة بخنجرته وأخذ يحاول أن يجهز عليه بخنجر كان في يده .. لقد أسفنا أن نرى صديقنا على هذه الحال ولهذا فقد صوب بيزو مسدسه نحو المعتدي بكل دقة وكانت مجرد حركة زائدة من ذلك المغربي كافية لأن يضغط بيزو على زناد مسدسه صوب المغربي وكنا نعلم مدى الخطر الذي كان يتمثل أمامنا من جراء هذا التدخل الذي يبرّر في نظر الفاسيين كل هجوم علينا أقول بالرغم من أننا كنا نعلم سوء المصير فإننا لم نستطع أن نتحمل ذبح طباخنا المخلص تحت أعيننا ولكن سرعان ما نجح هذا في التملص من هؤلاء وفتحنا له الباب فدخل يلهث وماذا يحمل معه من أخبار؟ لقد قال لنا :

إن الجنود هم الذين ثاروا وإن السكان المدنيين التحقوا بالثوار بدورهم ، ولقد قتل بالفعل من الفرنسيين ثمانية ، لقد رأيت بعيني — يقول الطباخ — على بعد خمسين مترا فقط من هذه الدار ضابطا فرنسيا يحمل بذلة حمراء لعله الضابط كوني — كان يمتطي صهوة جواده فاجتمع عليه الناس يصبون عليه شتائمهم لقد غطوا وجهه تماما ببصاقهم انهم أوقفوا فرسه وعمد أحد الجنود إلى رأسه فنزع القبعة التي كانت عليه ولما عمد الضابط إلى مسدسه ليدافع عن نفسه ارتمى جزار من حانوته على الضابط المذكور وأنزل على رأسه ضربة شاقور جعلت رأسه نصفين .. لقد فررت إذ إنني لم أستطع أن أرى أكثر من هذا !

هكذا حكى صديقنا .. ولقد اتخذت الطلقات في هذه اللحظة شكلا أعنف فمن كل ناحية تصعد شرارة بل ان احدى الطلقات انبعثت من سطح بجوارنا ولقد أخذنا نسمع لجلجة الأبواب وهي تكسر هنا وهناك ! أما «يو يو» فقد تضاعفت حدتة وشيء آخر. أخذ الفاسيون يتجمعون حول منزلنا. انهم الآن يطرقون الباب ! صحنا في خدمنا مرة أخرى إياكم وفتح الأبواب - امعنوا في غلقها !

— 7 —

إن الطلقات النارية تتوالى أكثر من ذي قبل وهؤلاء خدامنا يتهامسون فيما بينهم ان حديثهم لا يصل إلينا بيد أن هناك شيئا لاحظناه فأثار انتباهنا فماذا هناك إن خدامنا يزيلون المتاريس التي جعلناها وراء الباب !

ولقد أخذوا بالفعل يستعدون لفتح باب المنزل ! أفسيخوننا هؤلاء القوم ؟ وهل أصبحنا محل غدر.

لقد نزلنا في سرعة والمسدس بيدنا فماذا كان ؟ لقد وجدنا أنفسنا أمام أحد المسلمين الملحوظين في يده بندقية بيما صدره موشح بحمالة تنزل عن كتفه الأيمن إلى خصره الأيسر وقد زودت بالخراطيش. فمن هذا الرجل لقد فسر لنا الخدم أن هذه الشخصية المهمة تسكن بجوار منزلنا إنه شريف وزاني قدر الأخطار التي تحف بنا فورد علينا يجعل نفسه تحت تصرفنا.

نعم لقد قدم إلينا الشريف الوزاني كل مساعداته ، وعرض علينا سواء الدفاع عن منزلنا بواسطة رجاله المسلحين أو ايواءنا في منزله الخاص حيث لا شيء يهددنا .. لقد شكرنا بكل حرارة هذا المغربي النبيل الذي عرفنا فيما بعد أنه يسمى سيدي أحمد بن ادريس عم الشريف الكبير سيدي محمد الوزاني المكنى بوشنافة المنتمي لنفس الأسرة.

إن سيدي أحمد بن ادريس ذكر لنا أنه ورد لنجدتنا من قبل الشريف الكبير بوشنافة منذ اللحظة التي شعرنا فيها بالخطر الذي يهددنا. انه يعيد علينا ما ذكره وهو بصدق يريد أن يجعل نفسه تحت ارادتنا ... وبما أن سائر شؤوننا كانت على حال من التبعثر هنا وهناك في هذا المنزل الذي

نسكنه منذ قرابة من شهر . وبما أننا كنا نخاف أن يتعرض بيتنا للنهب عند مغادرتنا له فقد فضلنا أن نمكث فيه نعم قبلنا العون الكريم الذي قدمه إلينا الشريف فأصبحنا تحت حراسة رجاله المسلحين.

وعلى حين بغتة كان في حراستنا اثنا عشر رجلا جميعهم يحمل بندقية وعلى رأسهم الشريف المذكور وقفوا إزاء باب المنزل وهم على أتم استعداد لنسف كل من حاول الوصول إلينا بل انهم أرسلوا بعض الطلقات النارية حوالي الدار لابعاد بعض المتجمهرين من الثوار. وحوالي الساعة الثالثة أرسلنا بواسطة طباخنا الباسل رسالة إلى سفير فرنسا أوضحنا له فيها الحالة التي نوجد عليها في الوقت الراهن فحمل إلينا مبعوثنا الجواب الآتي من لدن أحد التراجمة الموظفين في السفارة إذ ذاك.

سيدي !

لي الشرف أن أحيطكم علما بأن وزير فرنسا قد اتصل برسالتكم ولقد طلب إلي أن أبلغكم أنه لا ينبغي أن تخرجوا من منزلكم إلا عندما نأتي لطلبكم بواسطة كوكبة من الجند وفي انتظار ذلك أوصدوا الأبواب عليكم التوقيع بيريتي.

فلم يبق لدينا إلا أن ننتظر وهذا ما فعلنا فالتجأنا إلى مراكزنا مستطلعين مستخبرين عن كل ما يجري خارج المكان.

إن الفتنة تتسع رقعتها من حين لآخر وإن الجماعات تتزايد هي كذلك من وقت لآخر سواء منها الجماعات المدنية أو العسكرية التي تحمل السلاح .. والكل يأخذ بطريقه في النزول إلى الشارع المؤدي إلى ضريح مولاي ادريس. وعلى حين غفلة تدفق سيل من البشر قذفت به إحدى المنعرجات أمام أعيننا،جماعة من المغاربة يصيحون ويكثرون من الحركات حول أحد منهم فمن هو هذا الذي يجتمع حوله الناس انه مغربي يحمل جسما داميا ناقص الصورة على رأس عمود.

دبت في جلودنا قشعريرة من الرعب والفزع فماذا نرى،انه رأس بشري رأس ضابط فرنسي ما في ذلك شك فبعد حين مرت أمام أعيننا غنائم أخرى من هذا القبيل إنها جثث دامية ملطخة بالوحل غير تامة الخلقة تحمل على قضبان وعصي أو على رؤوس سيوف البنادق وهذه طائفة تتألف من نحو اثني عشر مغربيا تتوزع فيما بينها مجموعة من المصارين الانسانية ما تزال تفور من الحرارة،يقطعونها بأسنانهم مترين إلى ثلاثة أمتار وذلك ليجعلوها عقدا على الاعناق بينما أصواتهم تتعالى في الفضاء من كثر الفرح والسرور .

لم نستطع أبدا أن نظل طويلا أمام النافذة الصغيرة التي تنفذ إلى هذه المناظر ان مسدساتنا تحرق أيدينا ! آه ! ليتنا كنا نتوفر على عشرة فقط من جنود اللفيف الأجنبي مع العدة الكافية فما أشهى الطعام الذي كان علينا عندئذ أن نقدمه لهؤلاء المعتدين !! لكن . لكن العقل والحكمة تفرض علينا اللحظة أن لا نفكر أبدا في أن نرسل من كوتنا ولو طلقة واحدة .. حيث أن ذلك سيعرض بنا لا محالة إلى هجوم عنيف من لدن هذا البحر الخضم من المهاجمين .

ما أبطأ عقارب الساعة ! لقد كنا نشعر بالمخاوف والهموم .

لقد أخذت أحرر بكل سرعة بعض الكلمات لابعث بها إلى الجريدة التي أمثلها هنا وللمرة الرابعة تطوع طباخنا بحمل هذه الأخبار إلى مكاتب التلغراف اللاسلكي بيد أنه رجع بعد لحظات ذاكرا أن تلغرافي قد رفض وأنه لا يسمح أبدا إلا بالأخبار الرسمية وهكذا فإن المسيو رونيول قد أخذ على عاتقه أن يكون هو الأول والأخير الذي يخبر الحكومة بكل دقة عن سير الحوادث الجارية !

وحوالي الساعة الخامسة سمعنا للمرة الأولى أصوات مدافعنا من نوع خمسة وسبعين وقد كانت معروفة جدا لدينا .

إن عزلتنا في هذا المنزل الذي تحول إلى معقل نتحصن به قد أسلمتنا إلى الأوهام والتخمينات .

لقد أخذنا نقول في أعماقنا إنه إذا كانت المدفعية قد تدخلت فإن الأمر يدل على أن الحالة جد خطيرة بيد أننا لم نسمع لحد الآن أصداء بنادقنا العصرية لسنة 1886 فهل إن جيوشنا المرابطة بدار دبيبغ على بعد أربعة كيلومترات من المدينة لم تستطع أن تقترب من المدينة وكيف أنه بعد مضي أربع ساعات على شبوب الفتنة لم يقع بصرنا على جندي واحد من الجيش الفرنسي في الشوارع .

لقد ظلت هذه الأسئلة تتعاقب أمام مخيلتنا ؟ كيف يا ترى سيتم الأمر وكيف سيكون المصير؟ ان طباخنا وهو المصدر الوحيد الذي أصبح بيدنا لالتقاط الأخبار يحيطنا علما بأن الملاح هو بدوره قد تعرض لاعتداء المعتدين وان الفتن تنزل من الملاح مارة على فاس الجديد نازلة إلى صميم المدينة .

أخذنا نتساءل هل يفكر المسؤولون في غلق الأبواب التي تربط بين حارات المدينة ؟ .

— 8 —

... إزاء هذه الفتن أخذنا نتساءل : لماذا لا يفكر المسؤولون في غلق الأبواب التي تربط بين حارات المدينة ؟ لكنا لم نلبث أن سمعنا أن هذا التدبير فكر فيه من لدن السلطات العسكرية ، وانه إذا لم يكتب له أن ينفذ فإنه ليس المسؤول عن عدم تنفيذه قومنا الذين عرفوا ضرورته في أول ما عرفوا ، ولكن المسؤول عن عدم القيام به هو باشا فاس على ذلك العهد الشاب الحاج حماد المقري نجل الوزير الكبير المقري الوزير الباريسي لدى صاحب الجلالة السلطان !

هذا ولقد زارنا في هذه اللحظة الشريف الكبير محمد الوزاني بنفسه ، وكان بعثه الينا المسيو كايار قنصل فرنسا بفاس ، وذلك من أجل أن يضمن حمايتنا قبل أن تصل النجدات الفرنسية التي تحركت من دار الدبيبغ لاغاثة من بالمدينة ، ولقد أكد لنا الشريف المذكور العواطف التي كان أسداها الينا عن اختيار سيدي محمد بن ادريس الوزاني

لقد كنا نجهل لحد الساعة ماذا يجري بكل ضبط ، ولا نعلم كذلك شيئا عن الأسباب التي من أجلها شبت هاته الفتن ، وعن المدى الذي بلغت اليه ان الساعة تشير الى الخامسة ، ولحد الآن فما نزال ننتظر من يصل لنجدتنا !

وإزاء نفاذ صبرنا فقد بعثنا حوالي الخامسة ونصف برسالة أخرى إلى قنصل فرنسا لتحيطه علما من جديد بما نوجد عليه من حرح وعنت ، ولقد اتصلنا بجواب ثان من لدن أحد الموظفين في السفارة يقول فيه بالحرف. :

« نظرا لتغيب الوزير » فإنه يخبرنا هو بأنه متى تمكن من الجنود ، فإنه سيسعف طلبنا وإنهم سيقودوننا إما الى السفارة واما الى المستشفى العسكري حيث يوجد معقل للمقاومة !

لقد أخذ الليل يسدل ستار ظلامه ، وأخذت الفتنة تخمد شيئا فشيئا باستثناء صيحات « يويو » الحادة التي تخرق حجب الهدوء ، فماذا كانت ترى النساء؟ انهن دون شك يلمحن جماعة من الفرنسيين يحاولون الفرار تحت جناح الظلام فهن بصيحاتهن المشؤومة يتابعنهم من أجل الفات أنظار الرجال اليهم ، فلقد كان أهل فاس سكارى ولكن برؤية الدماء والمجازر ! وكانت النساء تهدفن بزغاريدهن الى استئصال شأفة الفرنسيين المتناثرين هنا وهناك ... !

لقد دقت الساعة التاسعة مساء ! فأخذنا نستعد لقضاء الليل في منزلنا .. وهكذا فلقد كان على اثنين منا أن يقوما بالحراسة على التتابع كلما سمعت خطوات متواصلة بالشارع المجاور ! اما الباب التي كنا قد أوصدناها فلقد أخذنا الآن نسمع قرعها بعنف ! فماذا حدث هناك؟ أخذنا سائر الاحتياطات اللازمة ، وبعد محادثات ومفاوضات فتحنا الباب انها الفرقة الرابعة من الرماة الجزائريين تحت أمر القابطان بوردنو الذي أتى لانقاذنا ! ! وما هي الا برهة حتى امتزجت دموعنا وأخذت الاسئلة القصيرة تصطدم بالأجوبة المختصرة ، صعد القابطان بوردنو معي الى صالة الأكل بينما اتجه رفيقاي الى اعداد العدة لمغادرة المكان ، ولقد بقي الرماة الجزائريون في الشارع تعلوهم الكئابة ويستولى عليهم الصمت التام وعلى طاولة للأكل كانت ما تزال توجد بعض بقايا للعشاء فقدمت بعض ما كان حاضراً للقبطان الذي كان التعب والجهد قد نال منه مناله كما يظهر ذلك على محياه الكالح ، وعلى لباسه الملطخ بالوحل ولكنه هل قبل ما قدمته اليه؟ إنه أبَى أن يتناول أي شيء قائلا — انني لم آكل منذ أمس ، منذ الوقت الذي كنت أحاول فيه أن أتناول فطوري في الصباح لأكون على رأس

فرقتي وان رجالي هم الآخرون لم يتناولوا شيئا من الطعام ، وتعلم ياصديقي والحالة هذه أن واجب الرئيس الحرمان ، لهذا فاني لا أستطيع أن أتقبل أي شيء !

فقلت له : ولو بسكويت ؟ ولو كاسا من رحيق بوردو ؟

فأجابني : ولو ذلك .

لقد كنت أعلم منذ زمن طويل مدى الخلق الرفيع الذي يتملك الضباط الذين هم من طراز بوردنو فإنهم من حيث نكران الذات شيئ عظيم ، ولذلك فقد كنت أعرف أن نصيبي منه سوف لا يكون شيئا رغم الحاحي عليه

لقد تركته وحيدا وذهبت الى بيتي لارتدي ثياب الخروج ...

وعندما رجعت لاحظت أن القبطان قد أخفَى رأسه في جيبه كأنما هو طفل ضبط وهو يرتكب مخالفة ! لقد كان يحاول أن يقضم بأسنانه بعض فضلات من كسر الخبز.. قال لي والخجل باد عليه :

لقد غلبني الجوع ! ولكنه لم يلبث أن رمى كسرة الخبز وكأنما يخزى نفسه .. لقد قذف بها دون أن ينال منها شيئا .. فأهويت على يده أعصرها في حرارة ، وفي صمت وكان جوابه أن أغرورقت عيناه بالدموع قائلا :

هيا بنا سريعا ! فإن مهمتي لم تنته بعد ، ان زوجتي وطفلتي الصغيرة التي لا تتجاوز اثنتى عشرة سنة تسكنان في فاس الجديدة حيث مراكز الفتن ولا أعلم عن مصيرهما شيئاً ، ولا أدري هل تخلصا مما هما فيه ؟ وماذا عساه يكون حدث لهما ؟ وهل ما تزالان على قيد الحياة ؟ هيا بنا ! هل أنتم على استعداد ؟ فلنذهب !

هكذا كان يتحدث الينا القبطان بوردنو وما كان يعرف في تلك اللحظة أن مصيره المشؤوم ينتظره من الغد ! فلقد هوجم صباح اليوم

الموالي من طرف عصابة وقد كان على رأس فرقته واخترقت رصاصتان صدره فلفظ نفسه الأخير في المستشفى دون أن يعرف شيئا عن زوجته وابنته . نعم ، دون أن يحمل معه — على الأقل — بشرى نجاتهما من المعتدين !

لقد خرجنا مع القابطان تحت وابل من المطر الرقيق المتتابع وفي وحل هشيش وزلق ، واتجهنا نحو القنصلية الفرنسية حيث نظم دفاع قوي فوجدنا الشوارع التي كانت منذ ساعات محل الهيجان ، فارغة من المارين ومستسلمة الى سكون عميق .. ان الدكاكين مقفلة الأبواب بينما كنا نعثر على الأرض بين الفينة والأخرى على أثار النهب الذي قام به الثوار في الحي الاسرائيلي.

لقد خلصت فرقة القابطان بورودنو كذلك محافظ البريد المسيو بليك ، ولقد مررنا في طريقنا على بعض المنازل من أجل انقاذ الضباط الذين يسكنون فيها لكن واحسرتاه ! فلا أثر للقوم هنا ! إنهم صاروا في عداد الضحايا

وتابعت الكوكبة طريقها في جو يسوده الحداد والحزن ، لقد كنا نستضيءُ بسراج من الشمع فكأنما كان يزيد في ظلمة الشوارع الضيقة المنعرجة !

وطيلة المسافة التي قطعناها كنا نستخبر . بيد أن الأنباء كانت ما تزال لم تبلغ حدا من الدقة والتحري فلقد ذكروا اسماء لنحو من خمسة عشر ضابطا وكثيرا لا يحصى عددهم من المدنيين لقوا حتفهم ، إن المدينة بأجمعها باستثناء حي القنصلية كانت تحت رحمة الثوار من أهل فاس ...

— 9 —

... ولولا أن حي القنصلية نفسه لم تصله النجدات على جناح السرعة من دار الدبيبغ لكان هو الآخر في خبر كان ، ولقد سمعنا أن الملاح نهب ، وأن كثيرا من الأسرائليين قتلوا ، وأن القبائل المجاورة لفاس أخدت بكامل الاستعداد لتشق طريقها نحو فاس ..لهذا كان حتما على المسؤولين أن يطالبوا بالاسعافات في أقرب وقت .. فإن الشائعات التي كانت تروج هذه الليلة كانت تتخلص في أن سائر الأوربيين المقيمين بفاس عليهم أن يستسلموا للموت غدا بأجمعهم !

وإن كل هذه الأنباء كنا نتلقفها ، وكنا نتبادل أصداءها فيما بيننا بصوت خافت ، ولكن دون أن نعرف شيئا عن أسباب الثورة التي أدمت البلاد .

لقد أسرعنا نحو الجرال بريلار للحصول على بعض المعلومات المدققة ، وحوالي الساعة الحادية عشرة ليلا ، على مقربة من المستشفى العسكري حيث ينظم الجنرال معسكره الدي لم يفارقه ليل نهار طيلة أكثر من أسبوع كامل ، أقول عند هذه الساعة رأينا مشهدا يدعو للاشفاق : لقد وقعت أبصارنا — ويا للهول ! — على جثة مريعة ممزقة وإلى جانبها أمعاء أصحابها وقد لطخت دما ، وغطيت وحلا ! لقد كان بحق مشهدا حزينا وكئيبا كذلك .. بمجرد ما وقعت عيون الجنرال بريلار علينا ، لم يستطع أن يخفي اندهاشه البالغ ، إنه كان يعتقد أننا — وقد كنا في الحي الأكثر خطرا من سائر أنحاء المدينة — لا محالة في عداد المهلكين لكننا قد أنقذنا ووقينا شر هذا اليوم المشؤوم ...

بيد أنه هل سلم الآخرون ؟ لا مع كامل الأسف ، فما أكثر عدد الضحايا التي سقطت ! وما أكثر ما سيسقط أيضا !

لقد كنا نسمع الفينة والأخرى طلقات البنادق هنا وهناك وفي نواحي المستشفى نفسه ، وبين اللحظة والأخرى كنا نرى ضابطا يأتي حاملا لبعض الأنباء وآخر يخرج حاملا للأوامر ، ولقد ظل الجنرال بريلار سيدا مالكا لنفسه . مسيطرا على زمامها دائما ، واستمر محتفظا بهدوءه مراعيا جانب الدقة والتحري في الأوامر التي يصدرها لمن حواليه من القوم باذرا الثقة في نفوسهم .

نعم لقد نظم دفاعه ، وكان هو بنفسه في صميم الميدان ، وما انفك عاملا مخلصا وصحبته الكولونيل مونجان ، والكمندان يريمو ، والترجمان روبني . وضابطه الدائم فيرجيس .

وإلى جانب الجنرال بريلار كان يوجد ضابط يحمل بذلة جميلة ، وتزينه لحية كثة ، يتناول سيجاره في هدوء ، وكنت ألاحظ في أغلب الأحيان أن الجنرال بريلار يميل اليه للتحدث معه ، فمن هو هذا الضابط الذي لم نره قبل هذا الوقت ؟ نعم لقد عرفناه فيما بعد .. أما الآن فكان من المستحيل أن يتبين الانسان مركزه من بين المراكز ، بل ونوع سلاحه بين الأسلحة ، إنه يرتدي سروالا طويلا من الكاكي وحذاء من الجلد الأسود ، وقد جعل على رأسه شاشية الصبايحية.

لم أتمالك دون أن أتقدم اليه قائلا :

— هذا هبير جاك المراسل الحربي لجريدة « لومتان »

— وهذا الكمندان فيليبو من الفرقة الرابعة للرماة الجزائريين،وفي كلمات قليلة أشار إلينا عن الكيفية التي تم بها نزوله في دار الدبيبغ صحبة فرقته على بعد أربع كيلومترات من فاس ، وأنه توصل بالأوامر ليزحف في سرعة لنجدة الأوروبيين المحاصرين بالمدينة ... لقد كان هؤلاء القوم هم الذين

سجلوا صفحة من المجد والعظمة ، فهم الذين وردوا يبحثون عنا في أماكننا وهم الذين أبلغونا الى قنصلية فرنسا حيث التجأنا بصفة موقتة . إن الكارثة لاشك أنها كانت في علمه ، وهو على اتصال دائم بالسفير الفرنسي .. أما أنا فكنت دائم التفكير : عجبا ! في ساعة تبدلت الأحوال غير الأحوال ، وشبت النار هنا وهناك وكيف لو لم تصل النجدة بهذه السرعة وكيف يكون الحال لو تم اتصال القبائل المجاورة لفاس بالفاسيين ان الكارثة لاشك أنها كانت ستكون أعظم !

إن الجنرال بريلار لم يكتمنا بحال شيئا عن الأخبار المروعة التي كانت تصله من كل جهة ، ولم يخف علينا كذلك أفكاره حول المأساة التي كنا نعيشها تلك اللحظات ! أنه يرى أن أسباب الحادثة عميقة ! وأنه كان هو بنفسه يتوقع شبوب أمثال هذه الفتن ، فإنه كان يعتقد أن هناك عاملين بارزين هما اللذان أثارا هذه الفتن والقلاقل فمن جهة كانت الأخبار التي ترد على الفرنسيين المهتمين بالقضايا كلها تذكر أن المسلمين ممتعضون من توقيع معاهدة الحماية ، وثانيا فإن المسلمين لم يرتاحوا لخبر الاعلان عن ذهاب السلطان دون رجعة !...

ها هو الليل ينتصف ! ولا تدري ماذا يرجئه القدر لنا في اليوم الموالي ، لقد ظهر لنا أن من الحكمة أن نأخذ قسطا من الراحة في هذه الساعات الهادئة التي تستسلم فيها المدينة الى سكونها الشامل ، لهذا فقد استلقينا على زربية وأغمضنا أجفاننا تصيدا للنوم ، وذلك في أحد البيوت التي تحتوي عليها القنصلية ، والتي تحولت من مكاتب إلى ملاجئ تؤوى هؤلاء الفارين !

لقد كانت هذه هي الانطباعات الشخصية التي سجلناها طيلة هذه الظروف أو بالحرى طيلة هذا اليوم الكئيب 17 أبريل حيث ظللنا محاصرين في بيوتنا من الزوال الى التاسعة مساء !

ولكن ماذا جرى ؟

إنه من خلال التحقيقات المدققة التي قمنا بها ، ومن خلال الوثائق التي كنا نتوفر عليها بين أيدينا استطعنا بصدق أن نقف على سائر المراحل التي تمّ فيها اعداد المأساة ..

فكيف اذن شبت ثورة فاس ؟

في اليوم السابع عشر من أبريل عند الزوال ، بعدما تناول السلطان طعام الغذاء كان يوجد صحبة الوزير المقري في السرادق الصغير للمشور حيث كان استقبل بالأمس رجال القنصلية بعد الغذاء الفاخر الذي أعده على شرفهم بمناسبة وداعهم.

وفي الحجرة المجاورة كان يوجد الدكتور مورا وزوجته ، اللذان وردا لتوديع السلطان حيث أنهما لم يستطيعا أن يصحباه الى الرباط ، وقد كان من المقرر أن يسافر الملك غداة اليوم الثامن عشر من أبريل.

وحوالي الساعة الثانية عشرة وربع سمع السلطان صياحا بعيدا كان يرد من جهة ساحة المشور ، واعتقد بادئ ذي بدء أن الأمر يتعلق بخيول شردت من معاقلها ، فصعد إلى الطبقة العليا للرواق لتكون رؤيته أتم وأكمل ، ولكنه لاحظ أن الواردين هم عصبة من الجنود ، أخذت تقترب شيئا فشيئا من المكان الذي يشرف عليه .

— 10 —

... وتوجه المولى عبد الحفيظ نحو الثائرين يسألهم عما إذا كانوا يرغبون في شيء؟ فكان جوابهم :

إنك سلطاننا ، وردنا عليك لنقدم شكوانا بالضباط الفرنسيين الذين يعاملوننا معاملة قاسية ، والذين يحتفظون لنا بالأعمال الشاقة التي يقوم بها عادة البغال والحمير ، هذا الى أنهم ينقصون من أجرتنا !

فأجابهم السلطان قائلا :

« عليكم أن تذهبوا إلى الوزير المقري لترفعوا أمامه شكواكم ، وحالما تعرض علي سأدرسها بإمعان ، فانصرفوا اذن ... »

فاتجه الجنود في الحين الى بنيقة الوزير المقري الذي استقبلهم مباشرة ..

وبعد هذه الحادثة ، غادر الملك وهو أشد ما يكون تأثرا ، أقول غادر السرادق الذي كان به ، بواسطة باب مختفية وأصبح بداخل القصر .

فهل وقف الأمر عند هذا الحد؟

إن جماعة أخرى من العساكر تحمل هذه المرة سلاحا نجحت في اختراق أبواب القصر بعد هذا بلحظات ، ووصلت إلى ساحة المشور . ثم اتجهت نحو الباب الأخير طالبة في شكل خطير ومثير رؤية السلطان .

لقد رفض السلطان باديء ذي بدء أن يستقبلهم ، بيد أنه إزاء الالحاح الشديد من هؤلاء الجنود ، وإزاء النصائح التي كان اسداها اليه رجال حاشيته خضع للأمر ، ولكنه قبل فقط أن يمثل بين يديه ثلاثة من أولئك الجنود وعلى شرط أن يتجردوا عن كل سلاح .

.وتقدم النواب الثلاثة . وعرضوا على العاهل —وهم على حال من الهيجان بالغة— عرضوا عليه نفس الشكوى التي عرضها أسلافهم فهم « يتأففون من سوء معاملة الضباط الفرنسيين ، واحتقارهم لهم وبخسهم أجورهم ! »

فأجاب مولاي حفيظ :

— سأدرس مقترحاتكم ، وفي انتظار ذلك ينبغي لكم أن تنصرفوا ، اقصدوا ضريح مولاي عبد الله ، وتوجهوا الى الله ! »

وبمجرد ما انصرف الجنود الثلاثة ، أخذت بوادر عصابة ثالثة للعساكر تظهر في جوانب القصر ، ولقد كانت من حيث الثورة والهيجان أسوأ حالا من السابقتين ، فلقد اندفعت نحو غرفة السلطان صارخة صائحة ، تطلب بكل شدة أن ترى صاحب الجلالة .

وبعد لحظة قضاها السلطان في التردد والتأمل ، قبل أيضا أن يستقبل ثلاثة مندوبين آخرين ، وكما كان في الاولين ، فقد جرد هؤلاء من السلاح قبل أن يدخلوا ردهة الملك .

ولقد عبر هؤلاء أيضا عن مطالبهم ، بيد ان هذه الطائفة امتازت عن الأوليين بأنها أفرغت ذلك في عبارات جد قاسية لدرجة أن السلطان تأثر أيما تأثر !

لقد قالوا في جملة ما قالوا :

« نريد أن تتدخل حينا لفائدتنا . فإن شخصك ما انفك عندنا دائما الشخص المحترم فأنت سيدنا الوحيد ، ونحن جنودك الأوفياء ، ولكنك ستفارقنا ، وستغادر فاسا الى غير رجعة »!

فكان جواب الملك — وقد ظهرت على محياه امارات الاضطراب —

— أبدا ! سوف لا أغادركم نهائيا ، وإنما سأذهب الى الرباط فقط !

ولكن الجنود أجابوه في وقاحة نادرة قائلين :

« ليس هذا صحيحا . فإننا نعلم أن عليك أن تغادر المغرب كله لتتجه نحو بلاد الروم ! وإذا كان حقا ما تقول من أنك انما ستذهب فقط للرباط ، فلم إذن لانصحبك نحن إلى هذا الرباط ؟ إنك سلطاننا ، ولا يمكن بحال أن نتنازل عنك ، ولذلك فإن رغبتنا أن لا تفارق هذه الديار »

وهنا كان التأثر بلغ أقصى منتهاه بالمولى عبد الحفيظ ، فأجابهم بصوت مرتجف .

— نعم ! انني اعلم انكم جنود مخلصون لي ، وأنه في استطاعتي أن اعتمد عليكم ، نعم ستصحبونني جميعا الى الرباط ، فاذهبوا من الآن لانتظاري في « نزالة فرجي » — على بعد نحو خمسة كيلومترات من فاس — فإنني سألتحق بكم بعد حين ، وكدليل على أنني أمنحكم ثقتي ، فإنني أعهد اليكم بأن تسهروا على حراسة أسرتي التي وصلت الى ذلك المكان ونزلت فيه فعلا ».

وفي اصرار غريب أجابه الجنود الثائرون قائلين :

— إننا نرغب أن نلتحق ، بـ « نزالة فرجي » ، ولكن يجب أن تمكننا حينا من العتاد العسكري » .

ولقد حاول مولاي حفيظ أن يعقب على طلبهم هذا ، وقد أخذ يشعر بنوع من المضايقة والحرج :

— ولكن تحت أيديكم الكفاية من العتاد .

فاعترضوا عليه قائلين.

ـــ أبدا ليس لدينا ما يكفي من الرصاص ، يجب أن تجعل سـ
مخازن السلاح والذخائر تحت أيدينا وذلك لنتمكن من أن نستغلها كما يجـ
متى دعت اليها الحاجة.

وحيث أن مولاي حفيظ لم يستطع ان يأخذ بطريق الحزم حاول
أخرى أن يناقشهم في الموضوع . ويبين لهم عدم الفائدة والجدوى
التكثير من السلاح ...»

خرج الجنود يصيحون بالويل والثبور . ويستنزلون اللعنات .. والتحـ
بأصدقائهم الذين كانوا في انتظارهم بساحة المشور ، واتجه الجميع
مستودع المذخرات . وأخذوا يحاولون اقتحام الأبواب ..

بيد أنهم عندما حاولوا ذلك منعوا من لدن الجنود السود الذين جـ
في طريقهم الاسلاك الشائكة.

وفي هذه الاثناء أنذلعت الشرارة من لدن العصابتين الأوليين ... فـ
قصدت هاتان الجماعتان ـــ بعد أن ودعتا القصر الملكي ـــ مركزهما
المعسكر وذلك من أجل اعلان الثورة ضد المدربين الفرنسيين.

وحيناً التحقت بهما الفرقة الثالثة التي وردت من القصر وهـ
اشتعلت النار ، وأعلنت الثورة.

تلكم كانت المقدمات التي سبقت الفتنة ، وتلكم كانت الأسبا
الظاهرة ـــ وأقول الظاهرة ـــ للشغب والتمرد ، ولكن ما هي الأسبا
الحقيقية ؟ ذلك ما ينبغي أن ندرسه في تعمق وتقعر...

وقبل كل شيء فان من المهم أن نشير الى أن الفرنسيين وحدهم
الذين تجرعوا الشدائد من لدن المغاربة ، وهكذا فإنك عندما تستعر

أمامك الضحايا ، لا تجد واحدة منها غير فرنسية ، أو في خدمة فرنسا . ففرنسا كانت أولا وأخيرا هي المقصودة بالاذاية !

ولعل أحسن ما يؤيد ما نقول هو أن الثوار المغاربة عندما أعلنوا يوم 17 أبريل عن غضبتهم ، عمدوا الى دار أوربية ، فنهبوها وكل ما فيها ، بيد أنهم عندما عرفوا بعد ذلك أن هذا المنزل هو ملك للبريد الانجليزي بذلوا أقصى ما في مستطاعهم ليرجعوا كل شئ الى مكانه ، وعلى ترتيبه السابق حتى لا يتركوا أثرا لمرورهم ، بل وإن ساعة كبيرة من النوع الرقاص الذي يهتبل به المغاربة نهبت من هذا المكان . ونقلت خارج المدينة لكنهم أرجعوها وجعلوها في نفس الموضوع الذي كانت فيه بكل أمانة !

أما المنازل التي كانت تأوى الضباط الفرنسيين أو المساعدين لهم ، وكذلك الأماكن التي كان يشتغل فيها رجال الأعمال من الفرنسيين ... فقد شنت عليها الغارات ، وأصبحت أثرا بعد عين !

وعلى العكس من ذلك فلم يسجل على أي قنصلية غير القنصلية الفرنسية ولا على أي مؤسسة أجنبية أي شئ يبعث الناس على القلق والألم ، وإن المثال الذي ضربناه لكم عن « البريد الانجليزي » لنموذج في هدا الباب لمن يريد أن يقف على الحقائق.

— 11 —

... لقد كانت الضحايا الأولى في فتن 17 أبريل هي المسيو برينيو المهندس الخاص للسلطان ، والمراسل الدائم لجريدة لوماتان ، في مدينة فاس ، وزوجته مدام برينيو ، وكذا اليوتنان رونو ، والمسيو بانجيو ، وكانا ضيفين على المسيو برينيو وزوجته.

لقد كان برينو يسكن دارا صغيرة على بعد نحو مائة متر من القصر الملكي ... ولهذا **فلقد كان على تلك الفئات الباغية** الثلاث التي حدثناكم عنها ، **والتي تظاهرت أمام السلطان** كان عليها أن تمر بمنزل المسيو برينيو حيث إنه لامسلك لهم سوى على طريقها ، وعند رجوعهم كان ما كان .

لقد كانت الأسرة مع ضيوفها تستعد لتناول طعام الغذاء ، وفي هذا الوقت نفسه سمعت ضجيج الطوائف الأولى « من **المشاغبين** »، **وهم في طريقهم** إلى القصر : انها صيحات وتهديدات تتعالى من الشارع العام .

انتصب المسيو برينيو ، وقد نال منه الامتعاض بعض الشيء،غادر مائدة الطعام تاركا زوجته تحت حراسة اليوتنان رونو ، واتجه نحو القصر صحبة ترجمانه عبد الله الجزائري ، وذلك ليقف على جلية الأمر حول الأسباب التي دعت الى هذه الحركات .

وصل دون صعوبة إلى القصر وحضر بنفسه بعض تلك المشاهد التي جرت هناك ، فالتفت نحو ترجمانه قائلا :

— اذهب وطمئن زوجتي ! قل لها : سأرجع بعد لحظات ، وإنه ليس هناك شيء يبعث على مزيد من القلق !

وهنا يجب أن أقول : ان برينيو وزوجته الشابة اليانعة لم يكونا أبدا ممن خامرهما أدنى انزعاج أو تخوف من الطلائع الأولى لمظاهرة الجنود ... انهما عاشا في فاس ، وفي هذا المنزل منذ مدة ، ولقد شهدا الساعات الحرجة التي مرت بفاس في أثناء حصار 1911 بل ورأيا في فاس أكثر من هذا ، وفي شجاعة ورباطة جأش لا يتطرق اليهما الشك في لحظة من اللحظات .

لقد كان برينيو يوما عن يوم ساعة بعد ساعة ، وتحت رصاص المهاجمين الذي كان ينهال حوله ، كان — رغم هذا — يسجل سوانحه لقراء لوماتان عن كل التطورات التي ظلت تتعاقب طيلة ثلاثة أشهر قبل هذا التاريخ .

ولكن الزوجين هذه المرة أخذ يساورهما الاعتقاد بان ساعتهما قد حانت ، وبالأخص عندما شاهدا الثوار يقرعون جدار القصر الملكي نفسه الذي لم يكن محروسا الا من قبل هؤلاء الذين يتظاهرون اليوم !

نعم إن هؤلاء الذين يعلنون أمام السلطان اليوم عن سخطهم على ضباطهم الفرنسيين ، كان يعرفهم برينيو بالأمس في الساعات الصعاب وقد تكتلوا حول أولئك الضباط ليدفعوا عنهم غائلة الشرور .

لقد ذهب اذن الترجمان عبد الله ليطمئن زوجة برينو ، ولكنه هل نجح في الوصول الى المنزل ؟ انه اصطدم مع الفئة الثالثة للجنود ، فلم يسعه الا أن يلوذ بأذيال الفرار حتى لا يعرض نفسه للخطر فإن حيثيته كجزائري يخدم فرنسا كان يوحى بذلك !

وبمجرد ماشاهد برينيو وبانجيو أن الطائفة الثالثة من الثوار قد وصلت ، اعتصما بسلاحهما ، واتجها نحو ساحة القصر الداخلية.

وفي أثناء طريقهما التفت برينيو في صديقه بانجيو قائلا :

« ومع هذا فليس هناك ما يدعو الى التفكير بأن هناك خطرا كبيرا ،

فلنترك هؤلاء وشأنهم . فسوف يسوون مشكلهم فيما بينهم ، ولنذهب نحن الى منازلنا لنتناول طعام الغداء ! هيَّا معي يابانجيو فسنكون هناك في المنزل أكثر اطمئنانا على نفوسنا !

إن برينيو الذي خدعه مشهد المظاهرات الجارية كان يعتقد مع شديد الأسف أن الخطر كان يحف بالقصر الملكي أكثر مما يحف بمنزله ! انه لخطأ كبير ! فإن عكس الفكرة هو الذي تحقق فعلا ! فإن الأشخاص الذين لاذو بالقصر وظلوا تحت جدرانه كالمسيو مورا وزوجته ، وكذلك الطبيبة بروايضو ، كتب لهم أن ينقذوا وكتب على الآخرين الذين التمسوا الأمن في بيوتهم أن يقتلوا ويقطعوا !

وهكذا فلقد غادر برينيو وصديقه بانجيو القصر ، ورجعا الى حيث زوجته واليوتنان رونو

فماذا جرى إذن في هذا البيت ؟

سنستمع الآن الى من بقي حيا من الخدم الذين كانوا يقومون بشؤون البيت ، أما الخادمة اليهودية فلقد لقيت حتفها ، لكن الخادم المغربي يحكي أن الثوار لما اقتحموا المنزل ، اطلقوا عيار نيرانهم على من به ، فأردوا برينو قتيلا في أول الأمر ثم بعده اجهزوا على اليوتنان رونو ، وكان ثالث القتلى هو بانجيو !

أما مدام برينيو فلقد بقيت على قيد الحياة ، وهنا اقترح عليها الخادم المذكور أن تلوذ بأذيال الفرار عن طريق السطح ومكنها من جلابته حتى تستطيع أن تتنكر عن انظار الناس ، ولكنها اجابت الخادم في شهامة قائلة :

« أبدا ! إن زوجي خر صريعا فيجب على أن أظل بجانبه ! »

قال الراوي : وفي هذا الوقت بالذات نفذت رصاصة إلى مدام برينيو فصرعتها على الأرض !

بيد أن هذه المعلومات المستقاة من لدن « الخادم » عرضت على الاختصاصيين في البحث ، **وعلى الأطباء كذلك الذين** اختبروا نوع الضربات القاتلة . فوجد أن جلها — إن لم تكن كلها — عارية عن كل سند ، والحقيقة أن الخادم المذكور لم يستطع أن يبقى بحال في عين المكان بمجرد ما سمع الطلقة الأولى ، لكنه وقد خاف أن يتهم بأنه « لم يساعد اسياده » أخذ يختلق صورا للحادثة ، ويذكر ما قال هذا ، وما فعله ذاك حتى لا يعرض نفسه للمواخذة . ولقد ظل سجينا طلية شهر ، ولكن اطلق سراحه بعد .

نعم كانت هذه أول جريمة دشن بها المعتدون أعمالهم ، ومن هنا تفرقوا جماعات جماعات ، ولم تلبث هذه الجماعات أن تكاثرت ، وانحاش إليها مختلف العساكر ، بل وسائر طبقات الشعب ، وتشتتوا في أنحاء البلاد : المدينة ، الملاح ، قصبة الشراردة ...

بيد أن الشراردة ظلت النقطة المهمة التي توزعت منها سائر الشرور : شرور أيام فاس الدامية !....

أما « أوتيل فرنسا » الذي كانت تديره اذ ذاك مدام امبريدي ، والذي كان يقع في صميم المدينة ، في حومة الطالعة « في الطريق التي تربط الطالعة الصغرى بالطالعة الكبرى (قبالة مدرسة الأميرة لالة عائشة ، الدار رقم 27 »، نعم في هذا الفندق الجميل كان ينزل عدة عسكريين ومدنيين ، وفي الوقت الذي أخذ الناس يستعدون لتناول طعام الغذاء وصلتهم الطلائع الأولى التي تحمل خبر شبوب الفتنة ...

وسرعان ما هب العسكريون **للالتحاق بمعسكرهم ، بينما أخذ** المدنيون استعدادهم الكامل للدفاع عن أنفسهم .

واستطاع أولئك العسكريون أن يصلوا الى باب أبي الجنود ، وفيهم القابطان كاني وليسباردا ولكنهم لم يغادروا الباب حتى انقض عليهم

الثوار ، ولم يجدهم دفاعهم نفعا فسقطوا تحت وابل ضربات الجمهور .

وفي نفس المكان ، وبعد برهة وجيزة ، ورد القابطان لافان وروشيط ، يريدان الخروج من الباب ، فكان مصيرهما نفس المصير : قتل وإبادة .

أما اليوتنان لابار ، فقد حوصر في منزله ، وألقي عليه القبض حيا ، فذاق أسوأ العذاب ، وكانت نهايته أن احترق فمات خنقا ...

واليوتنان روناهي ، والسرجان بوسيلو ، وماكيني وروسيني ، والسرجان كاكار والكبرال بوني ، واليوتنان افريل ، وكيراز الذي دعك وراء باب منزله ، وكيرن وموتي والقيسيس فابر ومديرة أوتيل فرنسا ، والمكلفون بشؤون التلغراف ... كل هؤلاء زهقت أرواحهم في فاس ... وعلى يد من ؟ على يد من كانوا يحسنون فيهم الظن ، ويولونهم ثقتهم ، كانوا يعيشون معهم عيشة آمنة ، وكانوا يحبونهم ويعتقدون أن الفاسيين يبادلونهم هذا الحب بمثله .

أما القبطان مارشال فلقد لقي حتفه بواسطة سيف كان في ملك الخادم الذي عهد إليه بحراسته ! وكان ذلك على سطح المنزل الذي يسكنه القابطان عندما صعد إليه هذا المسكين فارّاً من اعتداء المعتدين ... نعم وكان ينتظره أفظع من هذا ، فلقد رمى به من أعلى السطح إلى الشارع للجمهور الذي كان يترقبه للاجهاز عليه !

وكذلك فإن الضابط ريني والمساعد لورى فوجئا هما الآخران كذلك في منزلها فتجرعا ما تجرعه الأولون ، ولقد نجح أحد هذين في التسلق إلى السطح فرار بنفسه ، بيد أنه اصطدم هناك في السطوح المجاورة بسرب من النساء المغربيات قطعن منه الأنفاس ! وعمدن إلى حرقه على نار بطيئة عضوا عضوا ، وظلت أشلاؤه هكذا من الواحدة بعد الزوال الى السابعة مساء !

— 12 —

وإذا لم يكن في مستطاعنا أن نتوفر على العلم بما جرى في تلك اللحظات الأخيرة من حياة أولئك الاشقياء الذين لقوا ختفهم على ما سمعت ، فاننا على العكس من ذلك استطعنا أن نقتطف حكايات من هؤلاء الآخرين الذين أسعدهم الحظ ، فنجوا من الخطر المحقق .

لم نعرف في أساطير المغامرات التي بلغت أقصى الغايات في المأساة أسطورة تحاكي أو تقارب هذه الظروف التي عاشها هؤلاء ، والتي وجدوا نفوسهم أمامها وجها لوجه ... ولنستعرض أمامنا على سبيل المثال تلك الساعات المضنية التي مرَّ بها (الضباط الأربعة): بوجارد ، أودو ، جيرما ، كاربانتي ، أولئك الذين نجحوا بعد أهوال وأهوال من متابعة المغاربة التي كانت شديدة ومستحرة أيضا .

لقد كان الأربعة يسكنون دارا صغيرة في صميم المدينة ولقد كانوا على مائدة الغذاء حوالي الساعة الثانية عشرة ونصف عندما ورد عليهم أحد المكلفين يحيطهم علما بأن الجنود المغاربة قد أعلنوا الثورة !

ولقد كانوا وهم في أثناء تلقيهم هذا النبأ يسمعون بآذانهم اصرار ذلك الهيجان في الشارع العام ، فعمدوا حينا إلى أبواب المنزل ، فأوصدوها ، وجعلوا خلفها رتاجا لإحكام الإغلاق وأخذوا كامل استعدادهم للمقاومة فصعدوا إلى الطبقة الأولى ليتزودوا بالسلاح ، وأول محاولة خطرت ببالهم انهم أزمعوا على الفرار عن طريق السطوح المجاورة بيد أن الفشل كان حليفهم في هذه الفكرة إذ أنهم كانوا يستقبلون من لدن المتربصين لهم في السطوح بوابل من الرصاص !

فماذا فعل هؤلاء بعد ؟ لقد قرروا اذن أن يلتجئوا الى أحد البيوت التي توجد في الطبقة الأولى حيث ان باب المنزل قد اقتحمت واخترقها المتظاهرون ، بل انهم انتشروا في فناء المنزل الداخلي !

وقبل أن يغلقوا عليهم باب المختبأ الذي اختاروه للنجاة بأنفسهم ، أقول قبل ذلك تابعوا مقاومتهم من النافذة التي تشرف على فناء المنزل حيث كان الثوار يطلقون النار بدورهم واضطر المتظاهرون إلى الرجوع القهقري إلى الممر الذي يؤدي إلى وسط الدار حيث استرسلوا في المقاومة !

إن كل واحد من الأربعة يحمل سلاحه الخاص به ، ولقد استمروا بأربعتهم يطلقون النار كلما بدا رأس أمام أعينهم

وفي أثناء هذا كان جانب من المغاربة يشتغلون بنهب ما في المنزل ، ولكن لم تمض لحظات حتى كانوا على مقربة من المهاجمين لا تفصل بينهم الا باب واهية وهنا دخلوا بيت « أودو » حيث عمد ثلاثة الى بنادقهم يرسلون منها النار بواسطة النوافذ والباب ، بينما ظل رابعهم يناولهم ما يحتاجون إليه من قراطيس ..

فماذا كان بعد هذا ؟

إن عدد المغاربة ما انفك يزداد لحظة بعد لحظة ، ودون انقطاع ! وهكذا أخذ الأربعة يتصورون أمامهم الهزيمة المحققة ! إنهم يوقنون الآن أنهم لا يستطيعون الاستمرار في المقاومة وقتا طويلا سيما عندما أخذت ألسن النيران تتقاطع لتأخذ طريقها إليهم من كل جانب !

إنهم اهتدوا إلى الالتجاء بعد هذا إلى المرحاض الذي يتصل بالبيت الذي أصبح مهددا هو الآخر بالاقتحام ! نعم ووجدوا في الكنيف كوة صغيرة فساورتهم فكرة الفرار بأنفسهم منها انها تؤدى الى الخارج الذي ينشدونه بيد أن الكوة كانت من الضيق بحيث لا يمكن أن ينفذ منها جسم رجل فماذا يصنعون ؟ لقد فكروا في توسيعها .. وتعهد « جيرما » بالعمل هو

بينما استمر كاربانتي وأودو حجرة عثرة دون تقدم المعتدين وذلك بنيرانهم المتتابعة التي يصبونها على المهاجمين من النافذتين معا .. لكن ما هي الأدوات التي يتوصل عن طريقها جيرما إلى توسيع الكوة ليس تحت يده إلا غمد سيف ومع ذلك فقد أخذ ينقر بين الأجر ، ويحاول نزع الملاط الذي يمسك الآجرة بأختها ! ولكن عبثا ما كان يريد .. واستطاع أن يستجمع أنفاسه ليصيح في صديقيه قائلا :

« إن عليكم أن تحاولوا المرور من هذا الثقب على ما هو عليه ، وان ذلك سيكلفهم دعك الأجسام وجرحها بل وربما سيكلفكم الوسيلة الوحيدة لانقاذكم من الموت ، ولكنه على كل حال هو هذا الجحيم ».

وهنا أشار بوجارد على جيرما بأن يستعين بمقبض بندقيته ، وأخذ هذا يقوم بالتجربة مرة أخرى ، وكان يشتغل وهو أكثر ما يكون احتياطا على بندقيته التي فيها الأمل المنشود ! وضرب على جانب اللبنة ، وكان أن تزعزعت هذه المرة فالتجأ الى غمد السيف وجعل منه أداة لهلهلة الآجر وتم الامل فأذعنت اللبنة الأولى !

وفي ظرف عشرة دقائق نجحوا في توسيع الثقب ، وهنا اقتلعوا اطار الكوة الخشبي ، ولم يبق عليهم إلا أن يرتموا الواحد بعد الآخر ليصبحوا في نجوة من النار والدمار !

ولكن ماذا يكون هذا « الخارج » الذي سيجدون أنفسهم فيه ؟ ان الكوة تنفذ إلى بالوعة تنزل من وادي فاس هذا الى أن بينهم وبين أرضها نحو من عشرة أمتار فالمسافة من البعد بحيث تمنع من النزول بوسيلة عادية ! بيد أنهم كانوا على خبرة تامة « بالمنهاج التقليدي » الذي يسلكه الفارون في المغامرات الروائية إنهم فتلوا حبلا من الثوب الذي كان يغطي السرير .. وتضافرت جهودهم على عقده ولكن ماذا يجعلون في طرف هذا الحبل لينشبوه على جانب الكوة ؟ لقد طافت عيونهم على ما في البيت ..

آه هذه قطعة من حديد هنا ؟ هل انهم سيصبحون في عداد الناجين ؟! .. وحينا جعلوا الحديدة كمخلب بين أجرتين وهكذا أسلمهم الحبل الجديد الى خارج هذه البوتقة ! بيد أنه خلال هذه المدة التي استغرقوها في الاستعدادا لم يفتأ المغاربة عن مضاعفة عنفهم ومتابعة هجومهم . ان عيون كارابانتيوبوجار عميت تماما نتيجة للغبار المنبعث من الجبس الذي يسقط تحت الرصاص ! والبخار المتصاعد من الخشب المحترق من فعل هذه النيران التي شبت حواليهم .

نعم كانا في هذا الوقت الى جانب هذا العنت يسمعون ضربات عنيفة على السقف انهم المعتدون يحاولون ثقب السقف من أعلى السطح كما فعلوا في منازل أخرى وذلك ليصبوا من تلك الثغرات مقادير من البترول يحرقون بها المختفين والملتجئين !

وحتى اللحظة الأخيرة كان هؤلاء المدافعون يستعملون السلاح ولم يغادروا بيتا الى آخر الا في الوقت الذي يجابههم فيه الخطر وجها لوجه وكلما دخلوا بيتا أحكموا غلقه .. ووجد جرما وأودوا متسعا من الوقت ليهيأ وسائل الأفلات ..

وتقدم جيرما أولا فنزل وتبعه أوذو ثم كان الثالث كارابانتي أما بوجارد فلم يهم بالهروب الا عندما سقطت الباب الأخيرة تحت ضربات الفؤوس ولكن هل كان سهلا عليه أن يلوذ بالفرار؟..

— 13 —

... وحاول كاربانتيي رابع الأربعة أن يفلت بدوره من الكوة ، ولكنه لم يصل اليها ، فلقد فقد توازنه وسقط على الأرض ... وهو يرسل نيران مسدسه على المغاربة ! انبسط على بطنه ، وأخذ يرجع القهقري نحو المنفذ ، لقد أدخل رجليه أولا ، وحيث إنه لم يكن في استطاعته أن ينتصب ، فلقد كان مضطرا لأن يعتمد بيسراه على البندقية ، بينما استمرت يمناه تضغط على زناد السلاح !

وأخيرا اجتاز المسلك ... ورغم أنه سقط الى الأرض مرة أخرى فقد استطاع أن ينهض من جديد دون أن يصيبه كبير أذى ، وهكذا وجد نفسه أمام أصدقائه الذين كانوا ينتظرونه ...

انهم جميعا الآن على شفير بالوعة تغلي في درب ضيق يؤدى الى شارع الطالعة ، وبما أنهم كانوا لا يخشون أن تنالهم أعين ، فلقد فروا بأربعتهم الى الداخل .. وأخذوا يشعرون أنهم في مأمن من الفضيحة.

ولقد لاحظوا أن كاربانتيي أصابته جروح في جبهته نتيجة لوثبة قام بها ولكنهم ظلوا ينفذون خطتهم مع ذلك ، صعدوا حيث اختفوا تحت قنطرة هناك وهنا داعبتهم فكرة اقتفاء أثر المياه عساهم يصلون الى خارج المدينة ، ولكنهم لم يعبروا نحوا من مائة متر حتى اصطدموا بعائق : انه شباك من حديد ينزل من فوق ، ويقع على الماء فيسد المسالك ! ولكنهم غطسوا في الماء ونجحوا في اقتحام هذه العرقلة ، ولكن مع الأسف وجدوا أنفسهم أمام باب أخرى من العود ، ولكن القضبان هذه المرة كانت تنزل إلى اعماق الماء ! ! ...

وجدد « جيرما » كثير من المرات محاولاته ، فنجح في اقتلاع احدى الركائز ، ولكن مجهوداته ذهبت سدى في محاولة اقتلاع الثانية ... وهنا قال لأصدقائه :

« ومع ذلك نستطيع أن نخترق هذه الحواجز متى تضافرت جهودنا عليها !» وقصد « جيرما » الجانب الآخر من الحاجز ، وتبعه كارابانتي ، ولكن الجروح كانت أضنته فسقط في الماء وكاد أن يختنق ..فبادر « أودو » وارتمى عليه فأخذ بساقه وأنقذه وأعان « جيرما » على الرجوع الى الوراء .

وهكذا لم تبق أمامهم الا وسيلة واحدة ألا وهي الانتظار ، ولكن في أي مكان ؟ في الماء المتعفن ، المختلط بالأزبال والقاذورات والغثاء من سائر الأشكال والألوان ! إن الماء كان يصل حتى وجوههم !

وحوالي العاشرة ليلا رجعوا وهم على ما ترى حتى وصلوا الى المدخل الذي صدروا منه ، إلى هذا المختبأ ، إنهم يريدون الاستطلاع ، وعندما وصلوا الى المكان لحوا شخصين ، يحمل أحدهما في يده مصباحا وهو يلتفت يمنة ويسرة ينقب عله يعثر على هؤلاء الفارين .. وهنا رجعوا ادراجهم والتصقوا بشفير الوادي ثم اختفوا في المياه !

لقد صعدوا الى مكان أعلى بقليل بعد ذلك .. وقضوا ليلتهم قريبا من رحى صاخبة ، يستمعون المارة الذين يبحثون عنهم جيئة وذهابا !.. نعم قضوا ليلتهم في ذعر قاتل ، وسط أسراب من الفيران الكبيرة تحوم حواليهم ! وجوههم مغطاة بنسيج العناكب الفتاكة .. يلتحف أحدهم بالآخر ،

البرد القارس يميت جوارحهم ، يتملكهم الشعور بالتهديد : تهديد جرف المياه الموبوءة التي تحمل الاحجار وشقف الزجاج .

إنهم عندما فوجئوا في منازلهم لأول مرة كانوا في أثناء الغذاء ولم يكونوا منتعلين إلا بأحذية مغربية لم تصمد أمام تيار الماء ، فذهبت معه

حيث ذهب ! وراحوا وأرجلهم حافية يخطون على الحجر والزجاج الذي يدميهم !

وزيادة في وطأة المصاب اندلعت عاصفة قوية في أثناء الليل صاحبتها أمطار طوفانية ، وهكذا أخذ الوادي يتصاعد شيئا فشيئا ... ووصل وقت أخذوا يترقبون اللحظة الرهيبة التي تغمرهم فيها المياه ! واضطروا أن يبحثوا عن محل آخر في البالوعة تكون أعلى قليلا من التي يوجدون بها الآن . وذلك عساهم ينجحون على الأقل في الاحتفاظ برؤوسهم خارج الماء !

وكما يقول أحد هؤلاء الضباط في تقريره ، فقد كانوا يغيبون من وقت لآخر ليستيقظوا من نوبتهم ويتفقد أحدهم الآخر..

وظلوا طيلة اليوم الموالي هكذا .. تتطارح أمامهم أسوأ الاحتمالات . ولكن دون أن يستطيعوا أي حراك !

لقد كانوا يستمعون من وقت لآخر بعض الطلقات النارية المتوالية . ولكنهم كانوا يعتقدون أنها فقط طلقات من « الأهالي » يقصدون منها اعلان فرحتهم بالانتصار الذي أحرزوا عليه ذلك اليوم !

حقيقة يجب أن تقرأ التقرير الرسمي الذي حرره اليوتنان بوجارد أكبر الأربعة ، فلقد كتب في بساطة هذه الجملة : « ولقد مر اليوم دون حادث ، وكذلك كان الشأن في الليلة بعده ».

هكذا قال في تقريره ، ونحن نعلم أن الأربعة ظلوا هناك منذ ست وثلاثين ساعة دون غذاء . وداخل ماء قارس يصل منهم الأعناق ؛ وفي مكان على نحو ما سمعتم ، وفي حال من الرعب بحيث إنهم كانوا ينتظرون مباغتة الأعداء ليقتلوهم ويقطعوهم ...

نعم أحد هؤلاء هو الذي يكتب قائلا : « مر اليوم دون حادث . وكذلك كان الشأن في الليلة بعده ».

لم يكن على «كاربانتيي» سوى سروال وقميص ! واستفحل أمر جرحته التي يشتكي منها .. ان البرد قهره ، وفي كثير من المرات كان أصدقاؤه يؤوونه بين ضلوعهم حتى يأخذ قليلا من الدفء !

وهكذا أيضا مرت ليلة اليوم التاسع عشر «دون حادث» وانبثق فجر اليوم التاسع عشر من أبريل فأخذوا يقنعون أكثر من أي وقت مضى بأنه من المستطاع بالنسبة اليهم ان يزيدوا يوما واحدا على هذا الحال

إنهم قرروا أن يرجعوا ليخرجوا من نفس المنفذ الذي أدخلهم ، وسيتخذون كل وسائل الاحتياط !

انهم أشبه بأموات منهم بأحياء وإنهم الى العراة أقرب منهم الى المكتسين !

تقدم كاربانتيي في مهارة .. آه ! إنهم الآن في الدرب الذي يؤدى الى الطالعة . ولكنه صحراء ، فلا مارة ، ولا حركة ! تقدموا قليلا ، وإذا بهم أمام باب موصدة .

وعلى حين غفلة لمحوا مغربيا شاكي السلاح وهو مقبل ليفتح الباب . فالتصقوا بالجدار ، وبمجرد ما شاهدوا الباب فتح استجمعوا قواهم وارتموا على هذا المغربي فخنقوه حتى استولوا على سلاحه !

يالها من مفاجأة ! ان المغربي كان يضمر لهم خيرا ! إنه صديق لهم ودودا مبعوثا من لدن القائد الدمناتي لينقذهم ، فهو صديق لفرنسا يرجوهم أن يتبعوه ! فارتدى بوجارد وجيرما البرانس التي حملها هذا المغربي ، أما الاثنان الآخران فقد رأيا أن من الحزم سوء الظن ! ورفضا الالتحاق بالمغربي الا على شرط أن يستدل لهما بورقة ممضاة من الجنرال بريلا .

وبعد نصف ساعة وصل مغربي آخر يحمل «الورقة المطلوبة»

وهكذا أخذ الإثنان طريقهما والتحقا بالزميلين حيث ضمهم بعد ذلك بيت واحد ، وجدوا فيه الدفء والحياة ، وكؤوس الشاي المنعشة .

كانت الساعة تشير الى العاشرة صباحا .. غلبهم النوم ، فارتموا على الفراش حتى الخامسة مساء حيث استيقظوا على صدى أصوات المدافع التي كانت تنطلق لتسكت الثائرين .

لقد وضع حد لمغامرتهم المروعة ، وأمسوا نهارهم هذا بين جدران المستشفَى العسكري بظهر المهراس .

— 14 —

... أما حصار المنزل الذي كان يقيم فيه الأشخاص المكلفون بالتلغراف فقد كانا أيضا من أعنف ما عرف حيث إن ثلاثة من الفرنسيين — من بين أربعة — سقطوا صرعى يتلو أحدهم الآخر..

بلغهم الخبر هم الآخرون حوالي الواحدة من زوال اليوم 17 أبريل وبمجرد ما علموا بشبوب نار الفتنة ، أوصدوا الأبواب عليهم بيد انه لم يكن لديهم متسع من الوقت للأخذ بالاحتياط حيث ان جماعة مهمة من المغاربة هاجمتهم في الحين ، فلم يروا بدا من أن يعتصموا بغرفة كانت توجد في الطبقة الأولى .. حقيقة لم يكن لديهم من العدة ما يكفي لحماية أنفسهم سوى بندقية مع نحو من ثلاثين رصاصة الى جانب مسدس ونحو عشرين خرطوشة ..هذا فقط ما كان يملك هؤلاء ليعززوا به جانبهم .

وهكذا فلقد كان عليهم أن يأخذوا بجانب الاقتصاد في استهلاك العدة ما أمكن ، فلا يطلقون نيرانهم الا متى كانت في ازهاق روح المعتدي !

ولم تمر لحظات حتى وجدوا أنفسهم بين نارين : لقد نجح المشاغبون في اقتحام باب المنزل وحيث إن « الأربعة » كانوا يتملكون ناصية هذا الباب فإن المغاربة عمدوا الى الجدار نفسه : جدار المنزل ففتحوا فيه كوة من الشارع وذلك ليتمكنوا من التسرب للدار التي تؤوى هؤلاء البؤساء !

إن الفرنسيين الأربعة : دوكانيس ، مياكا ، ريكار ، روبو ، ظلوا كلهم يصرعون كل من سولت له نفسه أن يتقدم نحوهم من المعتدين ، بيد أن عدتهم الحربية أخذت تتضاءل شيئا فشيئا منذ الساعة الثالثة بعد الظهر

وهنا قرروا أن يختاروا الالتجاء الى ركن من الغرفة التي كانوا يستغلونها .. وتترسوا بكل ما كان تحت أيديهم مما يصلح حاجزا بينهم وبين الخطر الذي يهددهم .

وفي مرتين اثنتين حاولت فرقتان من المتطوعة تحت قيادة المسيو بيرناي مدير مصلحة التلغرافات ، أقول حاول هؤلاء أن ينقذوا الأربعة ولكنهم في المرتين معا كانوا يضطرون لأن يرجعوا على أعقابهم أمام العنف الذي كان يتمثل في جهنم التي كانت تصدر عن المشاغبين ! وأخيرا وجد الأربعة أنفسهم وجها لوجه مع الخطر ، فكانت المحاولة الجديدة .. لقد استجمعوا أنفاسهم ، وخرجوا من الحصن الذي ضربوه عليهم ، وأخذوا يصلون بنيرانهم أعقاب المعتدين الذين كانوا بصدد تحطيم كل ما يفصل بينهم وبين الفرنسيين

ولكن المغاربة ظلوا يقاومون لا يرعبهم شيء ، وأصيب روبو هو الأول برصاصة في كاهله فهوى إلى الأرض ليأخذوا بنوع جديد من المقاومة ، إن المبدأ كان هو أن يقتصدوا ما أمكن .. ولذلك فهم « يبولون بمقدار ! » يطلقون رصاصة ازاء عشرين أو ثلاثين من رصاص الخصوم !

واستعصت الباب الأخيرة على الثوار فصعدوا الى الطبقة العليا وفتحوا كوة في سقف البيت الذي ظل آخر معقل في هذا المكان ، ومن هذه الكوة أخذوا يرسلون الفتائل والأعواد الملتهبة

وفي هذه الأثناء أصيب دوكانيس برصاصة في صميم الصدر ثم بأخرى في رأسه ، وكتب لمسيو روبو أن يشفع الرصاصة الأولى باخرى ثانية في فخذه بينما نفذت أخرى الى ريكار في أسفل بطنه ، ولم يبق من الأربعة سالما الا مياكا ... فأخذ بالندقية والمسدس ليفرغهما مما بقي فيهما بيد أن الخصوم صوبوا اليه رصاصة أحكمت منه الرأس فسقط على الأرض لا يبدي حراكا !

وهكذا أفعم ضباب من الدخان أرجاء البيت ، وكل خشبة فيه استسلمت لفحيح ألسن النيران !

لم يبق على قيد الحياة الا ريكار ، وروبو اللذان اعتصما بركن من أركان الحجرة كما قلنا لكم يأملان أن يستنشقا نسيم الحياة ..وحينا توصل أحدهما وهو ريكار برصاصة جديدة في صدره لقي بها حتفه .

وفهم روبو ان دوره لا محالة قد حان ، ففكر في أن ينتحر حتى لا يقع حيا في أيدي المغاربة ، لكن بم ينتحر؟ لقد حاول أن ينتحر باستخدام بندقيته بيد أنه — وقد أعماه الدخان الكثيف — أساء الاستعمال فكسر المحرك وهنا ارتمى على مسدسه فوجد أنه ما يزال يحمل رصاصة واحدة ..

وهنا وجه السلاح نحو بطنه وضغط على زناد المسدس قائلا : « لقد فلتت اذن من يد الأعداء » !

بيد أن الرصاصة لم تنفذ ! وعاوده الحلم فكرر المحاولة ، ولكن النتيجة كانت نفس الأولى فلابد اذن أن يستسلم للاعداء ! ! لكن كيف العمل ؟ لقد فتح مسدسه ليرى ماذا كان يعوق سيره ، بيد أنه — وقد أمضه ألم الجروح ، وأفقدته سحب الدخان رشده ، تلك السحب التي كانت تكثف دقيقة بعد أخرى ، أقول منعه كل ذلك من أن يستمر في اختبار مسدسه ..

لقد طرح المسدس جانبا وقرر أن يتم انتحاره عن طريق الاختناق وهكذا عمد الى ثقب صغير كان يوجد في البيت ظل هو المنفذ الذي يتنسم منه الحياة ، وارتمى الى الأمام ليبتلع أكبر كمية ممكنة من الدخان المتصاعد .

ولكن الألم الذي كان يعانيه كان من الشدة بحيث لم يتمالك أن يرجع

الى الثقب الذي كان أغلقه منذ قليل ليحشر فيه أنفه فيتنسم طويلا هواء نقيا ..

وفي مرتين اثنتين حاول أن يرتمي وسط الدخان ، ولكنه في المرتين معا كان الألم أقوى وأعنف من إرادته ! وهكذا سقط على الأرض منهوكا لقد نزف دمه ، وغاب عنه وعيه ..

وعاد اليه رشده بعد حين ، وخمدت النيران التي كانت تحيط به فلاح له أن مغربيا يوجد معه في المكان قريبا منه ، يرقب حركاته ، فلم يقدر أن يقوم بأية حركة بل على العكس من ذلك كان ينتظر اللحظة التي سيتم فيها بسط اليد إليه !

وفتح أجفانه في هدوء ، وفي هدوء تام فرأى ، ماذا رأى ؟ رأى أن البيت فارغ ، فهل هو فارغ حقيقة ؟ ان الرجل أصيب بمس من الجنون والوهم ! حاول أن يقوم على ركبتيه فتداعى جسمه من جديد !

وحتى التاسعة مساء ، ولغاية الوقت الذي وردت فيه كوكبة من الرماة لانقاذه كانت تتهاده الأركان والزوايا ! حاول في وقت من الأوقات أن يخرج ولكنه كان يرجع حينا وفي سرعة ، لماذا ؟ لأن هذه الكوكبة من الجنود كانت تراه فكانت تظنه مغربيا في عداد النهابين فكانت تطلق رصاصها عليه ...

أما أوتيل فرنسا (درب طريانة بالطالعة) الذي كان مأوى لعدد كبير من الفرنسيين فكان من حديثه ما تسمع : لقد نجح البعض في الفرار بنفسه عن طريق السطوح والتجأ الى بعض الشرفاء ! بينما كتب على آخرين أن يتعرضوا لأشد الأهوال ، وأسوأ الأحوال.

— 15 —

تناولت قلمي لأربط الحلقات التي تطوعت بتقديمها للقراء ، بينما استرسل صديقي في تصفح بعض المجلات القديمة .. وصدفة زارني أحد المواطنين ورأى هذا الفصل الذي ستقرأونه عن اليهود ممن أولعوا بكثرة الحديث اليوم ، ثم وضع الكتاب مكانه ووجه الي السؤال التالي :

— هل تقوم بالتعليق على الكتاب ؟

— لا

— ولو أنك قررت أن تفعل فكيف يكون تعليقك على هذا الموضوع ؟

— أي موضوع تعني ؟

— « اليهود الذين يكونون أول ضحية لكل حركة شعبية »

فذكرت أن فترات الاضطراب يصعب أن يحدد الأنسان فيها أية مسؤولية ولذلك فمن العسير — بناء على ذلك — أن يعلق المرء تعليقا صحيحا ..

ولكن الجليس « الآخر » استسمحني ، وأخذ بأذيال الحديث قائلا :

من رأيي أنا أن المواطنين اليهود ظلوا دائما مركز رعاية منذ القرون الأولى للاسلام ، والمغرب كدولة مسلمة ما انفكت تواليهم من تلك الرعاية الشيء الكثير والحركات الشعبية عندما تغضب على الملاح أحيانا انما يدفعها لذلك أمر واحد ذلك أنها تلاحظ أن بعض المواطنين اليهود لا

يتحمسون لمغربيتهم ، وأن برود الغيرة فيهم من هذه الناحية يستفز المواطنين الآخرين ويستدعي نقمتهم . فمن رأيي — يقول الثالث — أنه كان على المواطنين اليهود أن يظهروا في الميدان كما يظهر الآخرون ، ولكنهم حينما لا يفعلون ، وحينما يوالي البعض منهم الأجانب المحتلين ويعطف عليهم ، ويرفه عنهم بشتى وسائل الترفيه .. حينما تضبط عليهم مثل هذه الاعمال تشك « الطائفة الشعبية » في نيتهم ، وسرعان ما يستحيل هذا الشك إلى غارات .. بالضبط كما لو وقع الشك في سلوك أحد المغاربة المسلمين .. وأنا — يقول الثالث — أعرف صورا تاريخية قديمة لطائفة من اليهود تتبع من فوق السطوح بفاس معركة تدور بين الفرنسيين وأرباب البلاد .. !

وهنا شكر الزائر اليهودي للمتحدث صراحته ، ولكنه راح يلقي عليه سؤالا آخر :

وما رأيك اليوم في الكيفية التي ينبغي أن يعبر بها اليهود عن مغربيتهم مثلا ؟

وما كان المسؤول أبكم في هذه المرة أيضا فذكر لصديقه بأن ذلك يكون بأن يقبلوا بكثرة على المشاريع المغربية الصميمة من غير « تحفظ » ومن غير « حياد » ومن غير « تشكك » فيتجندون .. ويتطوعون ويحتفلون بالذكريات المجيدة بنفس الحرية التي يحتفل بها المواطنون الآخرون ويهتزون فرحا يوم أن أنهزمت جيوش الظلم والطغيان بقنال السويس مثلا ...

وما ان انتهى المتحدثان من حديثهما حتى كنت قد أشرفت على آخر الفصل بالتعريب فدونكموه ، وليعلق كل واحد منكم بما يشاء :

الغارة على الملاح..

..وبينما كان عدد من الثوار ينهمك في تقتيله واجرامه ، اتجهت جماعة أخرى نحو ألملاح .. ولقد عبرنا طرق الملاح بعد الغارة عليه ببضعة أيام فهالنا حالها لقد ذكرتنا بالدار البيضاء على أثر قنبلتها .. وطيلة عدة ساعات

جبنا فيها جهات من الملاح كنا نشعر بحق أننا في صحراء رهيبة ، نهب وتخريب عام هنا وهناك ، وحتى تلك الأشياء التي كان يعسر على الثوار حملها كانوا يوقدون فيها النار ! ولم يبق أحد من سكان هذا الملاح لم تعل وجهه كئابة ، ولم يتملكه حزن انها ثلاثة أيام كاملة ظل العسكر فيها والمدنيون كذلك يعيثون فسادا في هذا الركن من المدينة.

خمسون جثة من اليهود تشحط على الأرض .. واجهات البنايات تتحطم فتكشف لك عما بداخل المنازل !.. سحب كثيفة من الدخان المتصاعدة هنا وهناك خانقة وحامية ..

ان أعظم رجة أرضية لا يكون في متناولها أن تخلف مثلما خلفت هذه الأيام .. حوالي الساعة الثانية عشرة ونصف شعر اليهود بالخطر لأول مرة ، وحينا عمدوا الى الأبواب فاوصدوها ولم يبق أمامهم من أمل الا أن تصمد هذه الابواب أمام غارات الثوار ..

وعلى أثر ما وصل للسلطة العسكرية من أخبار حول تهريب الأسلحة ، أمرت هذه باسترجاع الأسلحة التي كانت توجد تحت يد اليهود ، وامتثل هؤلاء أمر السلطة وسيلة للدفاع ، ودون أي مدد يحميهم من شرور المعتدين وحقا انه في كل الظروف ، وفي سائر مدن المغرب كانت حارات اليهود دائما تتعرض لعدوان المسلمين المتعصبين

ولم تحن الساعة الثانية بعد الزوال حتى انهارت الأبواب : أبواب الملاح نتيجة للطلقات النارية ولضربات الفؤوس ، وهكذا اقتحم الثوار الأبواب ورضي اليهود أن يتنازلوا عن أموالهم مقابلة الابقاء على حياتهم ولكن الثوار أنذورهم بأن اليوم للأموال ، وغدا للأرواح !

ومن حسن الحظ أن ظلت باب حديثة العهد مفتوحة تربط الصلة مباشرة بين الملاح وبين دار الدبيبغ (المركز العسكري الفرنسي) ، ومن هذا المنفذ تسرب تقريبا سائر اليهود عندما كان الثوار يقومون بأعمال النهب

وبمجرد ما أحيط السلطان علما بالوضع الذي توجد عليه الحال فتح احدى أبواب قصره من اللاتي توجد على مقربة من الملاح ، وجعل من قصره ملجأ لسائر هؤلاء الفارين بأنفسهم ..

ولم يقتصر السلطان على هذا بل نظم لهذه الاثنى عشر ألفا ما يغذيهم إذ أنهم لم يتناولوا طعاما منذ الأمس حيث أنهم فوجئوا كما فوجئ غيرهم وهم يستعدون للغذاء

وهكذا جعل مولاي حفيظ حينا رهن اشارتهم سائر ما كان تحت يده ، وأصدر الأمر بفتح الأكياس من الزاد التي كان أعدها للسفر الذي يعتزم القيام به.

ولقد استطاع اليهود أن يخففوا بعضا من آلام الجوع التي كانوا يتجرعونها بيد أن عددا ضخما كهذا يجعل مسألة التموين مستعصية الى درجة كبيرة .. لقد طفنا داخل بنايات القصر ورأينا أكوام اليهود ينام بعضها على بعض في الساحات والأورقة ، والبيوت ، والاسطبلات ووراء الأبواب ، وفي كل فراغ ملكوا حرية في المقام به ..

بيد أن المشهد الذي لم يسمع بمثله والذي كان بحق غريبا في بابه هو مشهد المئات من النساء والشواب والأطفال وقد حشروا في بعض الأقفاص الكبيرة الفارغة التي توجد بحديقة الحيوانات الخاصة بالسلطان ! نعم وكان في استطاعتك أن ترى وراء القضبان الحديدية لأقفاص أخرى حيوانات تترامى على القضبان الأخرى بينما جلس في الجهة المجاورة للقفص أمهات يرضعن اولادهن ..!

ولقد كان على هؤلاء الضعيفات أن يلتجئن هنا تحصنا من أفاعيل الجو القارس ، والمطر المسترسل.

على أن هناك خياما نصبت في جهات أخرى من القصر حيث تصدى

بعض المقيمين فيها من اليهود للقيام بأعمال الطبخ بينما عيون المحرومين والجائعين تكاد تندلع من حدقاتها تتبعا لحركات الطباخين.. وماذا يطبخون؟ الفول اليابس!

ظلوا قريبا من نصف الشهر على هذه الحال المؤسفة ثم رجعوا بعد ذلك إلى أمكنتهم شيئا فشيئا حيث الفقر والخراب.. ولم يمكنهم أن يستقروا من جديد في الملاح إلاّ بعد تنظيم الاكتتابات التي فتحت في فرنسا حيث حصل فيها على هبات سخية كريمة.

وهنا ينتهي القسم الأول في الكتاب فإلى الفصول الأخرى باذن الله.

— 16 —

روايات عسكرية

يوم 17 أبريل

الحالة العسكرية الأولى

لقد كانت الحالة العسكرية بفاس يوم سابع عشر أفريل كما ياتي :

الحاميــة الدائمــة :

تتركب الحامية الدائمة من ثلاث فرق :

1 — فرقة عسكرية هي الفرقة السادسة من الفيلق الرابع للرماة وعلى رأسها الكومندار فيلير.

2 — نصف الفرقة المدفعية وعلى رأسها اليوتنان فيري .

3 — وأخيرا قسم من مهندسي الميادين العسكرية وعلى رأسه اليوتنان بلاندان

حرس السفارة الفرنسية

أما حرس السفارة فكانت تتألف من خمس فرق :

1 — فرقة مختلطة تحت إشارة الكمندان فيليبو تتركب من فوجين من الفرقة الرابعة للرماة وفرقة من الجنود السينغاليين وفرقة من الفيلق الرابع المختص بالمستعمرات.

2 — فرقة من رجال البنادق تحت اشارة اليوتنان بشير.

3 — نصف فرقة مدفعية من نوع خمسة وسبعين تحت امرة اليوتنان لوكارد

4 — نصف كوكبة من الفرقة السادسة ذات الاسلحة الخفيفة تحت اشارة القابطان كيرفانويل

5 — كتيبة من الصبايحية تحت القابطان دوفانلاي.

ومن حسن الحظ أن جميع هذه القوات التي كانت تتأهب لتصحب السفير والسلطان كانت تعسكر في دار الدبيبغ أعني على بعد أربع كيلومترات تقريبا من المدينة ولقد كانت تحت قيادة الكولونيل توبان

أما العدد الحقيقي للجنود التابعين للمخزن فقد كان يتمثل في ثلاثة آلاف ومائتي رجل تتوزع هكذا : فبعضها في برج (النور) وفريق في قصبة تامدّرت بباب الفتوح وبعض في فندق سيدي بونافع وطائفة في فندق الديوان وباقي الوحدات العسكرية المخزنية كانت توجد في قصبة الشراردة وهذه الوحدات فيها الخيالة ورجال المدفعية ورجال البناء والهندسة الحربية .

الحوادث الأولى

الترتيبات المتخذة من لدن الجنرال بريلار.

لقد توصل الجنرال بريلار الذي كان يوجد بفاس في مكاتب المراكز العسكرية للقوات المخزنية يوم سابع عشر أبريل حوالي الثانية عشرة زوالا أقول توصل بالمذكرة التالية من قبل اليوتنان المدرب فيتزاجير :

« أتشرف بأن أحيطكم علما بأن جنود الفرقة رفضوا أن يتسلموا جراياتهم في هذا الصباح ولقد كان من المتعسر بالنسبة الى أن أقنعهم إلى حد الساعة وهم يزعمون أن هذه التدبيرات التي اتخذناها في حقهم لا تتفق والروح التي على أساسها وعدناهم يوم أن انتظموا في سلك الجندية

ولهذا فإنه يهمني أن اعرف هل إنه من الواجب أن أتمسك بهذه الجرايات الى أن تضطر الفرقة لقبول السعر الجديد أم إن هناك مجالا لاستئناف العمل بالنظام الذي كان قبل هذا الوقت

وعلى حين بغتة شعر الترجمان العسكري روني بأن حركة عنيفة شبت بين رجال احدى الفرق كالحال في كوكبة الفرسان الرابعة وهنا قرر الجنرال بريلار أن يبعث حالا الكمندار بريمون وصحبه الترجمان روني إلى حامية الشراردة فإن هذين الضابطين اللذين كانا منذ زمن طويل يعملان في الجيش المخزني كان سبق لهما أن رافقا أولئك الجنود في مناسبات كانت في بعض الأحيان شاقة وعنيفة ولهذا فلقد كانا معروفين من لدن هؤلاء الجنود تمام المعرفة.

ولقد كان الجنرال بريلار يؤمل نظرا لكل هذه الاعتبارات انه سيكون لهذين المبعوثين نفوذ شخصي على أصدقائهما المغاربة الأقدمين..فتدخلهما المباشر سيحقق — دون شك — نتائج محمودة في هذا الصدد

بيد أن الحوادث توالت بسرعة فلقد اتصل الجنرال بريلار في اللحظة بالذات بالمذكرة التالية من قبل اليوتنان المكلف بالفرسان المسيو روناهي

« الثانية عشر وربع »

لقد خرج خمسون جنديا مدججين بالسلاح من معسكرهم خرجوا وهم يطلقون نيران بنادقهم على المكاتب ولقد أرغموا رجال الحراسة الذين كنت نصبتهم على باب الساكمة وتمكنوا من الدخول للمدينة الاهلية شاهرين أسلحتهم أما أنا فلقد تمكنت من الافلات من يدهم ولقد رأيت من المصلحة أن أحيطكم علما بذلك وأعتقد أن من اللازم أن تتخذ تدابير عاجلة لمعالجة الموقف ».

أما الجنرال بريلار الذي كان يرافق الكمندان بريمون والترجمان روني إلى باب المنزل وهو يوضح لهم مأموريتهم أقول ان هذا الجنرال صادف

الكمندان دولاموط رئيس مصلحة الاستعلامات صحبة الباشا الحاج حما
المقري الذي كان يرافقه خليفته السيد الزراوطي .. دعا الجنرال المذكو
الباشا المقري وخليفته الزراوطي لاستعمال سائر ما لهما من نفوذ شخص
لكبح جماح المتمردين وجعل حد لحركة العصيان بأخذ جانب الاحتياء
حتى لا يلتحق الباقي . ورغبة في عدم تمكين الثوار من الانتشار في سا
الجهات وحصر ثورتهم ما أمكن في ناحية مصغرة فقد أصدر الجنرا
بريلار أوامره الى الباشا وخليفته بأن يعملا على اغلاق سائر أبواب
الحارات لمختلف الشوارع التي تقود الى باب الساكمة.

وسنرى بعد هذا كيف أن الحاج حماد المقري رفض أن يمتثل للأوا
التي املاها عليه الجنرال بريلار رغم أنها جددت وأعيدت عليه ..

وودع الضباط وكذا الباشا المذكور الجنرال بريلار .. وما كان من ها
إلا أن أرسل على الفور — نظرا لخطورة الحالة — إلى الكولونيل توبا
بدار الدبيبغ المذكرة التليفونية الآتية : حوالي الثانية عشرة وخمسين دقيقة

« لقد تمردت جماعة من جنود المخزن بقصبة الشراردة وغادروا المعسك
قاصدين المدينة وهم يرسلون نيران بندقياتهم هنا وهناك وإن التدابير الأو
قد اتخذت لجعل حد لهذا العصيان مع السلطات المغربية فينبغي أن ترسل
على جناح السرعة — تحت اشارة الكمندان فيليبو — فرقة من رجال المداف
والخيالة لتكون في المتناول وذلك قصد التدخل لفائدة تلافي كل اصطد
يمكن أن ينشب ...»

وعلاوة على هذا فقد قام الجنرال بريلار في الوقت ذاته بابلاغ الحا
الى السفارة الفرنسية والمستشار العسكري .

وفي الواحدة والربع بعد الزوال رجع كل من الكمندان بريمو والترجما
روني ذاكرين أنهما وجدا الشارع محاصرا ولذلك فلم يستطيعا أن يقد
خطوة واحدة لقد سمعا صيحات من سائر الجهات وصدى لكثير م
الطلقات النارية في اتجاه حومة الطالعة !

— 17 —

وإزاء هده الحالة المريعة قرر الجنرال بريلار أن ينتقل الى المستشفى الذي يتصل تلفونيا بدار الدبيبغ ، والذي يوجد على مقربه من المكان الذي يتزود بالتلغراف اللاسلكي ، وهكذا فإن هذا المكان سيضمن له الاتصال الدائم مع الخارج ، وهو الى هذا سيعمل على تقريب الشقة بين افراد الجيش في انتظار أن تصل النجدات من الخارج ... وهذا الموقع الى جانب هذا يتصل بمنطقة القنصليات وخاصة قنصلية فرنسا وسفارتها وهكذا نستطيع أن نرى مدى ما اتخذه الجنرال بريلار من احتياطات منذ البداية .

وأصبح المستشفى العسكري « أوفير» حينا مركزا للدفاع لقد أمسى الجنود الموسيقيون . وكذا الممرضون بل وحتى المرضى يتماثلون للشفاء الكل يحمل سلاحه ، والكل يلوذ بمركزه الخاص الذي أعد له .. وبواسطة هؤلاء الأشخاص جميعهم ، وكان عددهم يتراوح بين المائة شخص تحت امرة الدكتور فورنيال ، أقول بواسطة هؤلاء ضمن الأمن عدة ساعات بالمستشفى الذي كان يقع في الحي الأوروبي .

ومما تجدر الإشارة اليه منذ اللحظة . أن الرماة الذين كانوا يعملون تحت امرة الكمندان فيليبو لم يمكهم أن يقتحموا مدينة فاس الا بفضل الترتيبات المهمة المتخذة من قبل من لدن الماجور فورنيال.

نعم لقد أصبح المستشفى المذكور مركزا صريحا للمقاومة وأصبح نقطة عسكرية طيلة أيام فاس الدامية . وهكذا كان في استطاعتك أن تجد في هذا المستشفى ما تشاء من أنواع الأسلحة والعتاد الحربي وذلك لتموين

المساعدين والمتطوعين الذين يعملون في حقل الدفاع قبيل وصول فيالق فيليبو ، وحقا فإن خلق هذا المركز العسكري الجديد وتنظيمه كان عملا شخصيا للمأجور فورنيال يستحق عليه كل ثناء وتقدير.

وفي الوقت بالذات الذي كانت فيه الاستعدادات جارية للاتخاذ من هذا المستشفى معسكرا يحمى ظهورنا كانت الأنباء تترامى من كل جهة ، وجميعها يؤكد عن خطورة الحالة ، وعن مدى وخامة النتائج التي تنذر بها الطلائع الأولى للأحداث.

وحوالي الساعة الثانية وربع بعث الجنرال بريلار للكمندان فليبو يطلب اليه أن يلتحق بمستشفى أوفير عن طريق باب الحديد.. وفي هذه الأثناء بلغ الى علم الجنرال بواسطة الاستعلامات أن التمرد انتشر بسائر أطراف حومة الطالعة حيث كانت تقيم الجالية الأوربية وأن جانبا مهما من السكان قد التحق بجموع الثائرين ، هذا إلى أن هناك عدة ضحايا من بين الأوربيين سواء منهم المدنيون أو العسكريون.

وفي الساعة الثانية وخمسين دقيقة ، بعث من جديد للكولونيل توبان بالبرقية التالية :

«إن حركة التمرد التي اعلن عنها قد اكتسحت جانبا من المدينة (حومة الطالعة) فالتتخذوا استعداداتكم ، وحيث انني أجهل الحالة الحاضرة بفاس الجديدة ، فإنه لا يسعني الا أن أصدر الأوامر اليكم لتتحركوا بكامل الشدة والعنف وذلك من أجل تحطيم هذه الحركة قبل أن يستفحل أمرها وتنتشر بالخارج . خذوا بجانب الاحتياط ما أمكنكم ذلك حتى لا تتعدوا حومة بوجلود فإن الثورة تقوم بها فعليها وحدها سلطوا جهود المدفعية ! »

وحوالي الساعة الثالثة ونصف أحاط الكولونيل توبان المسؤولين علما بأنه أرسل الى نجد ظهر المهراس الذي يشرف على المدينة من جهة الجنوب

فرقتين من الجنود المشاة ، وكتيبتين من الخيالة وكوكبة من المدفعية تحت إشارة أوامر الكمندان فلير.

وهكذا لم يبق بدار الدبيبغ الا فرقتان ، وجانب من المدفعية وطائفة من جنود الرشاشات وذلك لحفظ المعسكر وحراسة المستودعات الحربية وبالتالي لتلافي كل ما عساه أن يحدث

وفي الساعة الثالثة بعث الجنرال بريلار الى الجنرال مونيي الذي كان يوجد بتيفلت في طريقه الى الدار البيضاء أقول بعث اليه بالبرقية التالية :

« ان حركات للتمرد المسلح شبت في المعسكرات التابعة للمخزن وان طائفة من الجنود نزلوا الى المدينة فوجدوا من سكانها كل تشجيع وتحريض وإن التدابير الأولى التي اتخذناها كانت بمساعدة حامية دار الدبيبغ . لهذا فإني أطلب اليك أن تعمل على أن يكون في متناولنا الحصول على فرقة مجهزة مستعدة بمكناس يكون في مستطاعها أن تتحرك بسرعة متى ازدادت الحالة خطورة ومتى — وأخص هذا بالذكر — حاولت القبائل خارج المدينة أن تنضم إلى حركة العصيان هذه فإنه — كما تؤكد بعض المعلومات الأولى — من المتوقع ذلك » .

وفي هذا المعنَى بعثت برقيتان أخريان للفرق التي كانت تعسكر بصفرو ، وقصبة الحاجب ، وهكذا فلقد انهَى إلى علم المسؤولين ان التمرد يقوم على أشده بفاس ، وان الضرورة تفرض أن تضرب على الجنود رقابة صارمة ، ولكن من غير أن يشعروا .

فيلق فيلبو يتجه نحو فاس

وفي أثناء هذا الوقت كانت جنود فيلبو في طريقها الى فاس ونرى من واجبنا أن نستعرض هنا تفاصيل هذا العمل العظيم

ففي الواحدة والنصف ، كانت أخبار التمرد قد بلغت الكولونيل توبان

عن طريق الجنرال بريلار. وفي هذا الوقت بالذات توصل بالأمر الذي يشير اليه بمغادرة معسكر دار الدبيبغ حالا صحبة فرقتين من الجيش، وكتيبتين من الصبايحة يسيرهما القبطان دوفانلاي، وذلك لينضم هؤلاء إلى الجنود الآخرين الذين كان من المقرر أن يردوا من مكناس بمناسبة حركة السفارة.

ولقد كان على هؤلاء الجنود جميعهم أن يستقروا في الحدائق الجديدة للسلطان حيث كانت في انتظارهم فرقتان من فيلق فيلير. وكان عليهم إلى جانب هذا أن يطلبوا في هذا المكان، متى وصلوا إليه، تعليمات جديدة حول تدخلهم المحتمل في فاجعة فاس التي تتقد بالفتن والاحداث..

وتم السير دون أن تنتظر الفرقتان رجوع الجنود الآخرين الذين كانوا متغيبين

وعند الوصول الى الحدائق القديمة للسلطان خارج أسوار أكدال فاس وجد الكمندان فيليبو هناك الفرقتين الواحدة والعشرين، والثانية والعشرين

إن الجيش إذن تام العدة والعدد...

18 — 19 — 20[1]

ويستمر هيبير حاك في وصفه للتّحرك العسكري الضّخم نحو قلب المدينة ، إنها فرق حربية عديدة توزَّع على مختلف الجهات لمواجهة كل احتمال وكل محاولة من طرف الثوار...

لقد اعطيت الأوامر للحركة حوالي الساعة الثانية والنصف بعد الظهر... حيث اسفرت الاصطدامات الأولى عن بعض القتلى وعدد من الجرحى في صفوف الجيش الفرنسي ، كان من بينهم القابطان فلاماند..

لقد ظهر أن بعض القبائل المجاورة لفاس — وقد بلغتها اخبار العراك — أخذت ترحف نحو المدينة لتلتحق بالمجاهدين..ان الأمر غدا خطيرا فكيف يوفقون بين اسكات ثورة المدينة وبين ايقاف هذا الزّحف ؟

وبعد أن يتحدّث عن أصابة (ابن عايشة) أحد العسكريين الأهالي الذي كان على رأس طائفة من الجند الفرنسي ، يشير لمضاعفات رداءة الطقس على سير المعارك وعلى اقتحام المدينة الأهلية ، وفي الساعة الرابعة ونصف تمكّن الثلاثمائة والواحد وسعون جنديا بقيادة فيليبو من الدخول للمدينة لكن المشكل كان يكمن في « استرجاع » فاس التي توجد في قبضة الثّائرين ، وبل كلّ السكّان الذين انضموا الى صفوف الثورة !

إن الأخبار التي وصلت للجنرال بريلار تؤكد أن عددا من الضباط الفرنسيين لقوا حتفهم وخاصّة في حيٍّ أبي الجنود... وإن عددا من المنشآت التي تمت بصلة الى الأجانب قد تعرضت للاتلاف... لقد كان دور السيدات الفاسيات عظيما في الهاب حماس الرجال... من فوق السطوح بزغاريدهن التي تخرق الفضاء... ولقد عرفنا عن المتعة التي يشعر

(1) كانت هده الحلقات قد أعدت للنشر بيد أن ظروف انتقالي من وطيفتي نماس إلى عملي الحديد بالرباط حال دون تبييضها..

بها هؤلاء النساء وهنّ ينزلن أشدّ أنواع الانتقام بمن يقع بين أيديهن من أولئك الفرنسيين البؤساء !

وقد أنحى هيبيرجاك باللائمة على مسيو جوريس الذي أطري دور أولئك النساء في تحميس الجمهور : كن يرددن : « سنقتلكم ايها الرجال إذا ما ولّيتم الأدبار »

لقد أفادت الأخبار أن الثوار أرسلوا بواسطة البريد المستعجل (الرقاصين) الى سائر جهات القبائل المجاوة لتأييد ثورة فاس.

وهكذا أرسل الجنرال بريلار برقية للجنرال موانيي يؤكد له مصرع العديد من الضباط والجنود كما يؤكد له التزكية المستمرة للثورة من خارج المدينة ويطلب اليه أن يبعث عاجلا بالمدد إن هناك عددا من الأروبيين ما يزال تحت التطويق والحصار ... لقد كان مركز الجنرال بريلار في مستشفى (أوفير) بظهر المهراز ..حيث وزّعت الكتائب العسكرية على مختلف جهات المدينة وهكذا كان في صدر من أنقذ هيبيرجاك محرر هذه المذكرات ... !

وفي مقابلة هذه العمليات داخل المدينة كانت تنظم عمليات أخرى خارج الأسوار لقطع الصلات بين الثوار هنا وهناك

وقد شهدت المنطقة من ليلة 17 الى ليلة 18 أبريل عمليات منظمة متوالية ، وكان الجنود الفرنسيون يحتلون المدينة شبراً شبراً أمام مقاومة ضارية ..

وقد كال (هيبير) الشتائم للقائد المغربي ابن الحسن الذي اتهمه بالخيانة لتامره مع الثوار ضد حياة بعض الفرنسيين كما فعل ذلك بالنسبة للحاج بريك قائد فاس الجديدة الذي كان يحرض بدوره على الثورة ... لقد كان هؤلاء — في نظره — مثلا من أمثلة غدر المسلمين (كذا) وبخاصة الفاسيين... إن الباشا والمقدّمين أعلنوا رأيهم انهم لن يستطيعوا القيام بعمل مّا ضدّ الثوار !

وقد شهد يوم 18 أبريل حوادث عسكرية بالمدينة وهكذا صدرت الأوامر في الساعة الخامسة صباحا للكمندان فيلبيو بتجميع سائر وحداته في منطقة القنصلية الفرنسية.

وفي هذا الوقت كان القابطان هنري هو الآخر يقوم بواجبه على مقربة من باب بوجلود وباب المحروق بينما كان يتعرض لهجوم الثوار...

وقد كانت كتيبة بوردونو كذلك هدفا لهجوم عدد من « الأعداء » على مقربة من باب الكنيسة...

وفي الساعة السادسة وخمسين دقيقة بعث الجنرال بريلار برقية الى الجنرال موانيي يخبره بالحالة الراهنة...

وقد استمر الكاتب يصف تنظيم الهجوم وأحكام الانقضاض على الثوار طيلة هذا اليوم الذي تعدد فيه اصدار الأوامر وكأنما القوم في معركة جربية هائلة ضد دولة قوية كاملة العدد.!

لقد بلغت الجرأة بالمغاربة إلى حدّ أنّهم وصلوا الى السفارة وهاجموها الأمر الذي ضاعف من الاستعداد وتكثيف الجهود حيث خلص عدد من الفرنسيين من الذين وقعوا في قبضة الثوار...

وبعد أن فصّل الكاتب العمليات الحربية خارج المدينة تعرّض بتفصيل لأحداث 19 أبريل... وفي هذه الأثناء توصل الجنرال بريلار ببرقية من صفرو تقول ان آيت يوسي شنوا هجوما عنيفا مساء يوم 17 وصباح يوم 18 على الموقع العسكري بصفرو...

وهكذا كان بالنسبة لآيت شغروشن وأولاد الحاج وبني سادّن... وأخذت المدافع تقصف أطراف المدينة الأمر الذي حدا ببعض كبار العاصمة للتدخل من أجل وقف العمليات، وهنا كانت السلطات الفرنسية تستغلّ هذه التدخلات لتجعل أصحابها محلّ اختبار حيث كانت

تطلب إليهم أن يساعدوا شخصياً على ارجاع الأمن وذلك بالتوجه الى الثوار ودعوتهم الى الاستسلام !

هنا سلسلة من أسماء القادة العسكريين الذين كانوا يعيثون فساداً في المدينة من الذين كانت شوارع فاس الى العهد القريب تحمل اسماءهم تخليدا لذكرهم وكأنما أسدوا إليها معروفا لا ينسى !

وينتقل الكاتب لأحداث يوم 20 أبريل حيث أرغم سكان المدينة جميعا على رفع رايات الاستسلام من فوق السطوح تحت التّهديد : إن كل دار لا ترفع فوقها راية ستقصف بالمدافع . هنا — يقول الكاتب — أخمدت أنفاس المدينة ...فلا طلقة بندقية .. ولا زغاريد كما سمعنا طيلة الأيام الثلاثة الماضية وهكذا عادت فاس الى رشدها . !

وبعد أن يتحدث الكاتب عن حركة التمّرد التي أخذت تستفحل في القبائل المجاورة لفاس : بني وارابن ، الحياينة — أولاد جامع ... يتحدث بتفصيل عن الكتائب التي توجهت لاسكاتها وتطويق تحركاتها.

وفي يوم 21 أبريل وصل الجنرال موني الى مدينة فاس للاشراف بنفسه على العمليات الحربية عوض الجنرال بريلار ...

لقد أمسى مصير فاس بيد جيش جرّار يمتلك سائر الوسائل لتدمير المدينة ودفن سكانها بين الانقاض .

ولقد خصص يوم 23 — 24 لتجريد سائر السكان من السلاح حتّى لا يتمكنوا في يوم من الأيام من رفع الرأس .. ولا يمكن أن تسأل ، ونحن نعيش هذه الظروف — عن مصير المئات ، ولا أقول العشرات ، من الشباب والكهول الذين كانوا يؤمرون بحفر قبورهم بأيديهم قبل أن تتلقّى صدورهم رصاص المستعمرين المحتلّين... ثلاثة عشر ألفا من البنادق سلّمت لحدّ اليوم والفان اثنان من المسدّسات والفان اثنان من السيوف الى

جانب ألفي بندقية عصرية موديل 1874 استرجعت من الثوار المغاربة العسكريين..

وفي يوم السادس من شهر مايه 1912 على الساعة التاسعة جرت في حدائق المستشفى مراسيم الدفن المؤقت «لضحايا» الأيام الثلاثة، أربعة وأربعون تابوتا مجللة بالعلم الفرنسي... الجثث الأخرى حملت الى دار الدّبيبغ في انتظار اجراء مراسيم أخرى.

لقد كان ممّا قاله الجنرال مواني :

إن هذه المناسبة المؤلمة التي تجعلنا اليوم أمام هذه الجثث لتعبّر عن أفظع حدث يسجله التاريخ... هذه المدينة التي تريد أن تظل متأخرة متوحشة!

وبعد أن ذكر بأن هؤلاء القتلى إنما كانوا يسعون لاسعاد البلاد وازدهارها. وبعد أن يعزّى العائلات الفرنسية المنكوبة في أبنائها.. وبعد أن يعطي الضمانات المؤكدة للعائلات الفرنسية المتبقية في المغرب. يعود فينحي باللائمة مرة أخرى على سكان فاس التي قال عنها «واليوم عاد الأمن الى نصابه وأشرقت الشمس من جديد على «**المدينة المجرمة**»، ونعتقد أنه لن تكون هناك بعد الآن «أيام دامية».

وينتقل المؤلف بعد هذا للحديث عن ثورة (عرباوة) التي تحركت هي الأخرى... كما يتحدث بتفصيل عن العمليات العسكرية بضواحي مدينة فاس من تاريخ 23 الى 28 أبريل... ويا ما كان أعنفها وأشدّها وأقواها...!

ويخصص هيبير جاك القسم الثالث من الكتاب للحديث عن الأسباب الحقيقية في نظره لأحداث فاس وعن المسؤليات، حيث نراه يصدّر هذا الفصل بالتنديد بالخطأ العظيم التي ارتكبته الحكومة الفرنسية ومعها البرلمان عندما كان الاثنان يعالجان اسباب تحديد حوادث 17 أبريل...

وهنا يستعرض بتفصيل ما جرى من حوار ونقاش وما تبع هذا من أعمال على الساحة المغربية ، وهو يحمل قسطا من المسؤولية للمسيو رونيول Regnault الذي وقع عقد الحماية عن الجانب الفرنسي ..

ويتحدث الكاتب عن حالة السلطان مولاي حفيظ وعن المواطنين بفاس قبيل وصول البعثة الفرنسية الى العاصمة المغربية ..

لقد كان مولاي حفيظ يعتزم التنازل عن العرش منذ بعض الوقت ، انه كان يقول لمسيو كايار قنصل فرنسا بمدينة فاس : اني لست سلطانا للحماية ولا أريد أن أكون كذلك ! إن ذلك يتناقض مع الماضي الذي عشته ولأهدافي في الحرية والاستقلال ، إنني ثرت بمراكش فقط لأجل أن أدافع عن بلادي ضد كل تدخّل أجنبي ، ولهذا فإنه لا يمكنني بأي حال من الأحوال أن أقبل وضعا لا يرضاه ضميري ولا أن أخلَّ بالأمانة التي وضعت على كاهلي من طرف شعبي ... إن والدي السلطان مولاي الحسن وسائر ملوك المغرب مارسوا جميعهم سلطتهم على البلاد ومارسوا استقلالهم المطلق ، فلست بمستعد أن أتحمل رقابة تقلّص من سيادة بلادي ... لا .. إن هذا غير ممكن انا لست بسلطان للحماية ... لا حاجة للالحاح إن قراري لا رجعة فيه ... لقد كان مولاي حفيظ يريد أن يتنازل لصالح أحد أبنائه وكان لا يتجاوز سنّه الخامسة حتّى يجعل الفرنسيين أمام حالة يكونون فيها مسؤولين أمام الرأي العام الدّولي ، ويمضي المؤلف في الحديث عن ظروف توقيع الحماية التي لم تكن في نظره مبشرة بالخير ولكنها كانت على العكس من ذلك منذرة بكل الأخطار ... ان أحدا من المغاربة كان لا يرضَى بهذا الوضع فماذا كانوا ينتظرون اذن ؟ ... وهنا يصف المؤلف جوّ المناقشات الصعبة التي كانت تجري بين المسؤولين الفرنسيين وبين الجهات العليا في المغرب ...

امّا عن مشاركة مسيو رونيول في توقيع عقد الحماية فقد قال المؤلف : إن مولاي حفيظ اشتكى بجد عند وصول رونيول من موقف السلطات

لعسكرية إزاءه أي من الجنرال موانيي الذي كان قائدا عاما للقوات الفرنسية ..

وبعد أن يشرح أسباب هذا الصّدام التي تتلخص في محاولة موانيي فرض الهيمنة التي كان يمقتها العاهل يضيف قائلا : لقد كان مولاي حفيظ يريد أن يطلع على كلّ شيءٌ يمس المغرب قبل أن تتخذ السلطات العسكرية اي موقف وأي قرار...

ووقعت الاتفاقية على ما يقول المؤلف الفرنسي — فأبرق الصحفيون إلى جريدة (لوماتان) حيث ثارت ثائرة القوم بالرغم من التكتم الذي كان من المفروض أن يسود المفاوضات ونتائج المفاوضات.

وهنا كانت الكارثة « ان الاعلان عن ذهاب السلطان والاعلان كذلك عن انتقال العاصمة سواء الى الرباط أو مراكش كل هذا نال من العاهل المغربي وأثار من جهة أخرى سائر المواطنين.

ويعالج المؤلف عنصرا آخر من العناصر التي أسهمت في اثارة الناس ، وهذا العنصر هو الوضع الذي كان عليه العسكر المغربي من حرمان وخصاص واهانة كذلك ..

وينتقل المؤلف للحديث عن عائلة (المقارة) فيقول إن المقري ظل أثناء كل هذه الحوادث قابعا في مكتبه بالقصر الملكي فلم يقع لنا بصر على معاليه . حديث طويل عن الحاج محمد المقري الوزير الأول ...وكذلك عن ولده السيد الطيب الذي كان أقل اهتماما بما يجرى في ساحة أهل فاس مع أنه كان وزيرا للخارجية والمالية و... و...وكذلك الباشا الحاج حمّاد... والسِّي العربي والحاج عبد السلام كانوا جميعهم يتملّصون من الأحداث وكأنها لا تهمهم ! ويتخلص من هذا الحديث ليذكر كيف كان رونيول يزوّد الحكومة الفرنسية بالمعلومات .. وكيف كانت الممثليات الأجنبية بفاس تلعب أدوارها بالعاصمة .. وكيف كانت علاقات رونيول

بالسلطات العسكرية حيث يسوق نصّ الأمر الذي صدر بتاريخ 23 أبريل 1912 باعلان حالة الأحكام العرفية في مدينة فاس بهدف تمكين المحاكم العسكرية من التعرّف على « المجرمين » المسؤولين عن تعكير الأمن العام وتمكينهم من مداهمة البيوت المشتبهة فيها ليلا ونهارا ومن منع الاجتماعات ونشر كل ما شأنه أن يخل بالأمن العام...

لقد كانت وثائق هامة. تلك التي أوردها هيبير جاك وهي، كما ترمي، تدل على مدَى درجة المقاومة التي قابل بها المغاربة الوجود الأجنبي بديارهم.

وكما قال جاك في مقدمة الكتاب ظهرت أسباب الثورة التي كان أحدها مسيو رونيول... كان الناس في الخارج يعتقدون أنه رجل الحكمة والعبقرية... ولكننا نحن الذين عشنا في المغرب معه نعرف جيّدا انه كان غير كفء لوظيفة دبلوماسية كهذه في بلد اسلامي...

فقد كان يرجع إلى حاشية له ضعيفة عرفت بقلة ملاحظتها وضعف تفكيرها، ولهذا فإن حركاته كانت تتّسم بالهوج والعوج...!

فلقد كان يجهل ما يجري منْ حواليه، ومن كان يجهل موقف المغاربة ازاء الجنرال ليوطي في تدخلاته العسكرية على الحدود الجزائرية المغربية؟ وفي معرض حملته على الخارجية الفرنسية على عهد الجمهورية الثالثة وصفها بأنها تكوّن دولة داخل دولة!

إن المغرب يوجد حقيقة في مرحلة يمكن أن تسمّى مرحلة « فتح » في بعض الجهات وفترة تنظيم اداري في البعض الآخر ومرحلة يمكن ان نسميها مرحلة استعمار في بعض المناطق ولهذا فإن على الذين يشرفون على ادارة المغرب أن يتوفروا على عدد من الخصال والمزايا سواء

1) من وجهة النظر العسكرية
2) من وجهة النظر التنظيمية الادارية
3) من وجهة النظر الاستعمارية كذلك

إنه لمن الرأي أن تنشأ حالا في حظيرة الحكومة الفرنسية وزارة تهتم بافريقيا الشمالية تجتمع فيها الإدارة التونسية والجزائرية والمغربية ، يشرف على تلك الوزارة شخصية حركة ذكية تتمتع بمعرفة واسعة في الشؤون الافريقية .

هذا أول ما ينبغي اتخاذه من قرارات وأن في صدر ما يجب الاهتمام به أيضا اعداد الاصلاحات التي يشترك في تحضيرها سائر الذين يهمّهم مستقبل المغرب ويتمنّون تقدم وازدهار هذه البلاد الرائعة التي ركّعتها أسلحتنا أمام أبطالنا الفاتحين !

حقائق عن الشمال الافريقي[1]

تقديم

— 1 —

وأخيرا ظهر أيضا كتاب « دولاتور » بعد كرانفال ... إنه يحمل عنوان : « حقائق عن افريقيا الشمالية » وهو بصدق يحمل حقائق ، ولكنه ليس بحقائق كله بل انه كثيرا ما يحمل في طياته الترهات والأباطيل ... وإن مطلق قارئ عادي يمكنه أن يدرك من خلال الفصول التي اشتمل عليها الكتاب أن الكاتب رغم ما تقلب فيه من وظائف ورغم طول تجربته لم يكن على جانب من الادراك للحقائق كما هي ، أنه ككثير من الذين تحدثوا عن المغرب يجهلون الكثير عن المغرب والمغاربة... ولعل أبرز فصلَ يثير انتباه القارئ في هذا الكتاب هو ذلك الفصل الذي يتحدث فيه المؤلف عن ظرف حاسم من الظروف التي عاشها المغرب .. وأعني بها تلك الأيام التي أخذت بلادنا تستعد فيها للحياة الحرة الكريمة فكانت بشرى لقوم وانذارا لآخرين ... ان الجنرال يعنْون هذا الفصل هكذا « احتضار المغرب « الفرنسي » 1955 » وهو يرى كما يرى صديق له أن المسمار الذي كان بقي لنعش « الوجود الفرنسي » بالمغرب كان يوم 11 نوفمبر في الساعة السادسة ونصف مساء ... أعني في اللحظة التي غادر فيها الجنرال دولاتور مطار سلا ! ...

(1) جريدة (العلم) المغربية عدد 11 — 12 — 1956 .

دونكم الجنرال يتحدث في السياسة :

عندما ودعت تونس في طريقي الى المغرب لم أكن متفائلا .. لقد كانت الذاكرة ترجع بي — وأنا على متن الطائرة — الى الحوادث التي كان المغرب مسرحا لها منذ بضعة أسابيع فقط، وكنت أحسب الحساب جيدا لما عساني أجد المغرب عليه من ارتباك واضطراب.

لقد كانت الحادثة التي أملت على الحكومة الفرنسية أن تتحرك في قضية المغرب هي حادثة اغتيال المسيو لوميكر ديبروي ، بيد أن هذا التدخل لم يقدر له أن يأتي بما يمكنه أن يبعث على الارتياح ... لقد كان للمقيم لاكوسط — فيما أعلم — برنامجٌ لسلسلة من «الاصلاحات» ولكنه كان ينتظر دائما إذن الحكومة وهكذا ضعفت سلطة الاقامة العامة ، هذا الى عدم القيام بما من شأنه أن يعطي قيمة (للسلطان الجديد) ، أضف الى هذا أن الرؤساء المغاربة أنصار هذا وخصوم ذاك تركوا وشأنهم ، فتسربت الشكوك ، ولم تلبث أن اكتسحت أفكار سائر الناس ، ولم تفسر تدابير العفو المتخذة حيال زعماء حزب الاستقلال الا بتفسير واحد : ذلك هو ضعف فرنسا ! حقا كانت هناك بعض أعمال ارهابية ولكنها — تقريبا — لم تتجاوز الدار البيضاء ، ثم هي لم تبلغ من الخطورة مبلغا زائدا... إن علاج المسألة كان يتلخص في قمع عنيف وشديد. هكذا يقول دولاتور ، ويستمر في سرد « حقائقه » قائلا : «كان لزاما أن يختار لهذه المهمة باشا صارم يزود بتفويض مطلق ليرتع كما يشاء ، ويسفك كما يشاء ... لو أنهم كانوا التجأوا الى مثل هذه الوسيلة لكلفت ثلاثة أشهر للقضاء على كل حركة ، لكن شيئا من ذلك لم يكن فتحرك بعض الفرنسيين وفي جملتهم زمرة من البوليس واستسلموا بدورهم للارهاب المضاد الذي كان أعمى غير بصير... لقد اغتيل المسيو ديبروي ، فهل كان لاغتياله صلة بهؤلاء ؟ إن المدة القصيرة التي قضيتها في المغرب لم تمكني من التفرغ لدراسة المشكلة بصفة عميقة ، وان كنت شخصيا أميل الى القول

بالاثبات ... وكيفما كان الحال ، فإن هذه الجريمة كانت نقطة تحول حاسمة في التاريخ المغربي ...

لقد كنت أعرف المسيو ديبروي ، وكانت لي معه علاقات طيبة ، انه كان مغرما بالسياسة وكان ... وكان ... ولقد لعب سنة 1942 دورا كبيرا في تمرد الجزائر ... نعم ان وطنيته لا يتطرق اليها الشك بيد أن ثروته المادية كانت تجعل منه انسانا يتوق الى السلطة ... وفيما يتعلق بالمشكل المغربي فإن أفكارنا كانت متفقة ، إن أفكار الشباب المغربي غلبته على أمره ولم يدر بخلده أن هناك علاوة على الشباب — الذين لم يخلصوا له نيتهم فإن هناك جمهوراً سيعرض المغرب للفوضى متى أمن جانب السلطة... في بداية الثورة الاسبانية وجدني الحال في كولمين... اشتغل كرئيس للدائرة فأمكنني تسجيل الملاحظة التالية :

عندما ثارت حامية منطقة ايفني المجاورة انقسم الضباط على أنفسهم الى قسمين : قسم من الضباط الممتازين وبعض الضباط العاديين كانوا في جانب الجمهوريين. بينما انضم الباقي الى الجنرال فرانكو ... فماذا كان موقف المغاربة ؟ إن الجنود المغاربة انضووا . وبدون اي تردد ولو لحظة واحدة ، وبدون أي انقسام في الرأي تحت حركة فرانكو أعرفتم لماذا ؟ لأن حركة فرانكو في نظرهم تهدف الى الثورة ضد الحكم الذي لا يرضونه ! وبعد أيام أشير لي وأنا بالسوق الى مغربي مدني يعمل في صف الجند الاسباني رغم أنه من المنطقة الفرنسية ، فرجوت أن أقابله ... وبعد أن تجاذبنا أطراف الحديث قليلا ذكر لي انه ينتمي الى حركة فرانكو ، وأنه في عداد الجرحى ... سألته « وأي باعث قذف بك الى الدخول في هذه الحرب ؟

فكانت الحجج كما تسمعون : «فرانكو رئيسنا»ان مخزننا سيتغلب على الجمهوريين الذين يستحقون القتل لأنهم لا يومنون بالله !»

لقد زود المغاربة حركة فرانكو بأكثر من مائة ألف متطوع . وساهموا بصفة فعالة في حصوله على النصر، وعلاوة على ما كانوا ينالونه من تعويضات مادية ، فإن هناك سببا آخر كان يحدو بهم الى مناصرته ذلك أنهم سيثورون ضد النظام القائم ، وبالتالي فسيقومون بحرب ! ويعيشون ولو موقتا في مغامرة ..!

فمع ناس كهؤلاء ينبغي أن نسير بتؤدة في طريق التطور ... لا ينبغي أن نلتفت فقط الى رغائب المثقفين القليلي العدد ... دون أن نفكر أيضا في ذلك الجمهور العظيم الذي يوجد في الأرياف ، ويمضي دولاتور في الإشادة بهذا « الجمهور » المخلص الذي يقبل في نظره كل تكييف وتوجيه ، ويرجع دلاتور الى حديثه عن الثورة الاسبانية : نعم قال لي : « إن الجمهوريين لا يؤمنون بالله فيجب قتلهم ».

ظللت أفكر في كل هذا ... وأنا على متن الطائرة ..وكنت الى جانب هذا استعرض أمامي تلك التعليمات التي اعطيت لي في فرنسا : « ليذهب عرفة باختياره التام !» وليعوضه مجلس للتاج ينال وفاق الكلاوي ! وليبق ابن يوسف بعيدا عن العرش !

لقد أفهمتهم هناك أن فكرة مجلس التاج فكرة أجنبية عن المغاربة ترعرعت فقط في مخيلة المسيو ديبروي ، وأفهمتهم أنها فكرة لا تلبث أن تنهزم ، ولذلك فإن هناك وسيلة واحدة تلك هي اقصاء الرجلين معا عن العرش وتعويضهما بثالث من الأسرة المالكة فإن ذلك منطقي أولا ثم هو يتوافق والتقاليد التي عرفت بالمغرب.

— 2 —

أخذت أسائل نفسي وأنا على متن الطائرة : كيف سأجد المغرب ؟ ولقد كان من رأيي أن مؤتمر ايكس ليبان كان غلطا فادحا ، وأن السفر الى (انسرابي » لا يقل في فداحته عن الخطأ الأول ، وأن سفينة المغرب أصبحت تتفلت من أيدينا لحظة بعد أخرى نتيجة سوء تدبيرنا وظهور ضعفنا ..

وأخيرا ... وقعت حادثة ليلة سفري الى المغرب آلمتني كثيرا ... « إن علي أن أقوم علاوة على مهمتي ، باعداد تصريح أتعهد فيه بأنني سأقتفي سياسة خلفي كرانفال ! » لقد رفضت ذلك بكل صرامة ... ودق جرس التلفون بعيد ذلك يؤكد لي أنني اذا لم أفعل فإن المغرب ستندلع فيه ثورة عارمة .. لقد أجبتهم ولا اخفي أني كنت أشعر بقلق زائد :

« إني مسؤول عما يجري ولكني سوف لا أدلي بتصريح ».. وكان الأمر على ما قررت ... فلا تصريح ولا ثورة ! بيد أن الستار كشف لي بعد على أنه لم يعر أي اهتمام لمذكرة كنت كتبتها لرئيس الحكومة ولمسيو أنطوان بيني ، تلك المذكرة التي لم أكتم فيها نواياي : لقد أخطرت الحكومة بأنه إذا كنا حقيقة نريد أن نتوفق في حل المشكل المغربي فإنه يجب أن لا نغفل أبدا عن الحالة الحقيقية الحاضرة لبلاد المغرب ، وكانت الخطوط الكبرى التي طالبت بمراعاتها تتلخص في أمور ثلاثة :

1 — غضب الجالية الفرنسية

2 — امتعاض المغاربة المخلصين لنا

3 — عدم تساهل الوطنيين الذين يريدون أن يستغلوا متاعبنا

لمصالحهم ، ولقد كان في الاستطاعة أن يحصل المرأ على نجاح هنا لو أن هذه النقط الثلاثة روعيت كما ينبغي ... ويزيد الجنرال دولاتور في مذكرته قائلا : «كان علينا أن نمنح للجالية الفرنسية الاستقلال الداخلي»! وثانيا فإنه كان من واجبنا أن نعطي للقبائل في البادية نظاما خاصا يضمن لهم شخصيتهم ! فإذا ما رفض الوطنيون هذه العروض فإنه سيكون من واجبنا أن نستعمل القوة للمحافظة على النظام أولا ثم نقوم بعده باصلاحات بعيدة المدى ، ولقد ختم مذكرته للحكومة بهذه العبارة : «إذا ما لانت قناتنا على إثر حوادث وادي زم بالذات فاننا سنعرض بمصالح الشعب الفرنسي الى الخطر العظيم.»

وعندما وصلت الى مطار الرباط كان من بين الفرق العسكرية التي أدت لى مراسيم التحية كوكبة من الكوم المغاربة ... ولم يتطرق الي الشك اذ ذاك أمام هؤلاء الأبطال الصناديد الذين قدتهم مرارا وتكرارا إلى النار ، أقول لم يتطرق الى الشك أبدا في أن الجيش الفرنسي سوف يخسر بعد بضعة شهور فقط هذه الوجوه التي كم توجت لنا من أكاليل في ميدان الحروب !

لقد اقترحت على مسيو بنافيو أن يصبح وزيرا معتمدا الى جانبي ... وكان الباعث لى على اختياره بالخصوص أن له خبرة واسعة بالاسبانيين حيث أنه قضى شطرا مهما من حياته في طنجة كقنصل عام ، لقد كانت رغبتي قوية في أن أحاول علاجا لمشكلة علاقاتنا مع المنطقة الإسبانية المجاورة ... إذ أنني كنت مقتنعا بأن عدم الانسجام بيننا سيقودنا حتما الى أخطر الكوارث

حقا لقد شعرت بسعادة كبرى عندما وجدت نفسي بين جدران قصر الإقامة ، وأخذت استعرض أمام مخيلتي تلك الأيام الباسمة التي قضيتها هناك قبل الحرب ، لكن مناظر القصر الخلابة وحدائقه الفيحاء وآثاره

البديعة كل ذلك لم يحرك — مع أسفي الشديد — مني ساكنا للتفكير في الاستمتاع والنعيم !

لقد شغلت المشكلة القائمة بيننا وبين الاسبانيين كل اهتمامي ... وكنت اذكر ثورة عبد الكريم المستعرة التي أملت علينا توحيد الخطة للقضاء على حرب الريف ... !

حقا كنت أضمر عواطف طيبة للشعب الاسباني الذي توارث عن أسلافه تقاليد جديرة بالفخر والاكبار . ذلك الشعب الذي كانت الشمس في يوم من الأيام لا تغرب عن أرضه ... لقد احتفظت في سائر علاقاتي مع زملائي الاسبانيين بذكرى لا تبليها الأيام . واعترف هنا أن موقف بلادي نحو جيراننا الاسبانيين كان يثير كثيرا من الانتقادات . فإن سياستنا الداخلية كانت تتناقض في أغلب الأحيان مع سياستنا الخارجية ... ان من الحق أن لا ننكر أن فئة تتركب من فرنسيين واسبانيين اخترقت حدود اسبانيا لتحاول بث الفوضى في اسبانيا الفرنكية ... ولكن يظهر أن كل هذا صار نسيا منسيا سيما بعد ما أدرك العالم الغربي ضرورة تضامنه، سيما أيضا وكل هذا لا صلة له بقضية المغرب ... والحق أن خلافنا مع الاسبانيين يرجع الى عهد بعيد فإن خط الحدود بيننا وبينهم بعد سنة 1927 لم يكتب له أن يعرف بكل دقة . وفي بعض الامكنة في المغرب لا ننسي أننا طمعنا قليلا في تراب المنطقة الأخرى . وفي أثناء الحرب الاهلية الاسبانية كانت العلاقة بيننا تكاد تكون معدومة ... إلا أنه في سنة 1951 كنت ذهبت لتمثيل الجنرال جوان في تشييع جثمان المقيم العام هناك.

وما زلت أتذكر أنني اقتبلت هناك بحفاوة زائدة رغم حملات قوية من بعض الصحف هناك.. بيد أن العلاقات لم تبق كما كانت عليه من التعفن ... ولقد استطعت في ظرف شهور قضيتها بالرباط على ذلك العهد أن أتصل في مناسبات كثيرة في طنجة مع مدير الشؤون الاهلية الاسبانية ...

ان اقصاء السلطان محمد بن يوسف عن العرش سنة 1953 كان بصفة سريعة ومرتجلة لم يمكن معها للجنرال كيوم أن يتصل قبل بزميله في المنطقة الاسبانية ... وهنا أزفت الآزفة ... لقد جرح الجنرال فالينيو في كبريائه ! هذا الجنرال الذي يحتفظ لنا بذكريات سوداء منذ الحرب الأهلية ... واستسلم السفير الاسباني الى السياسة العمياء .. انه أصبح من الأنصار المخلصين لسيدي محمد بن يوسف ومع أنه كان في امكانه أن يتمسك بجانب الحياد على الأقل ... ولكنه هل وقف به الأمر عند هذا الحد ؟ لا انه تعداه الى أخطر من هذا.

— 3 —

.. هل وقف الأمر بالجنرال فالينو عند هذا الحد ؟ انه تعداه الى أخطر من هذا ... لقد أصبحت المنطقة الاسبانية مأوى حصينا لأولئك الذين يرتكبون هنا أعنف الاعتدآت . الأمر الذي يتناقض مع المبادئ المتفق عليها بين الدولتين ... فتفشى أمر الارهاب هنا لأن الفدائيين مطمئنون إلى أنهم سيجدون عند فالينو حماية منيعة . هذا الى أنه لم يكن لدينا ما يكفي لضرب الحراسة القوية على الحدود ...

ويأخذ الجنرال دولاتور في سرد « الدرس السياسي المغربي » الذي اكتسبه ... ذلك الدرس الذي اعطاه اياه جنرال اسباني . ويتلخص في أن واجب الفرنسيين والاسبانيين هو الاتحاد والتمالؤ على المغاربة المسلمين ... وإلا فإن الدمار والهلاك سيحل بهم ... لقد قال صديقه الاسباني منذ سنة 1927 « إن حركة انفرادية من بعضنا دون اخبار الجانب الآخر سيكون لها عواقب سيئة ، فيجب اذن أن نتضامن على الدوام ... اننا مسيحيون والمغاربة مسلمون ... والجمهور هنا لا تكفيه مائة سنة لينسى العنصرية والعصبية الدينية ... أحببنا أم كرهنا فإن مصلحتنا تفرض علينا أن نبقى جنبا الى جنب » لم أنس أبدا هذا الدرس ولذلك فبمجرد وصولي للرباط بعثت برسالة ودية للمقيم الاسباني ، فأجابني بمثل العواطف .. بيد أنه عندما اتصلت بمسيو « الكوفير » قنصل اسبانيا العام هنا ، وعبرت له عن سروري لرؤية العلاقة بيني وبين الجنرال فالينو تتوطد أواصرها قابلني مقابلة غير لائقة ...

ويحكي الجنرال بعد ذلك الخطب المسجلة التي تبادلها مع « عرفة »

عندما دخل عليه لأول مرة ... ثم سفره الى المواطن التي كانت مسرحا للحوادث ..وهنا يظهر تأثره مما شاهده هناك من أحداث وأهوال ...

وختم زيارته بالدار البيضاء حيث تناول العشاء هناك وتبادل مع (الباشا) ابن القرشي الذي نصبه الفرنسيون . حديثا شيقا .. إن الجنرال كان يعرف ابن القرشي منذ سنين .. وكانت لهذا الأخير ثقة عمياء في شخص الجنرال ... لذلك فقد اشتكى له في امتعاض ظاهر من أنه لم يستطع الحركة في المدينة التي نصب عليها كباشا ! إنه لا يحظى بتشجيع من لدن المسؤولين الفرنسيين ! ان الأسابيع الأخيرة كانت بالنسبة اليه في منتهى القسوة : اختلال للأمن ، اعتدآت مسلحة بالمدينة الاهلية ، فوضى ضاربة أطنابها بالمدينة الأروبية لدى وصول المقيم كرانفال ! ! واستمر ابن القرشي يشكو أمام جنراله قائلا : « لم تكن لي أية سلطة على البوليس ، ولم يكن في مستطاعي أن أباشر أي عمل انتقامي ضد الارهابيين ، لقد اتخذت قبل هذا تدبيرا ضد التجار المنتمين لحزب الاستقلال فأغلقت متاجرهم وطهرت البلاد منهم لكن كرانفال الغي قراري هذا ، فألحق بي بسبب ذلك اهانة مريرة !. وختم ابن القرشي كلامه قائلا : اني لا أرغب في رجوع ابن يوسف ولكني نصير الاصلاحات ، ان فرنسا اتجهت — كما يقول ابن القرشي للجنرال — منذ شهرين اتجاها يتعدى حدود العقل ، انكم تريدون أن توقدوا النار في هذه البلاد الآمنة . انكم تعلمون أكثر مني أن كثيرا من سكان المغرب ليسوا من التطور بحيث يتفهَّمون ما أنتم مقدمون عليه ... سيروا بتوءدة ، وإلا فإن الجمهور سيحكم على قوتكم بالضعف ! وعلى أيامكم بالادبار ! وحينئذ سوف لا يبقَى أمامكم إلا أن تشهروها حربا شعواء ، وإما أن تنصرفوا ونحن معكم إلى غير رجعة ! »

وكانت للجنرال على اثر هذه المذاكرة أحاديث مع أعوانه خرج منها بالملاحظات الآتية :

أولا : ان حزب الاستقلال أصبح — نتيجة لسياسة كرانفال — يؤمن بأنه ربح المعركة وأنه لجاد في عمله للاجهاز على عرفة !

ثانيا : ان سكان المدن الذين تأثروا بالدعايات ، والذين ابتعدوا عنا منذ زمن بعيد أصبحوا يعتمدون الآن على ضعفنا لانجاز خطتهم هذا إلى الاشاعات المنتشرة هنا وهناك والتي تؤكد أننا سوف لا نستطيع من الآن أن نطلق النار على أحد ولو في حالة اخلال بالأمن .

ثالثا : إن سكان البوادي اخذوا بدورهم يشكون في قوتنا ولوحظ أن من بين هؤلاء من بلغ به التعصب والعناد الى أن أخذ ينادي بالجهاد وذلك كما وقع في وادي زم ...»

هذا في حال أن بعض الوزراء لا يرى غير فكرة واحدة : تلك هي أقصاء عرفة عن المغرب ! لقد طالبوا باقصائه ولكن في هدوء ! وباحترام ! لقد كنت أرجو أن ينبثق وقت يطلب مني فيه أن أحقق لهم هذه المهمة ولكن بوسائل أخرى ... إن الحالة كانت جد خطيرة ... لقد قضيت ليلتي في البيضاء .. ولكن هل مرت دقيقة واحدة دون أن تملك على مشاعري هذه الهواجس ؟ وقصدت الرباط من الغد ... وحينما رأيت سلفي كرانفال الذي كان ما يزال يوجد بالرباط ... لمحت له في حديثي معه عن ارتساماتي ... وأتأسف لذلك لأني لست من أولئك الذين يتعشقون الجدال الشخصي . بيد أن الحالة كانت وليدة سلوكه فكنت اذن مضطرا لأن أصارحه بما صارحته به ...

والآن وقد قرأت كتاب كرانفال (مهمتي بالمغرب)... فإنه لا يمكنني ان أخفي عليكم دهشتي العظيمة حينما طالعت في امعان كبير فصول الكتاب ، لقد بهتت حقا حينما قرأت في الكتاب المذكور التماس العذر له من طرف انصاره في السياسة المتبعة في المغرب عندما رأوا اخفاقه التام وفشله الذريع ... لقد قالوا : « انه لو نفذ برنامج كرانفال لنجح في

المهمة !» انها فكرة خاطئة ومصادمة لكل منطق ولكل صواب ...

لقد عرفتم من خلال كتابي هذا أنني من انصار الاصلاحات بافريقيا ، وان خبرتي بأحوال السكان هنا وعلى الأخص المغاربة كانت تمنعني من أن أقبل أي سياسة للضعف حيث أني أعتبر أن كل ضعف مع المغاربة سنحصد في مقابلته الحنظل والعلقم ... نعم تملكني في تونس هاجس المفاوضات ولكن تحت الضغط ، ولهذا كان أول ما حرصت عليه انهاء أعمال الارهاب هناك وتجريد الفلاقة من أسلحتهم ...

ولا ينبغي بحال أن يفهم من كلامي حول سلفي كرانفال انني أشك في وطنيته أو حسن نيته ... ولقد أصاب عين الصواب في نظري حينما صرح بأن اسمه استغل استغلالا لاخفاء « مناورة سياسية » كان لا يحبذها هو ... انه صادق في هذا لكنه مع هذا كان كثير الارتجال ... فإنه عند وصوله الى المغرب كان في استطاعته أن يقذف بمديرين أو ثلاثة .. وكان هذا يكفي لايقاظ المديرين الآخرين ، ولكنه عوض ذلك قذف كلهم تقريبا فكانت النتيجة السيئة : فمن جهة ارتبك سير المصالح حيث إن المديرين لم يعوضوا في الحين ، ومن جهة أخرى فإن جهاز الادارة — وقد شعر بأنه مهدد — لم يقم بعمل غير الافساد والابطاء للشؤون الجارية .

إن قليلا من دراسة علم النفس كان جديرا أن يملي على كرانفال اتخاذ سيرة أخرى غير هذه ، لقد كان يعتقد أنه استطاع أن يعرف في ظرف خمسة عشر يوما قضاها بباريز كل وجوه المشكلة المغربية وكان هذا بدون أن يكون له أي سابق بمعرفة المغرب ... إنه نفسه يصرح بهذا ذاكراً انه أتى من فرنسا وبرنامجه جاهز تام !

وبمن كان يتصل بفرنسا ؟

— 4 —

... لقد أتي كرانفال الى المغرب وهو يعتقد أنه يعرف جميع وجوه المشكل المغربي اعتمادا على دراسة دامت طيلة مقامه بباريز خمسة عشر يوما ! وبمن كان يتصل هناك في باريز؟ لقد اتصل بالأستاذ جورج ايزار محامي محمد بن يوسف... انه رأى أيضا الوزير المقري ولكنه صرح بعد صفحات من كتابه بأنه لا يستطيع الاعتماد على الوزير المذكور في انشاء « سياسة » انشائية صالحة للمستقبل... وهكذا التى كرانفال بنفسه ، ومن دون ما أن يتروى بين أحضان مغاربة باريز ! وأعني بهم الوطنيين... لقد اجتمع مرارا عند الأستاد ايزار بالسيد البكاي الذي كان ممثلا للعاهل المنفي بصفة عملية ، وكان رئيس ديوانه على اتصال مستمر بالهيئات السياسية المغربية ، ولكن هل كان يتصل بأصدقائنا التقليديين ، والوطنيين المعتدلين إن الجواب سيكون بدون شك بالنفي ، وذلك لأن هؤلاء لا يوجدون في باريز.. وبصنيعه هذا ، وبعدم اتصاله بعرفة ارتكب خطأ فادحا... لقد أصبح كرانفال في نظر المغاربة نصيرا لابن يوسف وعدوا لعرفة يقول كرانفال في كتابه :

« ومن محادثاتي المختلفة هذه استخلصت الخطوط الكبرى لعملي في المغرب » وخلاصة القول — يقول الجنرال — فإن الممثلين للأحزاب السياسية في فرنسا هم الذين وضعوا له الخطوط الكبرى . ما في ذلك شك ولا ريب..! إن الموقف الذي وقفه سواء في باريز أولا أو في الرباط ثانيا حينما استقدم السيد البكاي ممثل ابن يوسف أوقد النار في الحطب . ان المغاربة بدون استثناء أصبحوا يعتقدون أن المقيم العام الجديد لا يتحيز

للملك السجين... لا أقول لكم : ان هذه فكرة كرانفال ، ولكني أقول : المغاربة كانوا يؤمنون بهذا .

وفيما يتعلق بالمظاهرات التي كانت بالبيضاء ، وفي غير البيضاء ، والهتافات بحياة كرانفال وحياة ابن يوسف ، كل ذلك كنت على علم تام مما يقصد منه ! اذ أنني قوبلت بمثل ذلك ، وعلى نفس الشكل عند دخولي لتونس... لكن هناك فرقا بين الموقفين : موقفي أنا وموقف كرانفال ، فأنا لم أومن أبدا بتلك الهتافات ولم أغتر بها ، بينما كرانفال استسلم للايمان بذلك فيما يظهر !

لقد عقد اجتماعا في الاقامة ضم المغاربة والفرنسيين ، واعتقد كرانفال أنه للمرة الاولى يجمع المغاربة مع الفرنسيين على هذه الصفة . إن اكتشافه الجديد يبعث حقيقة على الضحك لقد حضرت بنفسي أيام الجنرال نوكيس اجتماعات عديدة من هذا القبيل فالمسيو كرانفال لم يأت بشيئ جديد كما يزعم .

ولقد أكد كرانفال بعد ذلك في كتابه بأن « السيد **علال الفاسي** كان يتبع جهوده باهتمام ». إني أشاطره تماما هذا الرأي ، ولكن هل كان علال الفاسي يتبع تلك الجهود بنفس النية التي كانت لكرانفال . انني اعرف علال الفاسي... لقد كان لعلال هدف واحد ، أتعرفون ماهو؟ هو « القذف بالفرنسيين أجمعين خارج المغرب » إن دهاء علال الفاسي يقضي عليه بأن يتدرج في المسائل ، ولكنه في الأخير بمجرد ما تحرز بلاده على الاستقلال فإنه سيطالب بأكثر من ذلك ، انه سيقول حتما : « إن حدود المغرب في السنيكال » وتندوف بلاد مغربية ، وهناك شيئ آخر...سيبارك مطالبه هذه وزير الخارجية المغربية ! ! هذه هي الحقائق التي كان يجب أن تسيطر على اهتمامه...

لقد أبى مسيو كرانفال الا أن يصف لنا في أسلوب مؤثر عدالة قضية

المغاربة حيال ملكهم ابن يوسف ! ولقد كان المرء يخال نفسه — وهو يقرأ الموضوع المتعلق بابن يوسف — انه أمام نصير حميم من أنصار الملكية عندنا في الزمن القديم ... ألم يكن من واجبنا أن نقرأ تاريخ الغرب ؟ ... وإنه على فرض أن هناك حقا ، فإنه لمجموع الأسرة العلوية وليس من اختصاص واحد ما بعينه !

انني لا أنكر أنه عندما وصل كرانفال كانت البلاد تعيش ظروفا سيئة ، وأن المهمة لم تكن على ما ينبغي من السهولة ... لكنه كان هناك عندنا سد منيع يقف في وجه كل التيارات . وكان علينا أن نشيّد سدا آخر في منتهى السرعة قبل أن نفكر في تحطيم السد الأول ، بيد أن العكس هو الذي كان ، ومن هنا أتانا كل البلاء ... ان موقف كرانفال جعل المغاربة يؤمنون باننا اضطررنا إلى الاستسلام أمام الإرهاب المغربي وبعبارة أخرى أمام ابن يوسف

إن كرانفال كان يعتقد الخير في المتحدثين اليه من المغاربة ، ولكن من هم الذين وضعوا قنبلة 14 جويي ؟ لقد قالوا : « إنهم فرنسيون يستفزون الناس ، والحقيقة أنهم كانوا أعضاء من حزب الاستقلال ! ولقد ألقي القبض على بعضهم وأنا ما أزال بالرباط ...لقد اعتبر موقفه على أثر هذا الانفجار موقفا ان دل على شيئ فإنما يدل على الضعف التام .

لقد كان الهدف من وضع هذه القنبلة واحدا ... هو اشعار المقيم الجديد بأن عليه أن يسرع في خطواته ، وعليه أن يرضي رغائب حزب الاستقلال وإلا فإن الارهاب سيضاعف من نشاطه . لكن كرانفال — وقد خدعه المتحدثون اليه — لم يفهم بالقطع الأمر على هذه الصفة ، لقد برهن في مناسبات عن شجاعته ، ولو كان يعتقد أن في قضية القنبلة ضغطا عليه لأبدى مقاومة بدون شك ... ولم يكن أحد غير حزب الاستقلال منظما لهذه المجزرة وما عساي أن أقول غير هذا ؟ إن الأمر كما ترون ...

وبالفعل فقد بلغ حزب الاستقلال الهدف المنشود ... فلقد أخذ المقيم العام يسابق الزمان ! وحينا أعد تصميمه الخاص ، المشهور بتصميم 20 أوت.

وحيث أن حزب الاستقلال رأى أن أحلامه لم تتحقق في الوقت المتوقع فقد ضاعف من جهوده . وهكذا تمت مذابح وادي زم ، وفتن خنيفرة ! وهكذا رفض أصدقاء الاقامة العامة أن يضموا أصواتهم لصوت الاقامة عندما استنكرت هذه الفظائع ! !

إني أعتقد أن كرانفال لم ير إلا جانبا واحدا عن جانبي المشكل المغربي ، وأعني به الجانب السهل القبول في نظره كشخصية غربية لا خبرة لها بشؤون الشمال الافريقي ولا بقومه ! لقد حالت الأشجار دون رؤية جميع الغاب ! وأعني بالغاب ذلك الجمهور المغربي .. وهذا فقط هو الذي دفع بكرانفال الى ارتكاب الهفوة ..

وهنا يتلخص الجنرال دولاتور للاشادة بالسفاكين في الجزائر فيقول : ولكن هل يسوغ أن يقول : إنه يجب في مثل هذه الحالة أن يختار للجزائر اختصاصي بشؤون الشمال الافريقي ؟ ان سوسطيل وربير لاكوسط ما انفكا يعطيان الدليل الساطع على أنه ليس من الواجب ذلك ! إنما على المرء أن يعرف الحقائق كما هي ، ويعرف على الأخص أخطار الاستكانة والضعف ... ويتصدى الجنرال دولاتور لبيان كيف في نظره ينبغي أن يكون المقيم النموذجي : « إنه يجب على الرجال الذين يستدعون للقيام بهمة كهذه أن لا يعتقدوا أنفسهم أنبياء موحى اليهم يمسكون بأيديهم على الحقائق ! ولا أن يحسبوا أنفسهم في باريز ! بل على العكس عليهم أن يفرغوا جهودهم في دراسة السكان ... وبعبارة مختصرة « يجب أن يتمسك المرء بصميم الحقيقة ولا يتنازل عنها بحال » وكما تحن الذئاب الى الذئاب فقد قال دولاتور : انه لا ينبغي بحال أن نتهم سوسطيل ولاكوسط بأنهما

رجلان رجعيان مستعمران .. شعورهما الوطني ، ومعرفتهما للواقع الجزائري كل ذلك أفهمهما المشكل المعقد كما هو ! وإن ما يتوفران عليه من « سجايا » أعانهما وسيعينهما على ايجاد الحل هناك ...

هكذا قال ... وسنرى مع الجنرال دولاتور ماذا سيكون الحل هناك في الجزائر رغم « السجايا والمزايا »... وسنرى أن العنف والقمع والقوة كما لم تنفع في سوريا ولبنان وفي الهند الصينية ... وفي تونس والمغرب .. سوف لا تنفع اليوم في الجزائر ، ولا تنفع غدا في أماكن أخرى ...

— 5 —

... وعدت من رحلتي عبر وادي زم ، على نية بذل كل المجهود لاتخاذ التدابير العسكرية لكي أحول دون تكرر حوادث كالتي رأيت آثارها هناك ..

ويحكي الجنرال انه عندما زار قصبة تادلة تحدث الى الرماة المغاربة ، وسألهم عن أحوالهم وأحوال عائلاتهم ... ولكنه لاحظ أن وجوههم لا تبعث على الارتياح فسأل رئيس الكتيبة عن معنويتهم ، ولكنه أجيب بالجواب التقليدي : « في الغاية » ! ويقول الجنرال : ولكني عندما اتجهت لصعود سلم الطائرة تلقيت كلمة صغيرة من أحد أصدقائي الأقدمين في الجيش : « إن معنوية الجنود ليست على ما ينبغي ، وإن الدعايات الخبيثة بلغ أثرها الى الرجال هنا ، وإن هؤلاء أخذوا يتساءلون : هل أن فرنسا حقيقة أقوى من الوطنيين ؟» وهنا قررت أن أفتح بحثا عميقا في الموضوع إذ ليس من الحكمة أن أجد نفسي في يوم من الأيام أمام احداث خطيرة ...

ثم دأبت على تقوية كل الوسائل التي من شأنها أن تضمن الأمن ... ولم أغفل أي احتمال . وحسبت الحساب لامكانية قطع الاسلاك التليفونية ، فوضعت تصميما خاصا يضمن وصول الأخبار عندما تدعو الحاجة لذلك ، وكلفت ضابطا ممتازا بالسهر على انجاز هذا المشروع ... ومن جهة أخرى فقد بعثت بالكمندار « بي » لباريز قصد اطلاع الحكومة على الحالة كما هي وليطلب في الوقت ذاته ارسال بعض النجدات على الفور ، وقبل طلبي هذا ، وبالفعل نزلت تسع فرق عسكرية بالمغرب قبل فاتح أكتوبر ...

حديثه مع عرفة ..

ولقد اتصل مرة أخرى بجلالة مليكه الهمام ! إنه كما يقول عنه الجنرال « رجل مسن ، وهو الى هذا ذو رأي متزن ، ولا يخلو في نظره من دعابة واخلاق سامية »! اجتمع به رأسا لرأس « والعين في العين .. ولا ترجمان » ولم يكن الحديث بالفرنسية ! بل كان كما يؤكد دولاتور بالعربية ! لقد اشتكى عرفة في حسرة مريرة من سلوك المقيمين السابقين ... وكشف للجنرال عن قصده في هذه الجمل التي ستقرأون : « لم يعملوا مطلقا على تنويله السلطة التي اعترفت له بها معاهدة الحماية !! ولم يؤخذ برأيه في أي شيء أبرزوه للوجود! وأغرب من هذا أن لاكوسط أطلق سراح بعض الوطنيين دون أن يحيطه علما بذلك مع أنني يقول عرفة لجنراله — كنت المقترح لذلك ، وهكذا بخلوا علي حتى بفضل هذه المأثرة !! فكيف مع هذا تريدون مني أن أكون شعبيا ، أضف الى هذا دعايات حزب الاستقلال الجامحة التي تفعل أفاعليها في الناس ! لقد أصبحت في نظر الجمهور أشبه ما أكون بالعوبة الطفل : يحركها شمالا فتتحرك ، ويعكس بها الاتجاه فتمتثل ! ولم يكن هناك من سبب لهذا إلا خطاكم ... » ويضيف عرفة إلى دموعه هذه أنه رغم كل هذا فإن القواد على العموم كانوا مخلصين له ، وان المشكلة في مجموعها تتلخص في استعمال القوة ، وختم حديثه للجنرال بهذه العبارات « إن المقيم أكرانفال بأعماله سواء في باريس أو في المغرب حمل الناس على الاعتقاد بأن سيدي محمد سيرجع للعرش لا محالة وأنني على وشك أن افسح له المجال ... فهل تتخيلون أن في الامكان بعد هذا أن يدعي المرء لنفسه سلطة هنا » ؟!

وهنا أجابه دولاتور : « إن الحكومة الفرنسية لها رغبة ملحة في تحقيق السلام بالمغرب وإن هذه الرغبة تحدو بها لأن تسعى في تكوين حكومة تمثل مختلف الاتجاهات والأفكار ، وذلك لكي يمكن أن ندرس معها الاصلاحات التي تفرضها الحالة ، والتي تساعد على خلق « مغرب

عصري » وهنا توجه اليه عرفة في لهجة معاتب : « ولكن كيف يكون في استطاعتي أن أحاول تأسيس حكومة بالمغرب بينما توجد في فرنسا حملة منظمة تهدف الى تعزيز الوطنيين في رغائبهم ؟ أفي الاستطاعة أن يحاول « ربان السفينة » انقاذ باخرة تعملون أنتم بهفواتكم على اغراقها ؟! ويستمر القرد في الشكوى من حال هو بنفسه الذي سعى فيها يوم خرج من منزله الهادئ بفاس وطمع في أن يصبح نسرا بالرباط ! « إنني هنا سلطان المغرب ! فكيف يمكن أن ينعقد مؤتمر ايكس ليبان دون أن أقترح أنا ذلك ؟ ... ولقد كان المؤتمر دون أن يطلب أحد مني أن أبدي رأيي فيه ! »

ولا يخفي دولاتور هنا أنه شعر بنوع من الارتباك والخجل عندما سمع هذه الكلمات ... انها كانت غاية في الصدق والانصاف كما يقول ... ولقد طلبت اليه في نهاية حديثي معه : « هل ما إذا كان في استطاعته أن يقبل الابتعاد عن العرش ولكن دون أن يتنازل عنه ، وذلك في حالة ما إذا أمكن ايجاد حل للمشكل ، وكان هذا الحال يقتضي منه ذلك ويستدعي تأسيس مجلس لحفظة العرش مثلا ...» فأجابني : إن هذا الاقتراح يتناقض تمام التناقض مع التقاليد التي عرفت بالمغرب ، وهل يمكن أن يظل العرش بدون جالس عليه ؟ إني اعتقد أن ذلك سيكون غير محدود النتائج ، وانه سوف لا يؤدى إلا لشيئ واحد ، ذلك هو رجوع ابن يوسف ! وفيما إذا وقع ذلك فإن ظلكم الى زوال ! وإن أصدقاءكم سيفقدون الى الأبد ثقتهم في قوة فرنسا !» وأضاف عرفة الى هذه التكهنات قوله وهو يبتسم : « فلعل الله أراد أن يخذلكم !! اما فيما يتعلق بي — يقول عرفة — فإن ثقتي في فرنسا ما تزال كما كانت ، ولا رجاء لي الا أن أخدم مصالحها !! ولو أنها طلبت الى أن اتنحى عن العرش لما ترددت لحظة في ذلك ! فإني كما تعرف لم أتوصل الى العرش عن طريق دسيسة قمت بها بنفسي ، ولكنهم بحثوا عني في منزلي »!

وهنا سأل عرفة : « هل قد توصل قبل هذا التاريخ باقتراحات حول ذهابه . فأجاب : نعم ! ، وإن رغبته التي اعرب عنها كانت هي أن يسمح له بالاعتزال في طنجة !

ولقد تركت هذه المقابلة في نفس الجنرال اثرا أليما ... وأخذ يسائل نفسه : « هل من الممكن أن يعرض للخطر مصير هذا العاهل الذي لم يعارض أي اصلاح قدم اليه ، والذي يتمتع بحنكة وخبرة خلافا لما يشاع عنه ، هذا الى نظرياته الصائبة حول المشكل المغربي ؟؟

لقد شعرت وأنا أتحدث إليه بضجره المتزايد ، فقد فقد هو الآخر ثقته فينا ! إنه لا يرغب في الدفاع وحده ، ولم يبق في الرباط ممَّن يعشق بقاءه الا الحجوي ... والكلاوي .

وحقا فإن صدى الأخبار التي كانت تصلني من جميع النواحي بالمغرب كانت تناصر هذا الاعتقاد ، وان كثيرا من أصدقائي المغاربة وردوا علي يؤكدون عدم رضى الشعب على هذا السلطان البائس ! نعم عدم الرضى الذي كنا نحن وحدنا مسؤولين عنه ، فإن عرفة لم يكن في استطاعته أن يختلط بسكان المدن . أما البوادي فإن جانبا منها لا يعيره اهتماما بينما جانب آخر يحقد هو الآخر عليه ! وألقى دولاتور هذا السؤال على نفسه وتولى الاجابة عنه : « ولكن هل كان من المستطاع أن نكسب عرفة سلطة على الشعب المغربي ؟ —

اعتقد أننا سننجح في ذلك . على أن هناك نظرية كان يراها كثير من الفرنسيين وجانب مهم من الرؤساء المغاربة ، تلك هي أنه إذا ما قررت الحكومة الفرنسية أن تنتهج سياسة الشدة والصرامة ، وكان يعضدها في ذلك برلمانها ... فإنه من الممكن أن نسترجع لهذا العاهل بعض مكانته في نظر بعض رجال البادية ... بيد أن تمالؤ الشعب على الرجل بلغ حدا أصبحت معه الحكومة الفرنسية مضطرة لأن تسلك طريقا غير طريق القمع

والعنف ... فلم يبق اذن الا أن نبحث عن حل آخر غير التفكير في مناصرة عرفة ! وان هذا لم يكن غير الحل الذي فرضته على التعليمات الحكومية التي توصلت بها عند مغادرتي باريز ... تلك التعليمات التي تتلخص في النقط الثلاثة الآتية :

أولا — الحصول من ابن عرفة على اخلاء للعرش عن طواعية واختيار .

ثانيا — إنشاء مجلس للعرش تحت رئاسة المقري ، ويكون للسيد البكاي حق العضوية فيه بينما يضاف اليه ثالث يمثل وجهة النظر « الكلاوية »

ثالثا — تكوين حكومة مغربية من أعضاء يمثلون مختلف الاتجاهات والنظريات ، وينبغي أن تتوفر هذه الحكومة على شرط أساسي ، ذلك أنه يراعي أن تكون أغلبيتها من أصدقائنا الملحوظين ، بينما يحتفظ المستشارون الفرنسيون ببعض المراكز الفنية تحت نفوذ الوزير الأول

ويجب أن يتحقق جميع هذا قبل 12 سبتمبر .

لكن — ويا ما أقسى لكن هذه على الجنرال !— لكن أين يوجد هذا العضو الكلاوي الذي سيكون ثالث ثلاثة في مجلس العرش؟ وأين هم هؤلاء المغاربة الذين تتكون منهم الحكومة ؛ لقد كان يجب أن يكون الجميع بالمغرب ... لكن الواقع انهم أجمعين كانوا في فرنسا ! حقا أخذ بعض الرؤساء التقليديين يدخلون للمغرب لكن الأعضاء الآخرين المتوقع وجودهم في الحكومة يتوزعون على النواحي : فبعضهم في باريز يتبع حركات الحكومة عن كثب ! بينما البعض الآخر يوجد في طريقه إلى انسرابي حيث يوجد سيدي محمد بن يوسف ...! وشيء آخر أن بعثة تتركب من الجنرال كاترو والمسيو ايريسو بناي ، بعثت بها الحكومة الفرنسية إلى مدغشقر لتفاوض « السلطان السابق ، ولتتصل بالسيد البكاي ! !

وفي ثامن سبتمبر وصل تلغراف من انسرابي ، فما هو محتواه ؟ انه يضرب بتصميم الحكومة عرض الحائط ! ! فابن يوسف يعطي لفرنسا الحق في تعيين الشخص الثالث بمجلس العرش علاوة على السيد البكاي والمقري ، ولكن هذا الثالث يجب بكل تأكيد أن لا يكون كلاويا .

لقد فقد اذن التوازن المنشود ! فإن المقري — رغم « تجاريبه » — رجل طاعن في السن ، يقرب من المائة ان لم يكن قد جاوزها ... والبكاي ، كان الممثل الشخصي لظل محمد الخامس ، فإذا لم يكن من الممكن أن نحتفظ بالتوازن بواسطة شخص ثالث يمثل الإتجاه التقليدي أصدق تمثيل ، ويكون صديقا لفرنسا في الوقت ذاته ، إذا لم يمكن ذلك فإننا سنفقد نفوذنا على مجلس العرش ، وسيصبح رجوع ابن يوسف للعرش أمرا لا مندوحة عنه ...

لكن ماذا كان موقف الحكومة ؟ إنها أخذت تتنازل شيئا فشيئا ... لقد أفهمتهم أنني رغم تمسكي بالتصميم الحكومي فإنه سيكون من المستحيل بالنسبة الى أن أنفذ هذا التصميم في الوقت المعين (12 سبتمبر). وأعلنت كذلك عن رغبتي في حل مسألتي مجلس العرش ومجلس الحكومة في وقت واحد وعلى صفة لا يمكن معها أن يشعر أصدقاؤنا الأوفياء باهمال لهم أو تنقيص من قدرتهم ...

لقد خيل لي أن موجة من الجنون جرفت برجال باريز ! ! إن جرس التليفون ظل يرن في مكتبي بدون انقطاع ...

وماذا كنت أتلقى في هذه المكالمات ؟ « إن الدمار والهلاك ينتظرك إذا لم تعمل فورا على اقصاء ابن عرفة ! إن ثورة عارمة وشيكة الوقوع ! ستكون مسؤولا عن الدماء التي ستسيل الخ .. الخ . تلقيت كل هذا . ولكني كنت أتصامم ... حقا اتخذت التدابير العسكرية اللازمة ، وأخطرت السكان بأن كل مظاهرة تقع ستقمع بدون رأفة ولا رحمة ...

ومر اليوم الثاني عشر من سبتمبر كسائر الأيام ...لا أنكر أنه كانت هناك اعتداءات بيد أنها كانت أقل بالنسبة للأيام الأخرى ..

وفي اليوم الثالث عشر جاهرت رجال باريز بأن ذهاب عرفة سيصطدم ببعض المصاعب التي لم تكن في الحسبان .... مصاعب آخر ساعة .. فما هي هذه المصاعب ؟

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح !

— 6 —

وفي اليوم الثالث عشر من سبتمبر أفهمتهم في باريز بأن ذهاب ابن عرفة الى طنجة يصطدم بمصاعب لم تكن في الحسبان.. فما هي هذه المصاعب؟ ان المسيو « ديبوا صيصون » وزيرنا بطنجة أبلغني ان ممثل اسبانيا في لجنة المراقبة الدولية عبر له في جمل صريحة وقوية عن تحفظات اسبانيا حول احتمال وصول ابن عرفة إلى طنجة مادم هذا الأخير لم يتنازل سلفا عن العرش! وأضفت إلى هذا الخبر هذه التعليقات موجها فيها الخطاب الى اعضاء الحكومة « إذا كنت قد فهمت حقيقة التعليمات الحكومية التي أعطيت لي فإنه يبدو لي انه من الضروري المؤكد أن يتنازل ابْن عرفة! وأن يظل محتفظا بامتيازاته... لماذا؟ لأن ابن يوسف — كما — يلوح — لم يتنازل عن امتيازاته... ولذلك فليس من الممكن أن نسمح بذهاب ابن عرفة لطنجة دون وفاق الاسبانيين وإلا فإنهم قادرون على اثارة فتن خطيرة تدفع بلجنة المراقبة الدولية الى أن تطالب هي الأخرى بمغادرة عرفة لطنجة وهذا بدون شك سيكون امتهانا لبلادنا! وسنسجل لا محالة هزيمة أخرى على بلادنا بالاضافة الى تلك الاندحارات السابقة...! هذا الى أن الشروط التي يقدمها ابن عرفة لذهابه لا يظهر أنها قد انجزت بتمامها... حقا انه من الممكن أن نستطيع اقناعه بالذهاب رغم الضغط الذي أصبح هدفا له في هذه الأيام الأخيرة ولكن قبل أن نعمل على ذهاب ابن عرفة يجب أن نتحقق من أننا على نفس الخط الذي وضعناه لسلوك سياستنا القابلة... ان ذهاب ابن عرفة وتكوين الهيئات المتوقعة « ويشير بذلك إلى مجلس العرش ومجلس الحكومة » يكون جميع

ذلك كلا لا يتجزأ . فيجب اذن أن يتكون مجلس حفظة العرش ويجب أن نكون على اتفاق مع الوطنيين فيما يتعلق بتأليف الحكومة المقبلة ... إن مجلس العرش يجب أن يشتمل على الصدر الأعظم وعلى السيد البكاي وعلى شخص ثالث ينتمي للتقليدين ... واقترح عليكم — مازال دولاتور يخاطب الحكومة — اسم الباشا المدني ... وبناء على التعليمات التي تلقيت منكم عند ذهابي فإن الحكومة ينبغي أن تشتمل في أغلبيتها على هؤلاء التقليديين ولذلك فيجب أن تكون على الشكل التالي :

عضوان من حزب الاستقلال
عضوان من حزب الشورى
عضو من المستقلين

سبعة أعضاء من التقليديين

وان هذا التركيب وحده هو الذي يمكننا من تحقيق التوازن المنشود وبدون هذا فإنه لا يمكن بحال أن نصمد أمام عواصف حزب الاستقلال (!) وإني لاعتمد على هذه النقطة التي أرى فيها تنفيذا أمينا ودقيقا للتعليمات التي اعطيتموني ....

وما يزال دولاتور موليا وجهه شطر باريز ليؤكد للحكومة عن نواياه : « أعيد وأكرر بأنه من المؤكد ان نحصل على وفاق الوطنيين حول التركيب العددي للحكومة وكل هذا يجب أن يتم قبل ذهاب ابن عرفة وبدون هذا . فإننا سنسلم في رهن تحت أيدينا في مقابلة لا شئ ! وختم دولاتور هذا الحديث الهام بأن لفت نظر الحكومة الى أنه سيبذل قصارى جهده لتطمين أصدقائه من المغاربة وانه سوف لا يربط صلة بينه وبين الوطنيين ماداموا جميعا في فرنسا على مقربة من مكاتب الوزراء ! »

وهكذا كانت أهدافي تتلخص في النقط التالية :

تهيئ الرأي العام الفرنسي للقرارات المحتملة ، تطمين أصدقائنا من

المغاربة تنفيذ نص التعليمات الحكومية بدون أن أغفل كذلك (الروح) التي ترمي التعليمات اليها بيد أنه في الوقت الذي كنت فيه كثير التمسك بهذه التعليمات كنت' لا أدري شيئا عن التنازل الذي تم الاستسلام له في انتسيرابي !

حديث ثالث مع عرفة

واتصلت — يقول الجنرال — مرة أخرى بعرفة وأكد لي هذه المرة أيضا بأنه لا يرغب في البقاء بالرباط جالسا على العرش وأنه قد بوشرت جميع الاستعدادات لذهابه ولكنه طلب الي مرة أخرى أن أطلب من رئيس الجمهورية الفرنسية أن يبعث له برسالة يؤكد له فيها بأن رجوع محمد ابن يوسف للعرش لا يمكن أن يكون ! كما يعطي رئيس الجمهورية في هذه الرسالة الضمانة لأصدقاء عرفة بأنهم لا يظلمون ولا يمتهنون عند ذهابه من المغرب ! وبالفعل فقد كتب رئيس الجمهورية هذه الرسالة في هذا الموضوع وسلمتها بدوري للعاهل في نفس اليوم الذي ولى وجهه شطر طنجة ..

حديث مع الكلاوي

وكانت لي محادثة أخرى أيضا مع الباشا الكلاوي ... فلقد تناول معي طعام الغداء في الاقامة العامة ، وهناك فسرت كيف أنه سيكون من المستحيل علينا أن نتمسك بالفكرة التي ترمي الى بقاء عرفة على العرش نظرا لكونه لا يحظى برضى الشعب عنه ... وأفهمته أن الشخص الثالث الذي سيكون علينا ان نعينه لشغل وظيفته عضو في مجلس حفظة العرش ، سيكون ممثلا في الحقيقة لوجهة النظر الكلاوية ويمكن أن يكون هو باشا أكادير السي المدني .

وهنا توجه الى الحاج التهامي الكلاوي وخاطبني قائلا : انني سأبقى خصما عنيدا لذهاب عرفة ، إنكم سوف لا تستطيعون أن تحولوا دون

رجوع سيدي محمد بن يوسف ! انني أخدم من أجل بلادكم فرنسا وكذلك من أجل بلادي أنا ... ولو أنكم سلكتم طريقا غير هذا الطريق لكان خروجكم من المغرب أمرا لامندوحة عنه ! ! ...

وعندما شارفنا انهاء الحديث لان جانبه وخاطبني بهذه العبارات : « ما أزال أذكر أنني خصم لذهاب ابن عرفة وما أزال أعتبر أن مجلس حفظة العرش يتنافى تمام المنافاة مع التقاليد المغربية ، ولكن ... ولكن إذا ماكان المدني سيكون أحد أعضاء مجلس التاج وإذا ما كانت الحكومة المقبلة ستتألف أغلبيتها من أصدقائنا الذين هم بدون شك أصدقاء لكم فإنه سيكون من الممكن أن يجد المرء حلا موقتا ... بيد أنه يجب إثر ذلك أن يتفق سائر الناس على تعيين شخص ثالث ... ليس عرفة وليس ابن يوسف !

وعندما أراد أن يودعني قال لي وهو يبتسم : يمكن أن نجد في هذا حلا للمشكل ، ولكني لا أخفي عليكم أنه من الآن لا ينبغي أن تعتمدوا علي للأخذ بيدكم فلقد أقسمت يمين الاخلاص مع سائر القواد الى مولاي عرفة وسأظل — يقول الكلاوي — وفيا لهذا اليمين »

مع عرفة مرة رابعة

كان علي أن أسافر لباريز في السابع عشر من سبتمبر فقصدت كما تقتضي ذلك العادة — القصر الملكي لأزور ابن عرفة ... وحدث ما لم يكن في الحساب : لقد لاحظت حضور سائر الوزراء الذين كانوا ما يزالون يتقلدون مهام وظيفتهم وكذلك حضور الكلاوي الى جانبهم لقد كان من المعهود أن يقتبلني ابن عرفة وحده لكي يتمكن من التكلم معي بكل حرية ... فأي شيء جرى ؟.. بعد تبادل بعض العبارات الودية توجهت إلى « الجلالة الشريفة »

تقول : انه بعد أن فكرت وقدَّرت على إثر المقابلة الثالثة قررتُ أي الجلالة الشريفة أن تظل سلطانة على العرش ! وخاطبني قائلا : « فاقترحوا على اصلاحات ترونها ، أكن لكم من الموافقين ! »

فخرجت وأنا مقتنع كل الاقتناع بأن عرفة لا يحمل هذه الفكرة ... ولكنه لقنها تلقينا من قبل الحجوي وباشا مراكش ... إنكم تعرفون باشا مراكش ، فمن هو الحجوي ؟ ويأخذ دولاتور في التعريف بهذه الشخصية الغريبة المديرة للتشريفات حاذقة « شجاعة » لكنه « طماع » يحسن التكلم بلغة قوم الجنرال دولاتور .. ومتأثر جدا بالأفكار الغربيةوبما أنه كان كثير الأصدقاء الفرنسيين ، فقد كان بحق روح المقاومة ضد ذهاب عرفة ... لقد كنت أفكّر في أغلب الأحيان في أنه ربما كان من الواجب على من تقدمني أن يقترحوا اسم الحجوي على عرفة كصدر أعظم ! إنه لو كان تم ذلك لكنا نرَى المغرب اليوم على غير هده الحالة ، ولما وقعنا بكل تأكيد في هذا المأزق الحرج الذي فقدنا معه كل طريق لمنفذ مشرف لبلادنا .

ونترك هنا دولاتور عاضا على أنامله لكي نلتقي في باريز ..

— 7 —

... وطار دولاتور إلى باريز في الثامن عشر من سبتمبر.. لقد وجد في انتظاره مبعوثا من لدن الحكومة. وحوالي الساعة الحادية عشرة وَصَل لشارع ليل حيث مقر وزارة الشؤون المغربية والتونسية ... وجدت هناك السيد البكاي والفاطمي ابن سليمان ... لقد كانا متأكدين من نجاح العمل ! فعندما جاهرتهما بأنه من المعقول أن نفكر في ايجاد شخص ثالث في مجلس العرش يمثل وجهة النظر التقليدية صرخا معترضين ... فماذا قالا ؟« إن المغرب له كامل الحق في أن يختار عاهله كما يجب ! وان هذا شيء لا يعني فرنسا ! إن عرفة مغتصب .... إننا لا نقبل بأي ثمن أن يكون من بين أعضاء مجلس العرش أحد من أولئك الذين كانوا بالأمس القريب عونا على خلع مليكنا » ! فأجبتهم بأنه مادام الأمر هكذا فسيكون اذن من الصعب جدا أن نتفاهم.

وعند الخروج صرح لي المسيو جيلي بأنه أعطى موعدا في الساعة الرابعة لاعضاء حزب الاستقلال وحزب الشورى ... وإن علينا أن نتراءى جميعا ... فلم أتمالك دون أن أصرخ قائلا : « ان من رأيي أن نجتمع بهؤلاء مفترقين ، فإنهم متى اجتمعوا قاموا بمزاد علني فيما بينهم ! ولكن هل أعار الوزير انتباها لهذه الملاحظات لقد ذكر لى أن الأمر ليس من الأهمية بمكان ! !

ومن هنا أخذت في الحذر ! صوت البكاي المتعاظم ! وسكوت الوزير ! كل ذلك يوحي على ما يظهر بأن هناك اتفاقاً في حكم الواقع يبرم وراء ظهري ، وبدون اخطارى ! « عرفة ببذلة عسكرية ! »

لقد مرت مقابلة الظهر دون أن نحصل على نتيجة ... ولكنها على كل حال فتحت عيوني ...فبعد عبارات ودية تبادلتها مع الوطنيين اقترحت عليهم جميعا باشا أكادير ! ولكنهم صاحوا هم الآخرين : « إن هذه المسألة سويت في محادثات جرت في « ايكس ليبان » وفي باريز ... ولقد قبلنا بصعوبة وجود المقري في مجلس حفظة العرش ولكن على شرط أن يكون العضوان الآخران هما السيد البكاي والفقيه ابن خضراء » .

فعبرت عن احتجاجاتي ... قلت لهم : « إن هذا يخالف التعليمات الحكومية ... وان هذا التركيب الذي تذكرون تركيب يثير الضحك ! أليس أن المقري رجل يتجاوز المائة سنة ؟ أليس ابن خضراء هو الآخر له من العمر ثمانون سنة ؟ لم يبق إذن الا البكاي ممثل محمد الخامس ... » ولم يتنازل أحد منهم قيد أنملة عن وجهة نظره فالتفت نحو الوزير الفرنسي أسأله : « هل إن التأكيدات التي أدلت بها الهيئات السياسية حقيقة ؟» وشعر بشيء من المضايقة ولكنه أجاب بأنه كانت هناك محادثات غير رسمية ولكن الحكومة غير مقيدة بشيء وان المجلس الوزاري هو وحده الذي يمكن أن يبت في المسألة .. وهنا اقترحت تبديل نص الحل : « فلا تمسك بالسيد البكاي ولا بباشا أكادير ... وعلينا أن نبحث عن الحصول على اتفاق حول شخصين آخرين تتوفر فيهما صفة الحياد التام فهذان هما اللذان سيكونان مع الوزير المقري مجلس حفظة العرش ...»

وهنا تعالت صيحات الاحتجاج من لدن رجال حزب الاستقلال لقد قالوا في جملة ما قالوا : إنهم خدعوا ! وان الوزراء الفرنسيين قطعوا على أنفسهم وعدا في الموضوع وأضافوا الى هذا أنهم لا يستطيعون من الآن الاعتماد على الوزراء الفرنسيين الخ الخ . ويذكر دولاتور في هامش الكتاب أن أحد المغاربة من الذين يشغلون اليوم منصبا هاما في الحكومة كان يقول لأحد مستمعيه في معرض الحديث عن بلادنا « أن في الاستطاعة أن نطالب بكل شيء فإن القوم يتخبطون في انكسار تام »!

أما أعضاء حزب الشوري فلم ينبسوا ببنت شفة بل ان أحد الأعضاء في الحزب منهم مال الى جهتي يذكر لي بأنه من جهته لا يرى أي ضرر في اقصاء البكاي عن مجلس حفظة العرش ...

وافترقنا ... ولا أخفي أنني لم أكن راضيا بحال ولقد صارحت الوزير بهذا اذ كيف يعقل أن يبعث بمقيم عام صحبة تعليمات معينة مؤرخة بثلاثين أوت ثم .. ثم وراء ظهر هذا المقيم تفتح أحاديث مع المغاربة تناقض تمام التناقض سائر ما كان متوقعا ! لقد كان هذا في نظري شيئا غير مقبول ... فماذا أجابني الوزير؟ إنه قال : « لم يقع تغيير في أي شيئ » فأجبته « وما دام الأمر كما تقول فلنجمع الوطنيين من جديد ولنجاهرهم بأن المقترحات التي حضرناها لا يمكن إلا أن يؤخذ بها أو تترك ... فإذا ما رفضوها كانت لنا نحن الحرية في العمل » ولكن الوزير رد قائلا . إنه لا يفكر في الوقت الراهن في مقاطعة الوطنيين » فكان جوابي « إن كل شيئ يبعث على الاعتقاد بأنه لا يمكن أن تكون هناك مقاطعة على أنه في كل الأحوال يجب على المرء أن يخاطر والا فإن تخوف الإنسان من المخاطرات يجعله يخسر كل شيئ » !

وعند دخولي الى مكتب المغرب بباريز كنت أقدر المصاعب التي تعترضني وأنا أعمل على انجاح مشروع معقول ليطبق في المغرب . إن « السلطان » عرفة صرح لي بأنه لا يرغب بحال في الانصراف ، وأن التعليمات التي تسلمها من لدن الحكومة منذ خمسة عشر يوما لم تصبح هي الأخرى قابلة للتطبيق ! لقد كانت باريز تعتمد على شيئ واحد « لا قطع للمحادثات ولابد من الوصول الى اتفاق مهما كلف الأمر ومهما تكن النتائج ».

إن هناك تنازلات وقع الاذعان اليها ... وإن المقيم العام يكون آخر شخص يصله الخبر عنها !! .

ولقد ناصرني في شعوري هذا أعضاء حزب الشوري في حديث طويل كان لي معهم ، نعم أكدوا لي بأنهم شخصيا لا يرون اي ضرر في قبول وجهة نظري ولقد كان الشخص الذي وقع عليه الاتفاق حقا هو الفقيه ابن خضراء

لقد أوغرت الحوادث صدري غيظا فذهبت لمقابلة رئيس مجلس الوزراء لأعبّر له عن عدم رضاي في عبارات قوية وصريحة ... فماذا كان ؟ انه استدعى الجنرال المغربي السيد الكتاني الموجود في ألمانيا ليطلب اليه أن يكون عضواً في مجلس حفظة العرش لقد عرفت الكتاني منذ عشرين سنة ... وهكذا فلقد قلت للرئيس انه إذا ما تم قبول الكتاني للمأمورية فسنرى الكلاوي من جديد لنحيطه علما بالمسألة ... حقيقة أنه علاج ممكن القبول ... !

لقد وصل الكتاني في نفس اليوم ... ووصل اليوم بالذات الجنرال نوكيس ... ولقد أثرت معه حديث وجودي بباريز . وذكرت له أن الأمر يتعلق باقناع الجنرال الكتاني الذي كان ياوره الخاص طيلة سنوات عديدة ورجوت منه أن يعمل على قبول الكتاني للمهمة التي تسند اليه وكان ان اتصلت بالكتاني ... تحدثنا طويلا ... وفي عدة مناسبات ... فماذا كان رأيه ؟ إنه رفض ! فلقد قال « إن هذه الوظيفة لا تصلح لي ولا أصلح لها » ! وأضاف يقول : « إني لا أريد أن أخون أحدا ».. وحاول رئيس الوزارة نفسه اقناع الكتاني فلم يفلح وأخيرا صحبته الى رئيس الجمهورية عساه يعدل عن قراره ولكن شيئا من هذا لم يكن لقد ظل رافضا للمشروع .

وهناك في قصر ماسينيون أوضحت موقفي فإني كنت أعتقد أن تغيير التعليمات من شأنه أن يغير وجه المشكلة كله وكنت أرى أن ذهاب ابن عرفة دون أن يتأسس مجلس قوي للعرش ودون أن تؤلف حكومة لا يفيدنا

في شيئ ... وإن الهدوء المنشود لا يمكن أن يستمر طويلا بالمغرب نعم قلت لهم في صراحة « إن الحالة بتونس هي غيرها بالمغرب ذلك لأنه توجد في المغرب « ثلاثة » أحزاب على أقل تقدير فعندكم حزب الاستقلال وحزب الشوري وحزب التقليديين ... ومن جهة أخرى فإننا في المغرب لسنا وحدنا : فهناك المنطقة الاسبانية والمنطقة الدولية بطنجة .. وأخيرا فإننا مرتبطون بعقد الجزيرة الخضراء من حيث وجهة النظر الجمركية ... فإن مس بند واحد من بنود معاهدة فاس فإن المعاهدات الأخرى ستنهار لا محالة . وانكم ستسيرون بدون شك نحو مؤتمر دولي ... إنكم سوف تخسرون المغرب .. فالواجب يفرض أن لا نذعن أبدا . ينبغي أن نعمل على تحقيق بعض المشاريع المعقولة في وقت واحد دون تغريف : هاك بهاك ! ثلاثة أشياء دفعة واحدة : ذهاب الرجل الى حال سبيله . مجلس العرش الحكومة ... وينبغي التنبيه أيضا الى أنه من المؤكد أن لا نهمل أصدقاءنا التقليديين الذين يجب أن يشاركوا بدورهم في الدواوين الحكومية »

وهنا تدخل المسيو روبير شومان ...

— 8 —

...وتدخل مسيو روبير شومان في الحديث قائلا : « نعم ولكن ذهاب عرفة يجب أن يؤتي أكله ، أعني يجب أن يكون عاملا على ايقاف تيار الارهاب .. فليس لنا الحق في ان نساعد على اراقة الدماء دون جدوى .»

فكان جوابي : « إن ذهاب عرفة سوف لا يوقف أي تيار للعنف » ولكن روبير شومان رد علي قائلا : « وعلى كل حال فسيكون ضميرنا مرتاحا ، وسيكون الحق في جانبنا » فعقبت عليه متسائلا : « والمغرب الذي سيضيع من أيدينا ؟»

وهنا أخذ بعض ذوي النيات السيئة يتكلم عن التمرد : تمرد الجنرال ... وهكذا فإن بيير هنري تيتجن بصفة خاصة ... بملامحه الوضّاءة ومحياه الأجرد أخذ يعرض ولم يكن لين الجانب فإنه صرح لمن كان يصيخ اليه اسماعه : إنه لو أتيحت له الفرصة هو لعرف كيف يجعل من الجنرالات أدوات طائعة !»

إن هذا الشخص لم يصل معي أبدا الى إدراك أن تعيين الشخص الثالث من قبلنا ستكون له نتائج حميدة ومزدوجة .. فهو من جهة يقنع المغاربة بأننا نتوفر على نية حسنة تهدف الى تسوية المشكل بفكرة تحريرية دون أن نفرض حلا من الحلول ، ومن جهة أخرى فإن ذلك على العكس يعطي للمغاربة الدليل على أننا لسنا ضعفاء وأننا ما نزال أقوياء » إن كل شيء يتوقف على الشخصية التي سيقع تعيينها فإننا إذا ما تنازلنا في هذه المرة حول هذه النقطة فإن العاصفة ستجرفنا معها ..!

ألم يقل بيير هنري تيتجن للكمندان (بي) الذي زار باريس بعد ذلك : قل للجنرال دولاتور إن اسم الشخصية الثالثة في مجلس العرش لا يكتسي أهمية وإن علينا أن نحل المشكل المغربي وكل شيئ سيسوى بعد .. وإنني اتصلت برجال حزب الاستقلال وانهم لا يرغبون الا في المفاهمة معنا ؟

وأقبل اليوم العشرون من شهر سبتمبر فماذا حمل معه ؟

إن بيرجيلي سلم الي توجيهات جديدة ! توجيهات كانت تخالف في كثير من النقط تلك التي تلقيتها منه في المرة الأولى ! لقد أصبح الأمر لا يتعلق اليوم بالبحث عن ايجاد عضو في مجلس العرش يمثل وجهة النظر الكلاوية بل على العكس من ذلك فإن هناك تفصيلا مدققا يحدد بالضبط التصريح الذي كان على الوزير المقري أن يدلى به ليعلن عن تأسيس مجلس العرش

لقد مكنوني من لائحة تحتوي على ستة أسماء لاختار من بينها شخصية العضو الثالث ! ولقد أعدت هذه اللائحة في سرعة ! وعلى إثر محادثات جرت في الكواليس على سبيل الصدفة حشر أفرادها في القائمة ! لقد كان اسم ياوري الخاص في جملة من سطروا عليها ! حقيقة أن المرء لا يستطيع أن يتصور خفة وطيشا كهذا ! .. وهنا لم أخف عنهم بأنني ازاء أحوال كهذه فإني لا أرغب في أن أبقى مقيما عاما ! وانني أرجو أن يوجد لي خلف ! وأضاف دولاتور الى هذا قوله : « وسوف لا أعود الى المغرب » !

وفي المساء استدعاني رئيس مجلس الوزراء إلى تناول طعام العشاء معه في قصر ماسينيون صحبة مسيو اميل روش رئيس المجلس الاقتصادي وم جيلي وم ديشي وم أريسو ... لقد كان عشاء مضطربا ! ... ففي الحقيقة لم أكن لاميل الى أن أصحح قرارات يظهر لي أنها تخفي وراءها بعض الأسرار !

ويرجع دولاتور الى ترديد فكاهة كانت بالأمس مثار ضحك أفراد

حاشيته ، إنه عند خروجه من قصر ماسينيون همس في اذن أعوانه يقول لهم وقد أثارت انتباهه سذاجة الحرس المرابط على الأبواب : « **لا يوجد في هذا القصر من هو جدير بقول الصدق إلا هذا الحرس الجمهوري الذي ترون** » !

لقد كانت المذاكرات حول المائدة في بعض الأحيان محمومة هائجة ! لقد ذكروا لي « أنني سأكون مسؤولا عن الدماء المهراقة اذا لم اعمل على اقصاء ابن عرفة . ولم أعمل على تأسيس مجلس حفظة العرش (هذا المجلس الذي كنت أعتبره في شكله الحالي كارثة بالنسبة لبلادي).. نعم هكذا قالوا ، وقد توجهت الى رئيس مجلس الوزراء قائلا :

« سيدي الرئيس أعتقد أن هده القضية ستنتهي في المحكمة العليا » !

ولقد كنت أعني بهذا أنه سيأتي يوم من الأيام نرى فيه رجالا للحكم ينتسبون لفرنسا الماثلة للشفاء ويشعرون اذ ذاك بما يمليه الضمير نحوها ... فيقومون فينا ، ليناقشونا الحساب !...

حقا لقد سرت في القاعة على اثر الكلمة التي وجهتها للرئيس موجة من البرد القارس ! واتجهنا بعد الى الغرفة المجاورة لتناول كؤوس البن ، حقيقة لقد تلاشيت تماما بين الأمواج التي كانت تتجاذبني وأنا أفكر في المصير !

إنني بحق أدافع عن بلادي ، وإلى جانب هذا كنت متأكدا من أنني أخدم كذلك مصلحة المغرب ... فقد كنت أريد أن أبعده عن شبح الفوضى الذي يهدده

لقد كنت أشعر بخيبة أمل عندما أرى أن تجاربي في افريقيا الشمالية أمست تافهة الجدوى !... بيد أن سائر البراهين التي كنت أجابه بها الأفكار الخاطئة والمعلومات المزيفة كانت لا تثير انتباه المسؤولين فالاحرى أن يأخذوا بها !

لقد كان حكمهم علي يتخلص في هذه العبارة « انني لا أعدو أن أكون عسكريا رجعيا متحجر الأفكار » مع أني على العكس من ذلك (!) فإنني كنت قبل هؤلاء السياسيين الذين يوجدون اليوم معي على الطاولة كنت أدافع عن الأفكار التحريرية .. ولكن من كان يعيرني انتباهه على ذلك العهد ؟ الواقع أنهم كانوا لا يستمعون إلي ! فمن بين هؤلاء المستدعين اليوم لتناول طعام العشاء يوجد رجل واحد فقط كانت له خبرة بالمغرب وله علاقات مباشرة مع المغاربة ، ذلك هو الرئيس للمجلس الاقتصادي أميل روش .

لقد عاضدني في أفكاري بقوة وعن اقتناع بصوابها .. لقد شد أزري حقا لكن ... لكن الحصار كان قد ضرب علينا ! وكنت أشعر أن المغرب قد ضاع منا بكل تأكيد . ويستمر الجنرال دولاتور في تذكر بعض ماراج في هذا العشاء الذي كان بالنسبة اليه عشاء غير شهي ! لقد قال لي رئيس المجلس الوزاري :

« إن الذي يهم قبل كل شيئ هو ذهاب ابن عرفة ! فإنه اذا لم يتم ذلك في الأيام القريبة الآتية فإن الرأي العام وكذلك البرلمان قد لا يفهم معني لذلك . فلتعملوا اذن على اقصائه .. وفيما يتعلق بمجلس حفظة العرش فإذا كنتم ترون أنه ليس من المناسب أن يتكون في الظروف الراهنة على نفس الشكل الذي تحت أنظارنا الآن فاطلب من السلطان عرفة أن يسلم طابعه الى الوزير الكبير

ظهر لي عندئذ أن الفكرة تبعث على الارتياح فلعلها تمكنني من فتح أبواب الحديث من جديد مع الوطنيين للوصول الى حلول مقبولة الأمر الذي جعلني أجيب رئيس مجلس الوزراء : « نعم ، ولكن على شرط أنكم لا تسمحون ببقاء الوطنيين هنا في باريز بين المكاتب الوزارية .. أغلقوا الأبواب في وجوههم ! وأبلغوهم أنه ليس في الامكان أن يحصلوا على

حل من الحلول هنا في باريز ولكن في الرباط ! ارغموهم على دخول المغرب ! »

فأجابني الرئيس قائلا : « إني متفق معكم .. وسنبت جميعا معكم فيما ينبغي أن نعمل لكي تكون وحدك الشخص الذي يقوم بدور المحاور مادامت هذه الأزمة لم تجد حلا ... نعم وسأنيط بك أعباء القضية » !

وأعترف — يقول الجنرال — بأنني ارتكبت خطأ باعتقادي أن الأمور ستجرى على النحو الذي قرر ! ورجعت من الغد الى الرباط ولقد كان على مسيو اميل روش هو الآخر أن يغادر باريز الى المغرب .. لقد طلب اليه رئيس المجلس الوزاري ان يأخذ بيدي في المهمة الصعبة التي أنيطت بي ... وحيث أنني كنت أعتقد أن له تأثيرا على الأوساط سواء منها المغربية أو الفرنسية فقد قبلت مساعدته مع اعترافي بالجميل ..

وجاء اليوم الواحد والعشرين فوجدني مساؤه في الرباط فكان أول ما فكرت في القيام به مقابلة ابن عرفة .. وفعلا فلقد قصدت القصر الملكي من الغد أي في الثاني والعشرين من سبتمبر. ولنترك الجنرال في طريقه الى المشور الذي كان غير سعيد اذ ذاك !

— 9 —

... وفي اليوم الثاني والعشرين من سبتمبر قصدت القصر الملكي لزيارة (جلالة) ابن عرفة .

المقابلة الخامسة

واقتبلني هذه المرة وحيدا .. وكالعادة فلقد أكد لي مرة أخرى عن رغبته التي كان أعرب لي عنها قبل ذهابي الى باريز : انه لا يرغب في مغادرة العرش المغربي ! ولقد أفهمت (العاهل) بأن هذه الرغبة الجديدة تتناقض تمام التناقض مع الرغبة التي كان هو أبداها لي في مناسبتين مختلفتين ... وقلت له : « لقد قمنا بتسوية سائر الاستعدادات المادية التي تتعلق بذهابكم ! وذلك اعتمادا منا على تعهدكم السابق » فماذا كان جوابه ؟ لقد أجابني وهو يشعر بشيء من المضايقة : انه يعترف حقا بما كان بدر منه حول الموضوع بيد أنه اليوم يسحب تلك النية التي كان عبر عنها !

غادرت القصر وأنا أقصى ما أكون ارتباكا وحيرة ! انها عرقلة أخرى تقف في الطريق ! حقيقة كنت على علم تام من أنها ليست فكرته الحقيقية ، فإنه إنما كان يرغب في أن يتخلص من هذا العبء الثقيل الذي يضنيه ... لكنه الكلاوي والحجوي ! وأشخاص آخرون ينتمون لمنظمة « الوجود الفرنسي » كانوا على اتصال مستمر بالحجوي الذي كان يتجاذب معهم أطراف الحديث عن العلاقات الودية . لقد كانت نواياهم طيبة بيد أن الهدف الذي يرومونه كان عسير المنال ... لماذا ؟ انني كما اسلفت لكم قبل هذا اعتقد أن التمسك بعرفة على العرش كان أمرا غير ممكن ...

ولقد وجد هذا الموقف من عرفة أنصارا من بعض البرلمانيين الذين وردوا في مهمة للمغرب نعم ولقد كانت سرائر هؤلاء حسنة كدلك لكنه كان عليهم أن يتحركوا في باريز لا في المغرب فإن من باريز أتي كل البلاء !

وفي هذا اليوم بالذات في أثناء تناولي لطعام الغداء صحبة بيير ليوطي في قصر الاقامة ساررت هذا الزميل بما يخامرني من الكرب والغم ازاء سوء فهم الحكومة الفرنسية للحقائق المغربية . ولم أخف كذلك ما يساورني من قلق نحو مستقبل هذه البلاد .. ولقد كان معاضدا لي تمام المعاضدة في وجهة نظري ...

إنني منذ رجوعي الى الرباط أصبحت هدفا للمضايقات ... فهذا جرس التيلفون يدق ، وهذه تلغرافات تتوالى ... والكل يطلب ويلح في الطلب : « يجب أن يقصي عرفة بدون تأخير وعلى العكس من هذا فإنه يبدو أن هناك عضوا من الاعضاء في الهيئات الوطنية ينوى الدخول إلى المملكة الشريفة أما عن وعود رئيس الوزارة التي كان قطعها لي ، فإنها على ما يلوح ذهبت ادراج الرياح !!

وفي اليوم الثالث والعشرين من سبتمبر أحاطني بيير جيلي علما بأن « الحكومة الفرنسية أزمعت على أن تؤلف مجلس العرش ولو أن (العاهل) لا يخضع للانسحاب ! وأنه بهذه الوسيلة سيجرد من نفوذه بالقوة ! »

وفي هذا الوقت بالذات كان يشاع في فرنسا أن ذهابه لا يمكن أن يتم الا عن طريق الطواعية والاختيار وفي حال لا يتعرض فيها (الشريف) لاهانة !

وهكذا كانت هناك لغتان : لغة تستخدم في باريز ولغة تروج هنا في المغرب !

أمثال عدّي وبيهي كثيرون في فرنسا

حقا لم أكن مطمئنا الى بنود هذه الصيغة الجديدة التي أبلغني اياها جيلي إذ ما معنى « الحكومة الفرنسية أزمعت ! » ؟ انني كنت أعلم أن كـ من أعضاء هذه الحكومة لم يقبل ذلك القرار الذي أبلغته أنا ! أفتعلـ ماذا تلقي الكمندان « بي » من الوزير (بناي) عندما أرسلته الى باريز مهمة ؟ إن بناي أكد له بأنه يرغب في أن يتم ذهاب عرفة عن طر الاختيار ! وأنه من جهة أخرى أشعر الكومندان « بي » بأن علي أن أتمسـ بفكرتي رغم سائر العواصف والتيارات وذلك فيما يتعلق بترشيحي لا المدني في مجلس العرش .. وهل اكتفى بناي بهذا ؟ إنه أضاف الى ذ يقول : « لا ينبغي بحال أن يخضع المقيم العام حول هذه النقطة و كلامه بهده العبارة « إنني قليل الثقة في حزم بيبرجيلي » ! هذا إلى أ أعرف أن الجنرال كونيك وأصدقاءه لا يؤيدون السياسة الحالية لرئيـ مجلس الوزراء ... وليس أدل على ذلك من أن الجنرال المذكور أعلن ذلك في غير ما مواربة !

لهذا كله ... فقد أجبت عن المكالمة التلفونية التي حدثتكم عنها بأ « إذا ما كنت متفقا مع الحكومة على روح التوجيهات التي أعطيت لي فـ على العكس من ذلك لا يمكنني أن أعمل على اقصاء ابن عرفة إلا كان هو يريد ذلك ... وإلا إذا تحققت بعض الشروط ..

وبعد ظهر الأحد 25 سبتمبر كان توتر الأعصاب قد نال مني مـ فخرجت قليلا الى ميدان السباق انتجاعا للراحة ..! وهناك وجدت بنافيو .. لقد ذكر لى أنه يعرف في طنجة أحد المغاربة ممن يمتون بـ صداقة إلى « السلطان » وزاد قائلا أفتأذنون لي بأن أوعز الى هذا المغـ بزيارة ابن عرفة ليجس النبض ويعرف نواياه الحقيقة ؟ فاتفقنا حول هـ النقطة وانصرفنا على أن يعمل على احضار ذلك (المغربي) من طنجة الرباط).

ثم ذهبت للبيضاء لاستقبل أميل روش ولقد كانت لي معه محادثة طويلة ... سواء حيال المغاربة أو الفرنسيين حيث أن له اتصالا بالجميع ...

وخلال اليومين 27 و 28 من سبتمبر قمت بزيارة لفاس ومكناس ومراكش اتصلت في أثنائها بكثير من الرؤساء المغاربة وجلهم ان لم أقل كلهم أكدوا لي أنهم ما انفكوا مخلصين لمولاهم ابن عرفة ! وكان جانب مهم منهم يضيف إلى هذا : أنه يفهم جيد العلم خبر ابعاد عرفة نظراً لامتعاض الشعب منه ... ذلك الامتعاض الذي نما بصفة خاصة في بحر الشهور الأخيرة الماضية. ولم يتخذ ولو واحد منهم موقفا مشجعا حول ما نريد أن نقوم به من إنشاء مجلس للعرش ! لقد كانوا يرون أنه إذا كان من المقرر ذهاب ابن عرفة فإنه سيكون من المؤكد أن يباشر في أقرب وقت ممكن تنصيب عاهل آخر لا يكون بحال ابن يوسف. ولا كذلك ابن عرفة ... ويقول دولاتور : « والحق يقال أن هذا حل جدير بأن يحظى بالاعتبار ما في ذلك شك لولا أنه لم يصطدم بعقبة كؤود أصبح تنفيذه معها من قبيل المستحيلات ، فما هي تلك العقبة ؟ لقد كان علينا قبل كل شئ أن ننتزع من ابن يوسف تنازله عن العرش ولكن هل هناك أمل في ذلك بعد السفر الذي تم أخيرا إلى انتسرابي ؟؟..

وفي أثناء المحادثات التي جرت بيني وبين الزائرين ... قال لي قائد من أصدقائي الذين قاتلوا معي جنبا لجنب في حروب الريف سنة 1925 ... وكان هذا الصديق هو القائد الفشتالي... قال القائد للجنرال : « ان فرنسا ستخون ذمتنا ! وسنؤدي ثمن خذلانها لنا غاليا من دمائنا ! » قال الجنرال : « وما نسيت لا أنس هذه الكلمات ، نعم ستظل ماثلة أمامي الى الأبد لأن هذا القائد التعس الحظ ، سقط ميتا تحت وابل من اللكم والضرب في ساحة المشور عندما ذهب للسلام على محمد بن يوسف اثر رجوعه من منفاه في وقت واحد مع خليفة باشا فاس البغدادي الذي لقي حتفه هناك متأثرا بالنيران التي شبت فيه وهو حي ينظر بعينيه. وفي

مراكش كان منطق الكلاوي يضرب كذلك على نفس النغمات التي سمعتها منه منذ أيام قلائل لقد أقسم « يمين الاخلاص » ، لابن عرفة ، ولن يستطيع بحال أن يتلاعب بهذه « اليمين »... نعم ما زال الكلاوي يقول : إذا ما احتل أصدقاؤنا التقليديون أغلب المقاعد في مجلس الحكومة وفي مجلس العرش فمن المحتمل أن نصل الى حل للمشكل.

وفي الرباط نفسه تمت لي عدة استقبالات مع مختلف الممثلين للسكان الفرنسيين : لقد اتصلت بأعضاء منتخبين من مختلف المجالس ويعترف الجنرال في الهامش أن هؤلاء لا يمثلون بصدق السكان الفرنسيين حيث إن الانتخابات الأخيرة كانت تمت منذ 1947 ، واتصل الجنرال كذلك بافراد من « هيئة الوجود الفرنسي »، وكذلك بأعضاء من جمعية قدماء المحاربين الخ الخ.

فماذا كانت ارتساماتي من خلال هذه المذاكرات ؟ ان المتحدثين الى اتفقوا على أن لا يتفقوا ! غير أن اغلبيتهم كانت ترجو بقاء السلطان على العرش ! هذا الى أنهم جميعا كانوا مقتنعين بأن ذهاب عرفة سيكون لا محالة عاملا من عوامل رجوع ابن يوسف. وانه متى تم ذلك سيكون الشنار والعار على فرنسا وعلى الفرنسيين !... ولاحظت أنهم على وجه العموم عبروا لي عن ثقتهم في سلوكي. وانهم يقدرون الظروف القاسية التي كنت أعيشها !

وفي اليوم السابع والعشرين تلقيت تلغرافاً من بيير جيلي .. فهل هناك من جديد ؟

لقد أبلغني جيلي أن أنطوان بناي الذي يوجد في نيويورك على رأس الوفد الفرنسي في هيئة الأمم طلب من رئيس المجلس الوزاري أن ينفذ دون تأخير تصميم الحكومة ... فلقد عدل اذن عن فكرته التي كان طلب إلى أن أتمسّك بها ، والتي تهدف الى السهر على « التوازن » في مجلس العرش ...

ثم ما كانت نتيجة المحاولة التي طلبت من بنافيو القيام بها في طنجة ؟
لقد قام « الصديق المغربي بمهمته ... إن في نية عرفة أن يغادر الرباط حالا وأنه سينوِّب كحارس لخاتمه أحد أبناء عمومته عبد الله نجل السلطان السابق مولاي حفيظ. لكن صباح اليوم الثلاثين فاجأني بنبأ غريب .
ولنترك الجنرال في غمرة فجأته الى الأسبوع المقبل ...

— 10 —

... لكنه في صباح اليوم الثلاثين من سبتمبر بلغني من مصادر موثوق بها أنه في أثناء الليل قام بعض الافراد ممن كنت اعتمد عليهم بمناورات دون اخباري : فهذا ليبكوفسكي الذي رافقني من تونس . والذي كان معززا في هذه المحاولة من قبل بنافيو الوزير المعتمد بالاقامة . قام بضغط على « السلطان » ليبت نهائيا في شأن ذهابه ! اعتمادا منه على معلومات خاطئة لكن هذه المناورة حيال « العاهل » لم يكتب لها أي توفيق ... وهناك شيئ آخر ... ان بنافيو حاصر الحجوي في منزله من طرف ثلة من رجال البوليس ! لكن الحجوي مع ذلك نجح في الأخذ بأذيال الفرار .. ولقد رددت صدى هذه الأخبار الصحف الصادرة على ذلك العهد .

لقد دعوت لمكتبي بنافيو وليبكوفسكي بمجرد ما طرقت سمعي هذه الأنباء . وكذلك دعوت معهما الجنرال لوبلان ... فماذا كان ؟

لقد علمت في هذا الوقت بالذات بأن بنافيو لم ينفك منذ بضعة أيام مرتبطا مباشرة بواسطة التلفون مع حاشية بيرجيلي ! ٠

وهكذا تحت اغراء هذا الوزير وبعض المساعدين له قرر بنافيو — ومن دون أن يخبرني بذلك — أن يحصل هو بنفسه من عرفة على الاذعان للانصراف .. ! دبر هذه الدسائس بمساعدة ليبكو فسكى ، بل واستطاع أن يحصل على شيئ آخر ... ذلك هو استدعاء لوفور رئيس ديواني الى باريز ... وهكذا أرادوا اقصاء مساعدي هو الآخر عن الرباط ريثما تتم العملية المقترحة ... لماذا ؟ لأنه عرف بمساعداته للعملية.

لاأخفيكم أن غضبي كان بالغا نهايته .. حقا إذا ما كنت قد أذنت للوزير المعتمد بنافيو بأن يتصل « بالسلطان » بواسطة صديقه « المغربي » الطنجي ، من أجل الحصول على انصراف اختياري ، أقول إذا ما كنت قد أذنت بذلك فإني الى جانب ذلك قد عبرت عن معاداتي لكل فكرة ترمي الى الضغط كيفما كان نوعه .. على انه لم يكن من الممكن بحال أن أقبل وجود مساعد لي وموظف معي يتلقى من باريز تعليمات ويعمل على تنفيذها دون أن تنال وفاقي أنا ! .. وليس في الإمكان ان أقول أعنف من هذا حول تصرف كهذا.

لقد كنت حليما بعض الشيء حيال ليبكوفسكي .. فإنه كان قدم لي منذ بضعة أيام دراسة مختصرة أبان لي فيها عن فكرته التي تخالف فكرتي .. انه كان يعتقد أن انصراف عرفة نقطة أساسية ، وأن العملية التي اقترح أن تصحب هذا الذهاب « ويشير الجنرال لتأسيس مجلس العرش ومجلس الحكومة » ليست في الاهمية بالمنزلة التي أرى أنا .. ولقد وجد نفسه معززا في هذا الرأي من قبل بنافيو ... وبالتالي من قبل وزيرنا بباريز ! وما من شك في أن هذه الاعتبارات كان لها وزنها الثقيل على ديبلوماسي مبتدئ مثل ليبكو فسكى ! شاب ، طموح الى الترقي كل همه أن يخدم الرجل الذي بيده ترقيته ! إنه كان يفكر في مستقبله ... ولذلك فهو لا يرغب أن يربط مصيره بمصير شخص مثلي يومن بأفكار تنذر بزوال الحضوة ! هذا الى أنني لم أنس أبدا تلك الخدمات التي أسداها لي في كثير من الحنكة والدربة أيام الفترات الصعبة التي كنت أجتازها وأنا بتونس.

وحول مشكلة ذهاب عرفة فإن الجنرال لوبلان كان يشاطرني احساساتي .. انه مثلي أعطى كلمته كجندي شريف بأن عرفة سوف لا ينصرف الا عن طواعية واختيار ... اننا لا ننوى بحال أن ننكث عهودنا !

لقد أصدرت أوامري الى بنافيو وكذا الى ليبوكوفسكي بأن يتركا هذه

القضية جانباً . وأن لا يشتغلا بها بعد ، ثم كلفت في الوقت ذاته الجنرال لوبلان بمحاولة استكشاف نوايا عرفة ... هل حقيقة قرر أن يختفي عن طيب خاطر من الرباط ، وكان أن اتصل هذا الجنرال بذلك « السلطان » ... فماذا كان من عرفة ؟ انه بعد محادثة طويلة عبر عن رغبته في الذهاب ! ولكن على شرط أن يعهد لابن عمه عبد الله بالمحافظة على الطابع ...

اتصلت تلفونيا باميل روش الذي كان ما يزال موجودا في البيضاء ، وطلبت اليه أن يتصل هو بدوره برئيس مجلس الوزراء ليعرف هل إذا ما كان يتفق على هذا الحل الجديد الذي يقصي الفكرة التي تهدف الى تكوين مجلس للعرش وذلك في انتظار أن يحصل الاتفاق على نص آخر .. وما كان من أميل روش الا أن اتصل برئيس مجلس الوزراء وما وسع هذا الأخير إلا أن أعطى وفاقه

وحيث إنه لم يكن في متناولي أن أتصل بادكارفور تلفونيا ، فإني اكتفيت بالاتصال برئيس ديوانه الذي أبلغني أن الرئيس قبل نص الحل الجديد .. ولكنه طلب الي بصفة شخصية عماذا سيكون من أمر مجلس العرش ، فأجبته بأن الحل الحاضر يقضي بأن لا يباشر تأليف مجلس من هذا النوع

طلب الاستقالة مرة أخرى

لكن الامتعاض والتقزز من هذه المناوات .. ومن هذه الحبال المنصوبة لي في غيبة مني ، ومن هذا الضغط الغير المعقول الذي اصبحت حاشيتي هدفا له . أقول كل هذا بالإضافة الى ادراكي لاحوال بعض أعضاء المجلس الوزاري وعلى الأخص رئيس المجلس ، والوزير الذي ربط ركبي بعجلته ... أقول مرة أخرى مراعاة لتلك الاعتبارات التي كان القصد منها القاء الشك في طريقي حتى أستسلم .. إزاء كل ذلك قررت أن أبعث

بتلغراف إلى باريز أضمنه طلب استقالتي ، لكي اتصلت على إثر ذلك بالجواب : « نظرا للظروف والملابسات فإنه سوف لا يقبل طلب الجنرال الاستقالة ، وقررت أن أتمسك بفكرتي وأن أتوجه الى باريز في حال ما إذا أصرت الحكومة على رفض رغبتي ... لكن حوادث خطيرة أرغمتني على تأجيل سفري طيلة أكثر من اسبوعين.

لقد سويت مشكلة ابن عرفة مع الجنرال لوبلان . وعين صباح فاتح اكتوبر وقت لذهابه النهائي

واستقبلت مساء اليوم الثلاثين هيئة من الوجود الفرنسي .. لقد جاءت تعرض على نصا أكدت فيه أن هذه المنظمة تقبل ذهاب عرفة ، ولكنها لا ترى بعين الاعتبار تأسيس مجلس حفظة العرش نعم لا تمانع في تأسيس مجلس للحكومة فقبلت آنذاك ولكن عندما بيَّنت الرأي دعوتهم من الغد لاحيطهم علما بأن هذا الحل سيفتح لنا السبيل لاشياء وأشياء ... وذلك لأن من الممكن أن لا يكون في استطاعة عبد الله مندوب عرفة أن يؤلف حكومة ، وقد يكون مضطرا والحالة هذه الى أن يحكم ولو لمدة — مع الوزراء الاقدمين ولذلك فلعل من المحتم بالنسبة الينا لأجل تأليف حكومة أن نذعن لتأسيس مجلس لحفظة الغرش ، ذلك المجلس الذي سيمكننا تأليفه من ضمانات ليس فيها مواربة ..

اليزيدي يتكلم !

ومنذ سفري الى باريز كنت كما لا يخفي ذلك عليكم التمست من الحكومة في عدة مناسبات أن نعمل على إرجاع الوطنيين الموجودين في باريز ... ولكن رغم الوعود التي قطعت لي ، فإن الوزير لم يرد أو لم يستطع أن يتحرك في هذا المضمار .. لذلك فإن كل محاورة كانت غير ممكنة ولم يرجع الى الرباط منهم سوى اليزيدي الأمين العام بالنيابة لحزب الاستقلال . ولقد دعوته الى مكتبي فحضر ولكنه ذكر لي بأنه سيكون من

العسير عليه أن يتخذ قرارا أو أن يدلى برأي ما حيث أنه لم يخول له هذا الحق من قبل زملائه . ولكن هل وقف اليزيدي عند هذا الحد ؟ انه جاهرني على العكس من ذلك بأن حزب الاستقلال سيسير في طريق الكفاح الى أن يتم رجوع محمد الخامس ، وإلى أن يتم تحقيق الاستقلال التام ..

خلق الفراق من جنة ..!

وبزغت شمس فاتح أكتوبر اليوم المحدد لانصراف عرفة ، وكان ان غادر الرباط في هدوء واحترام ... وكان مما لاحظته أن انتباه الحاضرين كان موجها نحو شخص « العاهل » وهو يمشي .. فكأنما كانوا يختبرونه في استطلاع بالغ ... لقد تقدمت للسلام عليه ..

وقبل أن يمتطي متن الطائرة ذكر لي « السلطان » إنه لأول مرة في حياته يطير ! ثم اختلى بي ليقول لي هذه الكلمات : « أرجوكم أن تسهروا على أصدقائي الذين أتركهم ورائي في هذا المغرب »! وأمكنني — يقول الجنرال — أن ألاحظ في صوت عرفة تأثرا ملحوظاً ... لقد كان يدرك المستقبل المظلم الذين ينتظر أولئك الذين عززوه بالأمس ..!

ولنترك الفرصة للجنرال ليجفف من دموعه فإن الفراق خلق من نار كما يقولون .. وإن كان بالنسبة الينا خلق في هذه المرة من جنة !...وإلى الأسبوع المقبل ..

— 11 —

... وفي ليلة اليوم الثاني من اكتوبر هوجمت بتيزي أوزلي وبوريد المراكز الفرنسية الواقعة على حدود المنطقة الاسبانية ، فمن هاجمها ؟ انها عصابة مغربية وردت من تلك المنطقة فأما ما كان من بوريد حيث مكتب الشؤون الاهلية ، وحيث لا عدة للدفاع فقد سقط في يد المهاجمين ، وأما المركز الثاني فقد قاوم ... هذا إلى أن المرصد الذي يقع في بوزينب في صميم المنطقة الاسبانية والذي يشغله بعض رجال الكوم تحت قيادة ضابط فرنسي مساعد ، أقول إن ذلك المرصد هوجم هو الآخر ليلة اليوم الثالث واستولى عليه أيضا ... ولقد تمكن بعض الرجال وفي صدرهم رئيس المركز من التمسك بأذيال الفرار وهم الذين حكوا قصة هذا الهجوم هذا ومع أن النقط التي هوجمت لا تبعد عن المركز الاسباني الا بمسافة لا تزيد على ميلين ، ولكنه رغم ذلك لم يتدخل الاسبانيون لفائدة مراكزنا ... وهنا أترك للقارئ حرية الاستنتاج ...

وفي نفس الليلة أعني ليلة اليوم الثاني وطيلة اليوم الموالي هوجم كذلك مركز بركين جنوب تازة ، ولكنه استطاع أن يقاوم ريثما تصله النجدات من كرسيف وما كان من المهاجمين الا أن اعتصموا بالفرار..

هذا ولقد هوجم كذلك مركز ايموزار مرموشة في الأطلس المتوسط ، وأن القضية كانت من الخطورة بحيث تفوق ما تقدم فإن رئيس الدائرة الضابط وصله عن طريق أحد المغاربة أن حركة تمرد وشيكة الوقوع حيث أن هناك هيئة مسلحة أجنبية عن المكان تجوب الناحية .. لكن مع الأسف الشديد لم يعر الضابط ذلك أدنى اهتمام لأنه اعتقد أن ذلك يدخل في

نطاق البهتان الذي يروج بين الآونة والأخرى .. وهكذا فلم يتخذ الاحتياطات المهمة وكانت المواد المحدودة التي توجد في المركز تنذر بكارثة !

لقد كانت الحامية هناك تتركب من الفرقة الثانية والعشرين للكوم المغاربة ، أعني مائة وخمسين رجلا بيد أن جميعهم كان أعزل من السلاح ، وكان الضابط قد أمر بأن يحتفظ بسائر الأسلحة والمواد في مستودعها ولم يترك في مركز البوليس الا بعض البنادق ..

ولما هوجم الضابط كان مضطرا للدفاع عن نفسه ، ولكن حاميته لم تكن مركبة الا من اثني عشر رجلا ، هذا الى أن بعضا من المهاجمين نجحوا في التسرب إلى مستودع الذخائر فاقتحموه واستولوا على ما فيه من أسلحة وعتاد ..

وكان يوم الغد موعدا للسوق الاسبوعية التي تعقد عادة هناك ، فورد على السوق كثير من المرموشيين وكان يوجد من بين الذين قصدوا السوق لقضاء مثاربهم فئة تتركب من أربعين شخصا تحمل معها الأسلحة المستولى عليها بالأمس ! وهكذا كنت ترى الحاضرين يتهافتون عن الأسلحة كل يريد أن يأخذ منها بنصيب .. انها أكثر من ثلاثمائة بندقية ، ومدفع من نوع الستين ، وعشرة بنادق رشاشة ، وثمانية وأربعون مسدسا ... كل ذلك قد استولت عليه العصابة ... ومن جهة أخرى فإن المنازل التي يسكنها الضباط الفرنسيون حوصرت وأحرقت ، ثم إن مراقبا مدنيا كان ورد على المكان لقضاء عطلته الأسبوعية لدى بعض أصدقائه الضباط قتل ! وعمد الى سيارة مدنية فنالت حظها من الاتلاف ! هذا الى عشرة مدنيين من بينهم امرأة زوجة لأحد الضباط وطفلان ... كل أولئك لقوا حتفهم ..

وظلت الحامية الى هنا حصنا يلتجئ اليه من خشي على نفسه ورغم أن المركز لا يتوفر الا على بعض البنادق فقد استطاع أن يقاوم وكانت

خسائره تافهة .. وعمدت الممرضة الى اخفاء الطبيب خوفا على حياته من الضياع

جندت سائر الطائرات التي كانت في متناولي ، وبالفعل تدخلت وعملت على انقاذ المركز إلى أن يتم وصول كتيبة من الجنود للنجدة ، وكان أن شتتت جموع المهاجمين ... وكان اول عمل قامت به كتيبة النجدة التي كانت تتركب من فرقة من اللفيف الأجنبي وفرقة من المغاربة ، أنها قامت بعملية تطهير واسعة النطاق في الأماكن المشبوهة ..

وهكذا فمنذ اليوم الأول رجع إلينا نحو أربعين سلاحا ... ولقد أصدرت الأوامر من أجل تكوين عصابات مسلحة أخرى بمساعدة قبائل غير مرموشة لتطارد المهاجمين وكانت النتائج على أحسن ما يرام ولما تمض خمسة عشر يوما ! وأرسلت الى عين المكان بعض الضباط ممن لهم خبرة بالشؤون الأهلية وممن لهم المام بنفوس القبائل ، واستطعنا أن نحصل من المرموشيين على ارجاع الجزء الأوفر من السلاح المغتصب ، وما كان من العصابة التي وردت من ملوية الا أن رجعت الى المنطقة الاسبانية عن طريق وادي الحماية الأخرى حيث تقوى ساعد الآخرين هناك الذين يقوضون جيشنا ويلحقونه أفدح النكبات ..

ولقد أكد البحث أن هذه الهجمات كان مصدرها من المنطقة الاسبانية وذلك بتمالؤ من بعض الشخصيات المحلية ، لقد كانت المسألة عادية فإنه في كل قبيلة مغربية توجد فيها جماعتان إن كانت أحداهما متبوئة مناصب الحكم كان هم الأخرى هو تنحيتها .. وبناء على هذا فإن كل شيئ سيتم على ما يرام ، وهكذا استغلت الاحقاد الخاصة في الميدان العام .

ومن دون شك فإن الأمر يتعلق بعصابة يديرها ميمون وعقا ، وأحمد والحسن المرموشيان اللاجئان الى المنطقة الاسبانية ، اتجهت تلك العصابة نحوا ايموزار مرموشة وقامت بالهجوم المذكور . لقد كان السلاح المستخدم من جانبها من صنع إنجليزي ، بوشر انزاله بشاطئ المنطقة الجارة ...

وفي الوقت الذي كانت فيه هذه الحوادث تجري في ناحية فاس كانت هناك حوادث أقل خطورة ولكنها ذات بال تجري بناحية وجدة : ففي ليلة الثاني من اكتوبر حوصرت جماعة مسلحة من طرف عناصر تابعة لجيشنا قرب « تزايسط » وأرغمتها على ان ترجع الى الحدود ..

وفي ليلة الرابع من أكتوبر هاجمت جماعة مهمة مركز تافوغالت ، ولما حوصرت من قبل فرقة عسكرية اتجهت نحو المنطقة الاسبانية تاركة بين أيدينا قتيلين وجريحا وبندقية رشاشة من صنع انجليزي ومسدسين أتوماتيكي من صنع أمريكي .

وفي ليلة اليوم السابع في قرية سبع حوانيت وردت عصابة على ظهر كاميون حتى وصلت الى الحدود فحوصرت على اثر اجتيازها وادي ملوية فالتجأت الى المنطقة الاسبانية كذلك .

وبمقتضى الاستنطاقات التي كنا نقوم بها للأسرى الذين وقعوا بأيدينا فإن كل هذه الحركات تعد وتهيأ من طرف بعض العناصر المشاغبة الملتجئة في المنطقة المجاورة والحق أن الاسبانيين عمدوا بدورهم الى حماية هؤلاء وإكرام مثواهم وتزويدهم بأوراق تعريف مزورة ... وجعل الأسبانيون على أعينهم عصابة حتى لا تقع أبصارهم على مهرب الأسلحة ! ومن دون ما ان يتدخلوا تركوا هذا الجهاز من العصيان والتمرد ينمو ويتزايد ليقض مضاجعنا في هذه المنطقة ، لقد طلبت منذ الأيام الأولى من مسيو الكوفير قنصل اسبانيا العام بالرباط أن يظل على اتصال معي وبالفعل فلقد تردد علي تقريبا يوميا طيلة هذه الأزمة ، وفي أثناء الأحاديث الطويلة التي كنا نتجاذبها كنت ألفت نظره دائما الى أن السياسة التي يسلكها المقيم العام الاسباني ستقود كل من الحمايتين الى انتحار محقق ! وكان يستمع الي في امعان واحترام ويعدني بالتدخل في القضية ولكن ماذا قال لي؟ سنعرف ذلك في الأسبوع المقبل !...

— 12 —

... وعدني مسيو الكوفير قنصل اسبانيا بالرباط بأنه سيتدخل لدى المقيم العام الاسباني لكي يعمل هذا الأخير على أن لا ينهار وجودنا في هذا المغرب ... لكن عبثا كانت وعوده ، بل انه قال لي بعد أيام : « إنه لا يعتقد أن السلطات الاسبانية المسؤولة لها يد في الحوادث التي تجرى ... »

لقد كانت الدوائر بتطوان ترفض الاعتراف بأن الخارجين على القانون يجدون منها عونا وملجأ ... وكانت تجاهر بأنها على استعداد لأن تجرد العصابات الموجودة على ترابها من كل سلاح . فاقترحت أنا اذ ذاك أن نعمل جميعا على ربط علاقات بين المعسكرين ، تهدف هذه العلاقات للوصول الى غاية واحدة ، تلك هي أن تكون بين الجيش الاسباني والجيش الفرنسي رابطة على الحدود نفسها ، وحينئذ فسيجد المتمردون من الوطنيين أنفسهم بين أمرين ، فأما أن يفضلوا الالتجاء الى المنطقة الاسبانية حيث يباشر نزع الأسلحة منهم ، وأما ان يضطروا الى الدخول الى منطقتنا وهناك ستمحقهم جيوشنا !

ولقد عملت على تزويد سائر النواحي الأخرى في المغرب ، بيد أني أمطرت منطقة تازة وناحيتها بقوات مهمة ... وكانت قواتنا العسكرية تحرس سائر النجود التي تقع على مقربة من المنطقة الاسبانية ، أما القبائل التي كنا نتخوف حركاتها فإنها لم تبد أي حراك ماعدا فخذة من كزنّاية كانت أرغمت على أن تنهج خطوات العصابات المتمردة فاتجهت نحو المنطقة الاسبانية !...

أما إيموزار مرموشة فقد عاد فيه الهدوء الى نصابه ، وأرجعت الأسلحة المختلسة الى مكانها . وفيما يتعلق بالتصميم العسكري فإنه لم يكن عندي ما أهتم به سوَى التهديد الخطير الذي يجثم بكلكله على نفوسنا من قبل تلك العصابات التي اتخذت مركزا لها اما على حدود المنطقة الاسبانية ، وإما داخل المنطقة نفسها ! .

وبعد أيام عديدة قضيتها في الانتظار أخبرت أن الجنرال كارسيا فالينو أنعم بقبول مجيئ ضابط فرنسي الى تطوان ! ولكن على هذا الضابط أن يكون مرتديا للبذلة المدنية ! فبعثت لهذه المهمة الكولونيل دوفورسط . الكمندان بناحية أكادير ، واخترته على الخصوص لأن هناك روابط متعددة تربطه بجيراننا هناك ... وبالفعل فقد ذهب الى تطوان واتصل بالجنرال فالينو ... فكيف كان جو الاقتبال ؟ ان فالينو اقتبله ببرودة بالغة ! ووجه اليه عبارات العتاب واللوم حول تصرف فرنسا ازاء الدولة الاسبانية ! وبعد هذه المقدمة بعث في صحبته أحد الضباط الاسبانيين ليقوم بزيارة للمعسكرات الاسبانية الواقعة على الحدود ... وبمقدار ما كان اقتبال الجنرال فالينو فاتراً بمقدار ما كان اقتبال الضباط العسكريين حارا ... ولقد وقف الكولونيل الذي بعثت به على عين المكان حيث رأى الجيوش الاسبانية ، ولقد لاحظ في أول مالاحظ أن الجنود الاسبانية تقف على بعد سبعة الى عشرة أميال من الحدود الحقيقية ! وحيث إن جيوشنا كانت تحتل التلال التي لا تسير على خط الحدود بالضبط ، فقد كانت هناك « منطقة فراغ » تمتد من عشرة الى اثني عشر ميلا ! وهناك في تلك المسافة يمكن للمتمردين أن يجدوا مثواهم الآمن ! هذا ومن جهة أخرى فإنه عندما يرخى الليل سدوله ، فإن كل متاجرة تصبح في متناول الناس ... ألم تدمر طائرتنا فجر يوم من الأيام قافلة للتموين كانت واردة من المنطقة الجارة ؟!

وخلاصة القول فإن كل مجهوداتنا من أجل الحصول على انسجام بين

الجيش الاسباني والجيش الفرنسي كانت تبوء بالفشل الذريع ! وهناك شيء آخر... فلم أفتأ أتوصل بالاحتجاجات تلو الاحتجاجات ضد تحليق طائراتنا على المنطقة المجاورة ... وضد بعض القنابل والرصاصات التي يتفق أن يعثر عليها .في تراب المنطقة ...

وفي أثناء هذا كله فإن الصحافة سواء منها العربية أو الاسبانية التي تصدر بتطوان تشن حملات هوجاء ضد فرنسا . وكانت بعض الصحف تردد صدى بعض المقالات التي تصدر في بعض صحفنا الفرنسية اليسارية نعم وأخذت تلك الصحف الاسبانية تتحدث عن مؤامرة تقوم بتدبيرها هيئة من الرؤساء العسكريين وقالت تلك الصحف : انني أعمل على تنفيذ تلك المؤامرة هنا !.... اما راديو تطوان فطالما ضم صوته الى صوت راديو بودابست ! ولقد كانت بلاغات جيش التحرير تصدر في الصحف بأحرف بارزة ... ودونكم بعض النماذج من تلك البلاغات ... كان صدر يوم ثالث اكتوبر في جريدة الأمة :

« إن جيش التحرير المغربي العربي يعلن الثورة العامة المظفرة في سائر نواحي المغرب وإن الحرب ضد الاستعمار الفرنسي ستمتد من المحيط الأطلسي الى أعماق المملكة التونسية ... وإن المعارك الأولى التي اشتبكنا فيها مع القوات الفرنسية خلفت في جانب الأعداء موت عدد لا يحصى من جنود المستعمر... وإن المراكز الفرنسية ظلت محاصرة بالرغم من تدخل الطيران الفرنسي في المعركة ... وإن المواصلات التليفونية قد قطعت نهائيا على العدو... فباسم الله العلي القدير نزف إليكم القيادة العليا للمغرب هذا البلاغ الحربي الأول وان هدفنا يتلخص في ثلاثة أمور : أولا الاستقلال التام للمغرب ، ثانيا **تحرير السيادة الجزائرية** ، ثالثا رجوع جلالة محمد بن يوسف للعرش بعاصمة ملكه الرباط ».

وهكذا كانت الصحافة الخاضعة لرقابة حكومة استبدادية ، حكومة

كانت وليدة ثورة عسكرية مسلحة ، أقول هكذا كانت الصحافة هناك تناصر قضية الشيوعية العالمية ...!

لقد قصدت بنفسي ميدان العمليات في بوريد ، وكذا في أيموزار مرموشة ، فأما أيموزار فكانت كل الأحوال تبشر برجوع الأمن الى نصابه يوما بعد يوم ولا أنسي إنني عندما كنت في وجهتي اليها عاودتني الذكرى ، ذكرى الماضي ! نعم لقد ذكرت انني بعد بضعة أيام من وصولي للمغرب كنت قد استقبلت هناك من جانب المرموشيين في جو بالغ من الحفاوة ، وذلك في أثناء (موسم) لا يبعد الا قليلا عن ايموزار وان نسيت لا أنس تلك الجماعة البربرية التي كانت تشدو الى جانبي مغنية وهي ترقص رقصها التقليدي ، «حيدوس» فلقد كانت تقول ما معناه :

« إنك تصنع زربية ، ولكن خيوط كبتك قد تحبّلت عليك فلا تجذب الخيوط المعقدة أكثر من اللازم فإنك قد تمزق الخيوط كلها »

هكذا كنت أسمع ، ولكن واحسرتاه ! لم أكن بالذي جذب الخيوط فتمزقت ، ولكن باريس وحدها هي التي فعلت !!

وفي بوريد كنت صحبت معي بعض الصحفيين . كان فيهم من ينتمي أيضا الى الصحافة الأجنبية علاوة على الصحافة المحلية ، ولقد لاحظ هؤلاء صدق التأكيدات التي كنت أومن بها فيما يتعلق بدور اسبانيا حول المشكل وبالفعل فقد صدرت في بعض الصحف فصول اغضبت الحكومة الاسبانية مما أدى الى اصدارها بلاغا ذكرت فيه أنها تؤكد حيادها التام ، وأضافت الى هذا أن سلامة الرعايا الاسبانيين والمغاربة مهددة نتيجة للحوادث التي تجري في منطقتنا الفرنسية وبما أن احتدادي كان بلغ نهايته فقد أجبت على هذا البلاغ ببلاغ آخر بعد أن استأذنت مكتب المغرب بباريز وحصلت على وفاقه ... وسنقف على هذا البلاغ في الأسبوع المقبل .

— 13 —

... وأجبت عن بلاغ الحكومة الاسبانية الذي يؤكد حياد اسبانيا ببلاغ آخر كان هذا فحواه :

« لقد أصبح من المعلوم أن المتمردين المغاربة وجدوا المدد والمأوى في المنطقة الاسبانية من المغرب . وان الشيء الذي يمثل للعيان أكثر من غيره ، والذي لم يجرؤ أحد على تكذيبه هو أن المركز الفرنسي في بوزنيب الذي لم يتعد كونه مرصدا يقع في المنطقة الاسبانية المجاورة ، هوجم من قبل ببعض العناصر المشاغبة ، وهكذا كان ، مع أن المركز الاسباني المجاور الذي عهد اليه بضمان الأمن لم يبد منه أي تدخل لصالح الأمن .

وإنه لمن الصعب أن يصدق المرء أن «الاسبانيين والمغاربة يشعرون بتهديد في المنطقة الاسبانية من جراء الجو المضطرب والحالة القلقة التي تسود في المنطقة هنا ، بينما يوجد من بين الجثث التي عثرنا عليها جثة لشخص مغربي ينتمي لقبيلة ابن عمار التي تقع في المنطقة الاسبانية ... ولقد كان هذا المغربي يحمل معه بندقية من النوع الذي أصدره معمل الأسلحة الموجود في « أوفييضو »

ومن جهة أخرى فإنه إذا كانت الرقابة الشاملة التي تباشر في المنطقة الاسبانية تجعل تسرب العناصر المشبوه فيها من المستحيل اليوم مهما كان مصدر هذه العناصر فإنه مما لا يفهم له معنى تعرض كوكبة من الجيش الفرنسي سحابة يوم 14 أكتوبر 1955 لطلقات نارية صادرة من المنطقة الاسبانية بالرغم من أن هذه الكوكبة لم تبد أي نوع من المقاومة ...

وإنه لمن البعيد عن الحقيقة والواقع أن يدعى مدع أن الحركة التمردية ليس لها اتصال بالمنطقة الاسبانية ، فيكفي فقط أن يوجد المرء بالمغرب ليعلم حقيقة الأمر...

ولعل المندوب السامي الاسباني أصدر تكذيباً لهذه التأكيدات بيد أنه إذا كان قد فعل فإنما يبرهن على أنه لم يتلق معلوماته من معين صاف صادق...

هذا الى أنه من الخطأ في الرأي أن يزعم الإنسان أن المندوب السامي الاسباني بالمغرب كان قد طلب الى المقيم العام الفرنسي أن يبعث اليه بضابط عسكري . ان الأمر على العكس من ذلك ، فإن الجنرال دولاتور هو الذي طلب من المندوب السامي الاسباني أن يعمل على ربط العلاقات بين أركان الحرب في المعسكرين الفرنسي والاسباني ، ولقد انتظر المقيم العام الفرنسي طيلة ثلاثة أيام ليحصل على جواب لم يكن في مجموعه يشتمل على عناصر ايجابية !

وأخيرا فإن ضباط الشؤون الأهلية ، والمراقبين المدنيين الفرنسيين بالمغرب جميعهم توصلوا بأوامر في سائر الناحية القريبة من الحدود توصيهم بالعمل على الاتصال بزملائهم الاسبانيين . ولكن هؤلاء الضباط ظلوا دائما يترقبون الجواب دون جدوى...

وبناء على هذا فإن سائر الادعاءات المزعومة لا يمكن أن تغير من الحقيقة شيئا ».

هكذا كان البلاغ الذي أصدره دولاتور ، فما كان جواب الحكومة الاسبانية عليه ؟ قال الجنرال :

« إنها أجابت عنه ببلاغ مرتبك بيد أنه من الواضح الجلي أن سياستها لم يكن من الممكن أن يتطرق اليها التبديل والتغيير لقد كانت اسبانيا

مخدوعة ! ولقد كانت بعيدة كل البعد عن روح تلك النصيحة الثمينة التي كان أسداها الى سنة 1927 أحد رجالاتها المخلصين ، الجنرال كاباز ، (ويشير الجنرال دولاتور الى ما تقدم في الحلقة الثالثة من أن كل حركة انفرادية من احدى الحمايتين دون أخذ رأي الحماية الأخرى سيكون بمثابة ضربة قاضية للحمايتين معا !)

لكن ماهي البواعث التي يمكن أن تكون دافعة لاسبانيا حتى تقف هذا الموقف ؟ ان هناك احتمالين اثنين ... فإما أن يكون الجنرال كارسيا فالينو بمؤازرة من بعض الموظفين في وزارة الخارجية الاسبانية كان يهدف الى غرض واحد ، ذلك هو أن تندحر فرنسا ! وأن يرى المغرب (ومعه افريقيا الشمالية كلها) يتحول الى سعير من نار !

وكان يتطلع الى اليوم الذي يرى فيه فرنسا تخسر المغرب ، وبلاد الشمال الافريقي ... وهكذا فإن اسبانيا كانت ترتجي من وراء منحها الاستقلال لمنطقتها أن تحظى بالنفوذ الكبير في البلاد العربية . وشيء آخر : كانت تريد أن تحتل مركزنا في مجموع الشمال الافريقي ! نعم لقد عمدت اسبانيا الى التغني بشعار الترابط الودي الذي يجمع بين بلدين صديقين !

وراحت تتغنى بالعلاقات القديمة التي تربط العالم العربي باسبانيا ... تلك الاحلام الخاطئة التي لم يكتب لها أي حظ من النجاح والتوفيق ....! إن مدينة سبتة ، ومدينة مليلية المحتلين من طرف الاسبانيين منذ بضعة قرون ، والمكتظتين بالاسبانيين كلتاهما لا تحتمل تلك الأحلام أبدا ... كما لا يحتملها اقليم افني الاسباني ، ولا كذلك المساحات الصحراوية التي تمتد من وادي درعة الى بوراتيان ... تلك الأراضي الشاسعة الأطراف التي ما تزال مثل ما يزال نصيبنا في الصحراء بكرا عذراء لم تعرف مفاتيحها وكنوزها بعد ، تلك المفاتن والمكنونات التي قد تكون مصدر ثروة لنا في مستقبل الأيام ...

علال الفاسي مرة ثانية

ويستمر الجنرال دولاتور في ذكر الخطر الذي يهدد اسبانيا نفسها من جانب هؤلاء الذين تناصرهم اليوم ، ويضرب المثل بوطنية الزعيم علال الفاسي التي لا تعرف حدودا ولا مقاييس وكما سبق أن قال في الحلقة الرابعة أكد اليوم : « ألم يطالب علال الفاسي الذي تخصص له الاستقبالات الحارة في تطوان ببلاد السنيكال على أنه من حدود المغرب ؟ نعم لقد طالب علال الفاسي فعلا بتلك البقاع وفي ضمنها الأراضي الأسبانية هناك ولقد فعل ذلك اليوم في انتظار أن يطالب اسبانيا في يوم من الأيام بغرناطة وقرطبة ! ...

ويتذكر دولاتور الاحتلال الثاني فيرجع له ليلخصه في أن كارسيا فالينو تملكه الحقد والحنق الذي يضمره نحو فرنسا وفقد نتيجة لذلك توازنه دون أن يعير انتباها لنتائج أعماله الخطيرة ... لقد استقبل الارهابيين المغاربة الذين كانوا هدف مطاردة البوليس الفرنسي هنا ، وأحسن مثواهم ، بل وسمح في منطقته بتكوين عصابات تعمل من أجل انهيار كياننا هنا ... وهكذا كان يتساهل متى سمع عن المتاجرات في السلاح ... لقد جرح فالينو في كبريائه ، ولذلك فلقد آزر على طول قضية محمد الخامس بمجرد ما اتجه هذا الأخير وجهة المنفي ... وأخذ يتظاهر بأنه بطل العدالة المموهة . لماذا ؟ إن الأمر يتلخص في شيئ بسيط ، ذلك أن الجنرال كيوم لم يأخذ برأيه قبل أن يتخذ تدبير عشرين اغسطس 1953

ولقد كنت ألاحظ أنه على ذلك العهد لم يكن المندوب السامي الاسباني يعني بالاشادة بذكر السلطان في خطفه ! بيد أنه وقد غلب على أمره ، وضحك على عقله ذلك الوزيران المغربيان الوطنيان اللذان كانا يوجدان إذ ذاك من بين أعضاء الحكومة الخليفية بتطوان : واللذان لم يترددا عن تقديم استقالتهما منذ الحوادث الأخيرة .. أقول إنه وقد خدع

وضحك عليه كان يظن أن اسبانيا ستخرج سالمة من هذه المأساة التي تتلظى فيها المنطقة الفرنسية ، نعم لقد كان فالينو يعتقد أن اسبانيا ستنال نصيبا أوفر من الحظوة في هذا المغرب ! ان عليه الآن أن يغير تلك اللهجة التي كان يستعملها ولكن في قرارة نفسه ... على أن ذلك هل سينفعه اليوم ؟ هيهات ! ان الوقت انصرف .. !

وإن الشيء المحقق الذي لا ريب فيه هو أن المتاعب التي اصطدمنا بها في هذا « المغرب الفرنسي » كان مصدرها المنطقة المجاورة ، وإن نفس المصاعب التي نجدها في وهران هي بدورها تأتي من تلك الجهة ... وكل ما تقوم به اسبانيا من تفنيد لهذه التأكيدات لا يغير من الواقع شيئا إذ أن البراهين تتوالى الواحد تلو الآخر ... وفيما يتعلق بي أنا فإني أعطيكم كلمة الشرف : شرفي كجندي بأن العون الذي كانت تغدقه اسبانيا على أعدائنا في المنطقة الخليفية حقيقة لا مراء فيها ! وبالتالي فإني متأكد من أنّ كثيرا من أصدقائي في الجيش الاسباني سيصدقونني ، لأن الحقائق التي وقف عليها الضباط الفرنسيون بل وقفت عليها بنفسي بمحضر زملاء اسبانيين تؤكد كل ما قلته ، ورغم أن المراقبين الاسبانيين للشؤون الأهلية في تلك المنطقة لم يكونوا بالقطع من أنصار السياسة المتبعة من قبل الجنرال فالينو ، لكنهم كانوا على كل حال مرغمين على أن يسلكوها ! وهكذا فبسبب هذا الخطأ من قبل المندوب السامي الاسباني فالينو ارتكبت جريمة فظيعة ضد ماذا ؟ « الحضارة الغربية » ! ...

ولنترك الجنرال يبكي الحضارة الغربية « الجريحة » !

وإلى الأسبوع المقبل .

— 14 —

..وفي الوقت الذي كنت فيه شارد الفكر ، أولا من جهة سير العمليات العسكرية ، وثانيا من ناحية قبائل مرموشة ، ثم ثالثا مشكلة حوادث الحدود التي تفصل بيننا وبين الاسبانيين... أقول بينما أنا كذلك كنت أتلقى من باريز كل ما يحرج ويضني..! ان ذهاب عرفة لم يأت بأية نتيجة وإن البلاد لم يعد اليها هدوءها المنشود... ورغم هذا فقد كنت أتوصل من وقت لآخر بأوامر تفرض انشاء مجلس العرش.

لقد توالت التلغرافات ، وتتابعت الرسائل ، وتلاحقت دقات التلفون... والمبعوثون كذلك أحدهم يتلو الآخر : فهذا الكولونيل فيريك ، وهذا مسيو دوناديو دفابر ، وهذا مسيو ماني...

أن الحالة العسكرية لم تكن من الأشياء التي تحفل بها باريز لقد كانت باريز تعتقد — فيما يظهر — أن انجاز فكرة مجلس العرش ستجعل حدا للفتن في المغرب كما لو أن ذلك المجلس يحمل خاتم سليمان !.. ولقد ذهبت انذاراتي أدراج الرياح.. كنت أقول لهم : إنه إذا ما تم اتخاذ هذا الحل فإنه سيكون من المتعذر بالنسبة الى أن أجيب بصراحة عن الأحداث التي تجرى..! ولكنهم هل أعاروا انتباها لتخوفاتي ؟ انهم لم يفعلوا شيئا... فإذا ما طالبت بالسماح لي بالانصراف رفضوا ذلك معتذرين بالحالة العسكرية . وبأني أشغل مهمة قيادة القوات البرية والبحرية والجوية ولا شخص هناك يعوضني في تلك المهام !

وزيادة على هذا فإن زعماء حزب الاستقلال الذين ما يزالون من

المقيمين في باريز ، يلوح أن قناتهم تشتد كلما مرت اللحظات ، فلا تساهل ولا اذعان أما رجال حزب الشورى الذين وصلوا الى الرباط في الأيام الأولى من الشهر فإنهم على العكس من الاستقلاليين قاموا بزيارتي ، ولم يعربوا لي عن رغائب تتجاوز الحدود...

هذا ولقد أبلغتني ادارة الداخلية أن السيد الطاهر وعسو الذي ينتمي الى قبيلة بني علاهم (قبيلة بربرية من الأطلس المتوسط) قد قبل ترشيحه لمهمة العضوية في مجلس التاج وحيث أن هذا الرجل من قدماء الضباط ، وحيث أنه يحمل أفكارا وطنية معتدلة فإن الأمر سيكون على ما يرام ، بيد أن هناك شيئا خطيرا ... ذلك أن السيد عسو ليس على شرط الكلاوي.!... وفي بداية الأمر كان حزب الاستقلال يرفض وجود هذا الرجل من بين أعضاء مجلس العرش ، الأمر الذي ساعد على ترديد بعض الشائعات المضحكة حول تعيين هذا الرجل لذلك المنصب...

بعثت بالجنرال لوبلان الى باريز ، وكنت أحاول من وراء ذلك أن أفتح عيون أولئك الذين بيدهم الأمر هناك ، ولكن ماذا كان ؟ لقد استقبل هناك مبعوثي استقبالا سيئا من طرف رئيس المجلس الوزاري ، وكذا كان الحال من لدن وزير الشؤون المغربية والتونسية ، وهكذا فلم تكن هنالك رغبة لأحد في أن يفتح آذانه لسماع صوت الحق !

وفي غضون هذا غادر الجنرال كونيك ومعه وزيران آخران هما تريبولي ، وبوايران ، أقول غادروا جميعا مناصبهم في الحكومة حيث إنهم لم يكونوا ممن يرغبون في مشاركة الحكومة في سياستها حول افريقيا الشمالية وعلى العكس من ذلك فإن المسيو انطوان بيني أصبح من الذين يوافقون ، ولقد صرح بأنه يشاطر الحكومة مسؤولياتها · وبأنه مقتنع بآراء رئيس مجلس الوزراء . » ولعل القراء ما يزالون يذكرون جواب ادكارفور حول استقالة هذا الثالوث .. ذلك الجواب الذي سيمرّ بنا بعد هذه

الحلقات ... ويتلخص جواب الرئيس في أنه هو الذي طلب منهم أن يقدموا استقالتهم نظرا للموقف الذي اتخذه حزبهم حينما طالب بإنشاء حكومة للسلام العام ، فليسوا هم الطالبين الراغبين إذن ! ... »

ولنرجع إلى الجنرال لنستمع اليه يقول : لقد كان بنافيو وزيري المعتمد يوجد آنئذ في باريز ، ومن دون أن يأخذ برأيي بعث به رئيس المجلس الوزاري الى طنجة ، وذلك ليتصل هناك بـ « صاحب الجلالة » ابن عرفة من أجل الحصول منه على تصريح ، ما في ذلك عندي شك !... ولقد غضب الجنرال من كون وزيره يستغل من طرف « الآخرين » فبعث على الفور بتلغراف يهدف به الى ايقاف وزيره المعتمد وجعل حد لمهمته عند الجنرال ! ... ولكن كأنما كان الجنرال يحرث في البحر ! !

بل وشيء آخر ، أن القوم كانوا في الجرأة بحيث لا تتصور صفاقة جلود وجوههم ... لقد بعث بهذا الوزير مرة أخرى الى المغرب صحبة الجنرال بيلوط وزير الدفاع الوطني الجديد الذي خلف الجنرال كونيك ... أتي بدعوى أنه يحمل الى بعض التعليمات ... الأمر الذي كان باعثا على شبوب مظاهرة من قبل الفرنسيين المقيمين بالمغرب نعم لقد نزل الوزير المعتمد بأرض المغرب ، ولا أخفي عليكم أنني رفضت أن أصافحه عندما تقدم نحوي يريد السلام على إثر نزوله من الطائرة ... ولقد أفهمته من الغد — في صراحة — أنني لا أرغب في رؤية وجهه بالمغرب ! !

أما الجنرال بيلوط الذي شرحت له الحالة بالمغرب ، فإنه صرح لي رغم كل شيء بأنه يفهم جيد الفهم صدق المعلومات التي أتوفر عليها ، وأنه هو كذلك لم يقبل المنصب الذي عهد اليه به كوزير للدفاع الا لأجل أن لا يبقى الجيش دون وزير في هذا الوقت الحرج !... وفي الحق أنه قدم الى بعض المساعدات .. كان منها أنه جعل تحت تصرفي الكتيبة الرابعة المجهزة ...

وفي أثناء هذا كان البرلمان الفرنسي يصوت على أوفاق ايكس ليبان ، تلك الأوفاق التي لم يكتب لها وجود بالمرة !

إنهم يتهمونني بالتمرد ، وفي الوقت ذاته يحولون بيني وبين السماح لي بالانصراف ؟!... لم أكن أبدا في يوم من الأيام من المتمردين ، ولم أعرف في حياتي العسكرية عصيانا قط الا مرة واحدة يوم كان الأمريكيون يحاولون النزول بأرض المغرب ، ففي هذه المرة فقط فضلت أن أكون متمردا ورفضت الأمر لي بمهاجمة الأمريكيين بالكوكبة من الجيش التي كنت ألفتها في الخفاء ! فهل يعتبر عاصيا من حاول أن ينير رأي حكومته حول تدابير يمكن أن ترجع بالشر المستطير على الوطن ؟!

وفي اليوم الثاني عشر من أكتوبر ورد المسيو أريسو الى الرباط ، فطلبت اليه بكل الحاح أن يسحبني من وظيفتي كمقيم عام ، ولكنه طلب الى أن لا أردد صدى لاستقالتي هذه نظرا للاستفتاء الذي يجرى في السار عند ذلك الوقت ! كيف يكون وضعي كمقيم عام في المغرب له تأثير على الحالة ببلاد السار ؟! لم أفهم معنى لهذا .. ولكني رغم ذلك ، ورغبته في أن لا أقدم على أي عمل من شأنه أن يكون مجلبة لعتابي ولومي ، وبقطع النظر عن هذه السفسطة الظاهرة فقد قبلت ان أبقي في وظيفتي الى أن تعلن نتائج الاستفتاء بالسار !!

وفي اليوم الرابع عشر من اكتوبر قبل حزب الاستقلال وجود السيد الطاهر وعسو ضمن أعضاء مجلس التاج ، ولكن هذا الحزب طلب اضافة شخصية أخرى الى هذا المجلس ، كانت هي باشا سلا السيد محمد الصبيحي ، وهكذا فسيصبح المجلس متركبا من أربعة بدل ثلاثة ... وفي الوقت الذي كانت فيه الحكومة الفرنسية ترفض دائما كل طلب مني يهدف الى توسيع دائرة مجلس العرش ، كانت ترضخ لاقتراحات حزب الاستقلال !!

وفي آخر لحظة برزت مشكلة أخرى : أنه حسب التعليمات التي تلقيتها فإن رئاسة مجلس العرش سيتولاها الوزير الكبير لكن حزب الاستقلال رفض ، وما وسع الحكومة إلا أن تطأطئ الرأس ...! وحل اليوم الخامس عشر من اكتوبر فماذا سجل التاريخ فيه ؟

سنعرف ذلك في الأسبوع المقبل ...

— 15 —

وحل اليوم الخامس عشر من اكتوبر فحمل معه الاعلان عن تاسيس مجلس حفظة العرش ، وكان ذلك من قبل الوزير الكبير..وهنا ساق الجنرال دولاتور النص الكامل لهذا الخطاب الذي كان أذيع اذذاك والذي يدعو المغاربة الى الاعتماد على حكمة المجلس المذكور وذلك لصالح المغرب وازدهاره ضمن الصداقة الفرنسية الدائمة ... كما يدعو المواطنين الى الاقلاع عن وسائل العنف والاتلاف حتى يتسنى في دائرة النظام والاتحاد بناء مغرب متآخي مزدهر..

ثم يسوق الجنرال كذلك تصريح الحكومة الفرنسية الذي عرفه القراء على ذلك العهد أيضا : « فالحكومة الفرنسية بناء على الاستشارات التي قامت بها قررت أن تخلق جوا للثقة يساعد على تنمية روح الصداقة الفرنسية المغربية وأن التصميم الذي قررته حول هذا الموضوع يهدف الى انشاء (اتحاد) دائم بين الدولتين وان الحكومة الفرنسية تقبل بدون تحفظ مشاركة العناصر الأكثر تمثيلا للرأي العام المغربي وهكذا فإن فرنسا المخلصة للمبادئ المثلى تنوي أن تقود المغرب الى نظام دولة ذات سيادة وترغب في أن توطد معه علاقات دائمة للتعاون وهي لا تتردد في أن تعلن أن سياستها في المغرب ترتكز على العناصر الأربعة التالية :

أولا : ابرام المعاهدات المتعلقة بالمغرب ومراعاة الحقوق المعترف بها للدول الأخرى التي يعنيها الأمر...

ثانيا : احترام الوجود الفرنسي في المغرب من أجل المصلحة المشتركة للبلدين ومصلحة العالم الحر

ثالثا : الاعتراف بمركز وحقوق الفرنسيين المقيمين بالمغرب نظرا لدورهم الهام في خلق المغرب ذلك الدور الذي يجب أن يستمروا في القيام به لحياة البلاد ..

ولا أطيل على القارئ فلعل أصداء تلك البلاغات ما تزال ترن في آذانهم الى الآن بما فيها من متناقضات : سيادة مغربية الى جانب الوجود الفرنسي ! احترام المعاهدات الى جانب الصداقة الدائمة !

لكن ماذا كان رأي الجنرال ؟ انه دائما غاضب حنق . فتصريح الحكومة هذا لم تكتب له حياة ! والبرنامج الحكومي لم يحظ بأنصار يؤازرونه ... لماذا ؟ لأن حزب الاستقلال لم يرض عنه !

وفي اليوم السادس عشر وصل البكاي الى الرباط .. وهكذا أمكن منذ اليوم الموالي تنصيب مجلس حفظة العرش في حفل جرى داخل المشور ... فماذا كان أول عمل قام به هذا المجلس ؟ لقد طلب من السيد الفاطمي بن سليمان تأليف الحكومة المغربية بيد أنه مرة أخرى وخلافا لما كانت تعتقده باريز فإن الفاطمي بن سليمان اصطدم بمصاعب ومتاعب من أجل الحصول على مرغوبه . وهكذا رجع بخفي حنين !

وفي اليوم التاسع عشر اتجهت نحو مراكش ، وكانت لي محادثة طويلة مع الباشا الحاج التهامي الكلاوي ... لقد قرأت على تجاعيد وجهه الحسرة والألم وفي الوقت ذاته لاحظت أنه كأنما استيقظ من غفوته ! اتعلمون ماذا قال لي . لقد خاطبني بهذه العبارات : (ان فرنسا تصير إلى نهايتها ونحن معها كذلك في طريقنا نحو الكارثة ! إن مجلس العرش هذا يتناقض وتقاليد بلادنا ! إني لا أستطيع بحال أن أمنحكم وفاقي مادام لم يوجد في هذا المجلس من يمثل أصدقائي التقليديين ...) ولقد حاولت أن أدافع عن شخصية الطاهر وعسو محتجا بأنه لم يشتغل قط بالسياسة ولم ينتم أبدا لحزب من الأحزاب ...

وعندما كنت في طريقي لوداعه سألته : ماذا سيكون موقفه من الآن فصاعدا حول الحالة الحاضرة ؟ فلخص لي الجواب قائلا : (أما الآن فلا علم لي ، نعم بعد بضعة أيام سيمكنني أن أجهر بجوابي)...

وفي اليوم الثاني والعشرين دخل الجنرال لوبلان من باريز .. واتجهت أنا في اليوم الموالي نحو المراكز الثائرة بالمغرب .. اموزار مرموشة وواجهة الشمال .. أما في الأطلس المتوسط فعلى إثر التدابير المتخذة رجع الأمن الى نصابه . أما الواجهة الشمالية حيث الحدود الاسبانية فقد أخذت الحالة كذلك تسير الى الهدوء رغم وجود بعض العصابات التي ما تزال توجد معتصمة بالضفة الأخرى من المنطقة الاسبانية .

ولقد طلبت مرة أخرى الاذن لي بالذهاب إلى فرنسا ، وكان أن حظيت هذه المرة بمسعاي ، فذهبت اليها في اليوم الخامس والعشرين ولا أخفي عليكم أن نيتي كانت تهدف أن لا أعود بحال من الأحوال إلى المغرب وأن لا أعدل عن قراري هذا مهما كان الأمر...

وبوصولي إلى باريز علمت أن الكلاوي قد صرح بالجواب الموعود به ! فماذا كان ؟ لقد أكد عدم مشروعية مجلس العرش ، وأعلن أنه نظرا للحوادث الجارية فإن الحل الوحيد الممكن هو رجوع جلالة محمد الخامس إلى العرش . ان المغرب قد اتخذ منذ اللحظة اتجاهه الجديد ! !

لقد بهتت باريز هذه المرة حقيقة من هول هذه الصدمة المفاجئة ! وهكذا فإن وزير الشؤون المغربية والتونسية ألغي ، والتحق بمصلحة وزارة الشؤون الخارجية يشغل منصب وزير للدولة مكلف بالطاقة الذرية فلم يمكن أن يكون اتصالي إلا بالمسيو بيني...

لقد طلب إلى هذا الوزير أن أزوده بمعلومات حول الحالة الحاضرة فأجبته بهذه الكلمات :

(انه رغم سائر الانذارات التي أخطرتكم بها فإنه لم يكتب لي أي حظ في أن ترهفوا بأسماعكم الي ! ... انه حسب المعلومات التي اتصلت بها من المغرب فإن الكلاوي اتجه وجهة أخرى وإن منظمة « الوجود الفرنسي » والصحافة الفرنسية التي ظلت الى يومنا هذا رابطة الجأش كل منهما أعلن أنه يتبع الكلاوي في آرائه ! فلم يبق اذن من حل للمشكل الا شيئ واحد ذلك هو أن يعاد من جديد بمحمد الخامس إلى عرشه ! بيد أنه قبل أن تأخذوا بهذا القرار فإني أنصح لكم أن تأخذوا بجانب الاحتياط والحذر حول بعض المسائل ... اطلبوا الى محمد بن يوسف أن يوافق على عدم مس معاهدة الحماية بأية وسيلة ... وأن الاصلاحات المزمع على القيام بها يمكن أن تنجز في اطار بنود تلك المعاهدة) وأضفت الى هذه التصريحات ما كنت عبرت عنه في كثير من المناسبات أعني أنني طلبت الى وزير الشؤون الخارجية أن يسحبني من وظيفتي كمقيم عام !

بيد أن الوزير صاح معترضا : « إن طلب التخلص من الوظيف في الظروف الحالية معناه الفرار من الجندية ! ».. لقد كنت بادي الغضب هذه المرة فقلت للوزير : انه ليس في استطاعتي أن ألعب في المغرب نفس الدور الذي قام به المريشال بيتان في فرنسا فإن أعمالا لا أرى سدادها لا يمكن لي أن أقوم بتنفيذها ... وأضفت قائلا : انه إذا ما أصر سعادة الوزير على رفض قبول استقالتي مرة أخرى ، وإذا ما أبي أن يعوضني بشخص آخر فإنني سأستقيل من رتبتي كجنرال مادام في ذلك وسيلة لخلاصي ! !

وهنا ذكر لي أنه سيحاول من الآن وجود شخص يعوضني في هذا المنصب ولكنه طلب الي أن ألتحق بالمغرب حيث لا يوجد ولو وزيرا معتمدا بالاقامة العامة يمكن أن يقوم بدور النيابة عني في انتظار تعيين المقيم العام الجديد.

واتصلت بعد ذلك برئيس الوزارة الفرنسية الذي كانت بوادر الاستغراب بادية على محياه من جراء رد الفعل الذي قام به الكلاوي ... وفي هذه المرة حيث كان قلقا بعض الشيء مما عسى الأيام أن تتمخض عنه قال لي : انني حقيقة أشعر بحرج كبير.. فكيف لو عاد ابن يوسف الى العرش مع أنني كنت قلت خلاف ذلك أمام البرلمان ؟ فأجبته بأن الحكومة الفرنسية هي التي بحثت عن حتفها بظلفها ! وانني لا أرى أي حل للمشكل القائم فإن مجلس العرش المعين من قبل باريز من المحتمل أن يقوم هو الآخر بتقديم استقالته إذا نحن لم نذعن

ويودع دولاتور باريز إلى الرباط ... وسنلتقي به هنا في الأسبوع المقبل ..

وفي اليوم الخامس والعشرين من شهر أكتوبر دخلت الى الرباط عائدا من باريز ، وفي اليوم التاسع والعشرين أرسلت رئيس ديواني المسيو لوفور الى باريز بالرسالة التالية ، وكان قصدي من هذه المحاولة أن انحي كل اشتباه ممكن .

« إن الحوادث في المغرب تتوالى الواحدة تتلو الأخرى ، بل وتتجاوز في تعاقبها ما كان في الحسبان ، وستؤدى لا محالة الى حالة ، يصعب معها كل علاج ... ان عدم وجود سياسة قارة سينتهي بتهديد محقق لأولئك الذين ينتسبون لفرنسا . لقد حاولت في تونس أن أتلافى شرور تلك « التجربة » التي قمتم بها هناك ، تلك التجربة التي كانت مرتجلة لم يسبقها تحضير والتي روعي فيها جانب التكرم أكثر مما روعي فيها جانب الحكمة ... وفي المغرب كان نيتي أن أعمل على تنفيد القرارات التي ينبغي الأخذ بها والتي تتفق والحالة الواقعية للبلاد ، بيد أني لم أستطع الوصول الى هذا الهدف حيث إن الحكومة كان في رأيها أن تتحمل هي مسؤوليات قراراتها ... وإن المطامع المشروعة من المواطنين المغاربة لينبغي حقا أن يعمل على ارضائها ولكن في دائرة احترام أواصر الصداقة ومن دون ما تكون جزءا لا يتجزأ من وطننا فرنسا ، وإن هؤلاء هنا لا يقلون عن أولئك الآخرين الذين يستقرون في دائرة من دوائر البلاد الفرنسية ... ومن حيث الجهاز المادي فإن الاقتصاد الفرنسي **واقتصاد الشمال الافريقي** مرتبطان متكاثفان ... ان هناك تحولا عارما وجارفا سوف يحطم عملنا في افريقيا ويعرض للانهيار نشاط مواطنينا الانشائيين الذين يعتزون بفرنسا ،

نعم الخطر المحقق ، وفي أقرب الأوقات ... فبناء على رغبتكم ورعيا للظروف الحالية التي تجتازها بلاد المغرب فإني سأظل في منصبي في الرباط الى أن يصل خلفي المقبل ، ولكني التمس بالحاح أن تجعلوا نصب أعينكم دائما أنني أنتظر استعفائي من وقت لآخر.»

تلك كانت رسالة الجنرال .. وها هو ذا يرجع للحديث عن الحركة الأخيرة التي قام بها الكلاوي ... « فإنه — أي الكلاوي — وقد خانته الحكومة الفرنسية من جهة ، وتحالفت عليه الأمراض من جهة أخرى أخذ يشعر بأن الشمس على أطراف النخيل ، وأنه يقرب من نهايته ... ففكر في أن ينقذ على الأقل ابناءه ويحفظ لهم ذلك التراث العائلي الضخم .

من الجائز أن يكون الكلاوي فكر في الرئيس البربري موحا وحمو الزياني الذي نصح لابنائه أن يستسلموا للفرنسيين بينما هو استمر في المقاومة . لقد أخطأ الكلاوي في هذا التقدير فإن المخزن الشريف لسنة 1956 لا يتوفر على ذلك النبل وذلك التسامح الذي كان لليوطي ايام موحا وحمو ! ! »

وفي انتظار تعيين خلفي ظللت بضعة أيام في الرباط ... ولم أغادر المغرب الا في اليوم الحادي عشر من نوفمبر.

أما أعضاء مجلس التاج فقد ذهبوا إلى باريس ليتقدموا باشخاصهم الى محمد الخامس ، لقد أظهر محمد هذا منذ البداية ، للوزير المقري عن ازدرائه واحتقاره لشخص هذا الرجل الذي لا يستحق — في نظر الجنرال — أن يعامل هكذا ...

لقد اقتبلت طيله هذه الأيام كثيرا من الأصدقاء الفرنسيين .. وعددا قليلا من المغاربة ولقد كان البعض منهم — وخاصة المغاربة — كانوا يقترحون على أن أقوم بثورة شاملة في البلاد فكنت لا أتردد في أن أكشف لهم عن العبث الذي ينتظر هذه المحاولة ذاكرا أن فرنسا الديمقراطية ليست

بلدا للثورات العسكرية ... وان الأمر ينبغي أن يسير على ما هو ... وهناك بعض آخر كان يطلب مني أن أظل في الرباط مقيما عاما لكي آخذ بأنفاس الشر الذي يمكن أن يهدد المواطنين الفرنسيين !.. ولكني كنت أجيب هؤلاء بأني منذ سنة ونصف بذلت أقصَى ما في وسعي لأصل إلى هذا الهدف أعني الوقوف ضدّ الهاوية ولكن جهودي ذهبت أدراج الرياح .. وتلاشت محاولتي أمام الرغبة القوية التي تملكت أولئك الذين قرروا في باريز سياسة « التنازل » . نعم أولئك الذين كان يعوزهم التفهم الكامل للمشكل الافريقي ... نعم كنت أردد أمام أولئك الذين كانوا يظنون ان في بقائي بين ظهرانيهم فائدة ترجَى ، كنت أردد بينهم دائما أن باريز هي المكان الوحيد الذي ينبغي للإنسان أن يقاوم فيه ... وان علينا أن ننير أفكار الشعب الفرنسي هناك ، وآنئذ فإن الناس سيفهمون الحقيقة ، ويمكنهم هم أن يتحركوا ! » .

وكانت نهاية أعمالي أنني عملت على تقوية الوضع العسكري في النواحي التي تتطلب ذلك ، فلقد اقتحمنا مركز بوزنيب من جديد ، وذلك لنعطي الدليل على أن ارادتنا تهدف دائما وأبدا الى البقاء ، لا الى التنازل ... وهكذا فإن الحالة العسكرية كانت على أحسن حال ... أما الحالة السياسية فاعترف هنا أنها لم تكن مرضية ، ولكن هل أن المسؤولية تقع على عاتقي أنا ؟... لا

وفي هذه الأثناء بعثت بمذكرة الى « السلطان » ابن عرفة الذي كان مايزال موجودا بطنجة طالبا اليه فيها أن يخلص رئيس الجمهورية الفرنسية من التزامات الرسالة التي كان بعث بها هذا الأخير إلى عرفة ، ففعل ذلك حينا !

كما أني حاولت أن أزود المسيو بنان ببعض المعلومات ، فقد أحطته علما أن الكلاوي على العكس مما أشيع عنه في الأيام الأخيرة ، فإنه لم يرفض

أوسمته الفرنسية ، ولم يبعث بها إلى رئيس الجمهورية ... وأضفت الى ذلك أقول :

« يجب علينا في هذه الظروف الحرجة أن نصمد أمام العواصف وانه لا ينبغي أن نأخذ — دون ترو— بما من شأنه أن يوقعنا في الخطأ مرة أخرى ، فيكفي أن نلدغ من جحر مرة واحدة لا أن نلدغ مرات ومرات ...

إن الأمر يتعلق اليوم بتجنب الكارثة ، ويجب لأجل ذلك أن نحصل من محمد الخامس على الأمور الثلاثة التالية :

أولا : أن لا تمس معاهدة الحماية بزيادة أو نقص

ثانيا : أن نحصل على ضمانة تؤكد أنه لا يؤاخذ أي شخص من أصدقائنا بنوع ما من المؤاخذة .

ثالثا : يجب على ابن يوسف أن يوجه نداء يندد فيه بالارهاب ويدعو الناس فيه الى الهدوء والنظام ..

وإن هذه الضمانات مني كانت مكتوبة ، هي وحدها التي تضمن وجودنا ، وتضمن الانقاذ ، وانه اذا لم نحصل من ابن يوسف على هذه الضمانات فإن سلسلة من رد الفعل ستكون،فإن البادية التي قادها في تونس صالح بن يوسف ، استطاعت أن ترغم الحبيب بورقيبة على أن يبدل موقفه ، وأن يعلن أنه هو الآخر يطالب بالاستقلال ... وهكذا فإن الجزائر نفسها ستكون عرضة لأعظم الأخطار ، بل كذلك وفي أسرع الأوقات سينتظر نفس المصير باقي ممتلكاتنا ...

وفي يوم سادس نوفمبر صدر بلاغ مشترك بباريس على اثر اجتماع جرى بين محمد الخامس والرئيس انطوان بيني في قصر سان كلو ... « فجلالة السلطان أكد عن رغبته في تأليف حكومة مغربية مهمتها القيام بالتفاوض

مع فرنسا حول « الاصلاحات » التي ستجعل من المغرب دولة ديمقراطية ملكية ... تربطها بفرنسا وشائج دائمة من التعاون الذي يحدد بكامل الحرية بين الطرفين المعنيين بالأمر ، وإن جلالة السلطان والرئيس لمتفقان على أن من واجب فرنسا والمغرب ان يساهما معا من غير تدخل — ثالث — في بناء مستقبل متين وفي دائرة الاعتراف بالسيادة لكل من البلدين »...

لقد ودع الجنرال لوبلان المغرب أما مساعده في ادارة الداخلية ، وهو المراقب المدني ، وهو المراقب (أكور شعيل) فلم يرد هو الآخر أن يبقى في ادارته ، وكذا فإن حاكم ناحية مراكش الجنرال ماسي فإنه كان طلب كذلك أن يسمح له بالانتقال كما فعل الجنرال بيرطون حاكم ناحية فاس ، والكولونيل فورسط حاكم ناحية أكادير...

وهكذا فلم يرض أي واحد أن يكون شريكا للحكومة الفرنسية في سياستها الجديدة ، وحيث أن ادارة الداخلية ظلت شاغرة لا يوجد على رأسها أي مسير فقد طلبت من الجنرال ميريك الذي كنت عهدت إليه بتسيير دفة العمليات في الوجهة الريفية أن يشغل — متى أراد ذلك — مهمة إدارة الداخلية في انتظار تعيين خلف لي ، فقبل ذلك ، ولكنه في الوقت ذاته أكد لي أنه كذلك سينصرف عندما يأخذ المقيم الجديد بناصية الأمور.

وفي اليوم الحادي عشر من نوفمبر الذي يوم ذكرى الهدنة المجيدة استعرضت للمرة الأخيرة الجيوش بشارع النصر الجميل بالرباط ، وفي أثناء السير على متن السيارة المكشوفة التي كانت محفوفة بكوكبه من الصبايحية المغاربة ، خيل إلي أنني قد رجعت ببضع سنوات إلى ما قبل هذا التاريخ ، لكنني واأسفاه ! ! إن الهموم ، كانت قد استبدت بأفكاري وأنا أثناء الاستعراض . لكن لم أنس أن هناك آلافا من مواطنينا وجانبا مهما من

المغاربة ... اثلجوا صدري وهم يصفقو ويهتفون .. إن الاستعراض كان بديعا ...

لقد ذهبت اثر ذلك الى جمع لقدماء المحاربين فاستقبلني الحاضرون سواء منهم الفرنسيون والمغاربة بحرارة ، ولقد طلبت اليهم أن يظلوا متحدين دائما مهما كانت الظروف ..

وفي الساعة الرابعة بعد الظهر وصلت الى مطار سلا لآخذ مكاني في الطائرة التي كان عليها أن تحملني الى فرنسا وهنا جرى أمامي مشهد لا أنساه مادام في عرق ينبض لأنه نال مني منالا لدرجة أنني لم استطع معه بحال أن أتماسك دموعي ..

سنرى في الأسبوع المقبل هذا المشهد الذي أثار أحزان الجنرال !

— 17 —

لقد شاهدت وأنا على أهبة مغادرة بلاد المغرب منظرا كان من الصعب علي أن أتمالك معه دموعي ... انها كتلة من البشر تتراوح ما بين الألفين والثلاث من الخلائق ، مغاربة وفرنسيين ... اختلط بعضهم مع بعض في صعيد واحد ... كانوا ينتظرونني في المطار من أجل وداعي ، وبجانب الطائرة وقف قدماء المحاربين يحملون رايتهم ، لقد ازدحموا علي يسلمون ويعصرون يدي في حرارة ... وفيهم من كان يعانقني معبرا لي عن أسفه لرؤيتي وأنا أنصرف في هذه الظروف .

لقد بلغ مني التأثر مبلغه حقا وكان من العسير على أن أصمد أمام دلائل العطف هذه التي عبر لي عنها اخواني المواطنون الفرنسيون ... ولكن كم كان تأثري عظيما أيضا من تلك العواطف التي لمستها في اخواني المغاربة ، وذلك لأنني كنت أعرف ماذا ينتظر هؤلاء الذين يهشون في وجهي اليوم !.. ان هناك نكبات وويلات تنتظرهم في الأيام القابلة !...

وعندما أخذت الطائرة تحلق بي في عنان السماء قاصدة وجهة فرنسا كنت أفكر في هؤلاء ، وكنت أتساءل في قرارة نفسي : « ترى ماذا تكنه الاقدار لهؤلاء الأصدقاء ! » نعم لقد فكرت اذ ذاك في أحد الوزراء ؛ وذكرت كلمة كان قالها ذات يوم ، لقد قال لي : « إن سياستنا في المغرب ستعمل على ايقاف تيار الارهاب ، وانني — يقول الوزير — لا أرغب أن أرى الأيدي ملطخة بالدماء » ! نعم كنت أفكر فيه إذ قال لي ذلك ، وكنت أستعرض أمام مخيلتي ذلك الجواب الذي كنت جبهته به ، فلقد قلت له : « إنك تخاف من رؤية الأيدي ملطخة بالدماء ، ولكنك ستجد

نفسك متخبطا في بركة من الدماء !» هكذا كنت أجبت ذلك الوزير ، وكنت أخشى أن تحقق الأيام ما قلته فنصبح وقد شملنا سيل من الدماء .. !

وصلت في اليوم الثاني عشر إلى باريز ... لقد كان الكل على شعور تام .. وكان الجميع مقتنعا من أن السلطان سيعتمد علينا ، وأن المغرب سيجد ضالته المنشودة في الهدوء ، تلك الأحلام والاوهام التي لم تلبث أن أخذت طريقها في التبدد والتلاشي .

لقد ورد على أصدقاء يطلبون الي أن أتقدم الي « النيابة » لأجهر بكلمة الحق أمام أبناء بلادي .. وقد أخذ الناس يتحدثون عن الدائرة السادسة من لاسين كمركز للجهر بالحق ، لدى حزب المستقلين ، ولكنني ذات يوم سمعت أن بيير جيلي هو الآخر سيتقدم الى نفس الحزب ليقول قولته فعدلت حينا عن ارضاء رغبة المستطلعين من أصدقائي .

وحيث أنني بقيت هنا في باريز بدون قيادة فقد قررت أن أنزوي إلى بيتي الخاص بافييرني

وحمل الي البريد ذات يوم رسالة من أحد الأصدقاء الذين عرفتهم في المغرب ، يستعرض لي فيها الحوادث الأخيرة التي جرت منذ ذهابي ، ولقد ختم هذا الصديق رسالته بهذه الجملة « ان المغرب الفرنسي » لفظ نفسه الأخير في اليوم الحادي عشر من نوفمبر في الساعة الرابعة ونصف »!

ولقد كانت هذه الساعة بالذات هي نفس الساعة التي أقلعت بي الطائرة فيها من مطار سلا !!

خاتمة

ويأبى الجنرال دولاتور الا أن يذيل كتابه رعلى القاعدة — بخاتمة تكون بمثابة ملخص « لتلك الحقائق » ونتيجة لتلك « الأفكار » التي كونتها في الجنرال الحنكة والتجربة ..

لقد استرعى نظر الجنرال ما جاء في أحد الكتب التي قرأها . لقد قال صاحب ذلك الكتاب : « إنه لاجل اقناع هؤلاء الناس — يعني العرب — لا ينبغي التفكير في استخدام منطق الحق والعدل كوسيلة ، فسيكون من العبث ذلك ، وإنما عليك اذا أردت أن تحصل على اقناعهم ، أن تستخدم عملك ! اعني أن تلتجئ الى القوة ! فالقوة عند العرب هي الشئ المقدس الذي نزل من السماء ! وان الله دائما حليف للأقوياء » ! !

إن هذه الفقرات ظلت عين الصواب — كما يقول الجنرال — بالنسبة الى جمهور الناس رغم أن الأشياء أصبحت اليوم غيرها بالأمس ... ثم هل من سبيل للاعتقاد بأن هؤلاء الذين « تطوروا » في أفكارهم من العرب لم يتأثروا هم كذلك بما يتأثر به الجمهور ؟ لا أعتقد ذلك أبدا ، فالمتطورون وغير المتطورين سواء فالكلّ يرى في القوة الروح القدس التي يجب أن يطأطئ الإنسان الرأس أمامها ! ودونكم الدليل على ذلك

ففي بلاد فرنسا تجد الرجل الملحد الزنديق مشربا بل ومشبعا بالمدنية الغربية ، أعني أنه أحب أم كره فإنه بطبيعته متكيف ومتأثر بالحضارة المسيحية التي تحترم حقوق الإنسان ، هذا وعندما نعثر على افريقي يحمل نفس الأفكار في الالحاد والزندقة فإننا سنجده قد أشرب بالكبرياء والتعنت الذي لا يخضع الا لشئ واحد ، ذلك هو المقاومة !

آه : انني أعلم أن المسيو ماسينيون يؤكد لنا أن الديانتين معا : الاسلام والمسيحية يرجعان لمعين واحد . قد يكون صدقا ، ولكنه لا يتعدى الأقوال والنظريات الى الأعمال والافعال ، ويكفي فقط أن يقضي الإنسان بضع سنوات في الشمال الافريقي ليكون على بصيرة مما يقول ! إن العقدة العنصرية والدينية ظلت ملازمة للمسلمين ، ولم تنفك عنهم قيد شبر وإليكم بعض الأمثلة من ذلك :

عندما كنت مقيما عاما بتونس استدعيت لبعض السهرات التي أقامها أحد الموظفين ، ولقد حضر فيها عدد غير قليل من الأصدقاء الفرنسيين والتونسيين ، وجدت نفسي بجانب فتاة فرنسية كانت أجمل ما تكون طلعة ، انها كريمة أستاذ ذائع الصيت يشتغل في جامعة باريز ، وهي بدورها كذلك ممرضة ماهرة ، كانت زوجة لطبيب تونسي تعرفت به عندما كان يدرس بباريز ...تجاذبنا اطراف الحديث ... وسرعان ما أخذت هذه الفتاة الحسناء تشتكي من الروح العنصرية التي تتملك بعض الموظفين الفرنسيين بتونس ، فقلت لها : إنني متفق معك ياسيدتي ، ولكن هل تعتقدين إلى جانب هذا أن هذه الروح العنصرية توجد أيضا في الجانب الآخر (العربي)؟ فأجابتني : «كيف يسوغ لي أن اعتقد ذلك وزوجي تونسي ؟.. فليست هناك نعرة قبلية في الجانب « الآخر » ... فقلت لها : إنك على حق فيما تقولين ، ولكن لا تغفلي على أنك امرأة ، فلو كنت رجلا فرنسيا وحاولت الاقتران بفتاة عربية لما كان ذلك في استطاعتك ! »

وفي هذا الوقت كانت توجد بالقاعة احدى الأوانس التونسيات اخذت مكانها على مقربة من هذه السيدة الحسناء التي اتحدث اليها .. كانت حقا فتاة جميلة تبدو عليها روح المرح ... وتملكتها نزعة التحرر الى حد كبير ، فقد كانت توجد في ساحة الرقص ... طلبت للحسناء الفرنسية أن تسأل الآنسة التونسية : هل ما إذا كانت لا ترى بأسا في التزوج من فرنسي ؟! فأرضت رغبتي وتوجهت بالسؤال الى رفيقتها التونسية قائلة : « عزيزتي ! أصدقيني ، ان النساء التونسيات توجدن الآن على جانب من التطور ... فهل سيستطعن عما قريب أن يخترن أزواجهن من بين الأجانب متى رغبن في ذلك ؟.. فماذا كان جواب الآنسة ؟ لقد حملقت في صديقتها وقالت وقد أشعت من عيونها إيماضة كالبرق « أتزوج بمسيحي ؟! لا أبدا ! » فلاحظت في هدوء على الآنسة انها لم تراع جانب اللياقة التي كان عليها أن تتحلى بها وأنا أستمع إليها فاحمرت وجنتاها واعتذرت الي في اضطراب ...

لقد كان الجواب سريعا ، وقاسيا ... وانه جواب يستدعي منا انتباها وعبرة !

إن للمسلمين — ولو أن هذا لا يروق بعض الناس — دينا وليدا للقوة ، ولهم علاوة على هذا خلق يرجع الى أصل عريق فيهم ذلك هو النعرة القبلية ، وشيئ ثالث أنهم ينظرون بين الاعتبار والاحترام للذي يرعى حقوق الصحبة ، ولهذا فإنه يجب أن نعترف بها هنا بأننا منذ سنوات أخذنا نظهر أمام هؤلاء المسلمين بمظهرين اثنين : الضعف وهم لا يؤمنون إلا بالقوة ! وخذلان الصديق وهذا شيئ أيضا ممقوت عندهم !

لكن ما هي البواعث التي حدث بالجنرال لتأليف هذا الكتاب ؟ سنقرأها في الأسبوع الآتي ...

— 18 —

وماذا كان الباعث على تأليف هذا الكتاب لم يكن من رأيي أن اتحدث حول هذا الموضوع لولا هذه الرسائل المتلاحقة التي وردت علي من هنا وهناك في كل جهة من جهات الشمال الافريقي والتي يرجو أصحابها ويلحون في الرجاء من أجل اعداده . رسائل من تونس والجزائر أحيانا ومن المغرب بصفة خاصة لقد كانت مؤثرة بحق ... وفيها **ما حررته أيدي مغربية من تلك** الجماعة التي نزلت عليها المطرقة ! رسائل اليأس ، ورسائل الثورة وفيها من حمل الي وصفا دقيقا لسائر الأنواع والأشكال للحوادث المؤسفة التي يعيشها المغرب ... بيد أن هناك شيئا يجب التنصيص عليه ، ذلك أن بعض القرارات التي اتخذتها بلادي حيال المشكل المغربي كانت من الضرورة بحيث لا يمكن التفصي منها . حقا كانت مما يبعث على الأسى والأسف ولكن الامر هكذا كان وقدر أن يكون !

منذ فارقت المغرب في الحادي عشر من نوفمبر 1955 استهدف المغرب لانقلاب عام شامل ، ومن الجائز أن يصبح في يوم من الأيام من تلك البلاد التي تتخبط في مجاهل الفوضى ... ولقد ركب فعلا بعض المغاربة ومن دون ما أن نتكلم على طائفة معينة من الأوروبيين فإن اصدقاءنا المغاربة الأقدمين أصبحوا هدفا للمطاردات والمضايقات . والاختطافات والاغتيالات كذلك وأحيانا للاحتراق وهم أحياء ينظرون بل وحتى جيشنا الذي يمثل القوة أخذ يخدم بدوره مصلحة جيش التحرير.

لقد سقط عدد عديد من أصدقائنا صرعى ! لماذا ؟ لانهم كانوا وضعوا ثقتهم في فرنسا ! وكل مطلع شمس يأتينا بخبر عن هذه الجرائم ...

ولقد اعتدى مؤخرا على الكولونيل المتقاعد ايار الذي كان الهاً معبودا لجانب مهم من برابرة الأطلس المتوسط ، والذي كان مثالا نموذجيا منا عندما كنا ضباطا صغارا .. نعم اعتدى عليه وهو بمنزله ، وذلك من جانب عدد من الأشخاص .. تقدم أحد هؤلاء المهاجمين نحو الكولونيل وأصدر أمره اليه أن يجثوا على ركبته بينما كانت يد هذا المغربي على زناد رشاشته ورفض الكولونيل أن يطيع ... فكانت الأعمال . لقد ديست كرامته وأهين في وحشية وضرب وخدش ونهب منزله بيد أنهم لم يستطيعوا أن يجهزوا على حياته ... وفي نفس اليوم ذبحت امرأة طاعنة في السن : تبلغ سبعين سنة ، ومزقت في فظاعة لا لشيئ الا أن هناك متعصبين معاندين أعماهم بغض الأجنبي ففعلوا ما فعلوا ...

هذا هو الشيئ الذي كنت أعنيه عندما كنت أفتح عيون أولئك لقد كنت أخشى هاته الاندفاعات اندفاعات الجمهور القليل التطور وهذا بالضبط ما كنت أريد أن أتجنبه ، وهذا ما كان يغضب أولئك فيغلقون آذانهم دون سماعه ! ان البركة من الدم أصبحت حقيقة واقعة ... أقول هذا ومن دون ما تلفيق أو تزوير ... إني متأكد من أنني لو كنت مكان أولئك الذين اتخذوا تلك القرارات بشأن المغرب لما ذاقت عيني طمعا للنوم ... فإن أحداث تلك الضحايا والأموات ستظل نصب عيني تعتب على سلوكي وتنقم على تسرعي ... تلك الضحايا التي لم تمت في غزوة من الغزوات حيث يحتاط كل واحد لما يهدده ولكن ... ولكن أموات سقطوا تحت ضرب العصي كما تضرب الحيوانات العجماء.

لقد أصبح المغرب مستقلا وان من واجبه أن يرعى هذا الاستقلال وإن فرنسا لا تستطيع أن تخون تعهداتها في هذا الصدد ولو أنها ارتكبت غلطا عندما منحت المغرب هذا الاستقلال .

ولكن هل هذا الاستقلال يعني أن المغاربة سيصبح من حقهم أن يجعلوا منه ذريعة للنهب والاعتداء والاغتيال ، وبالتالي أن يحولوا البلاد الى

قاعدة لمهاجمة الجزائر الفرنسية ؟ إن الواجب يحتم علينا أن نتدخل في مثل هذه الحال ... وإن الامر بالنسبة لتونس ينبغي أن يكون كذلك أيضا فيجب **على بورقيبة** أن يفهم ذلك فلا يفكر من جديد في جيش تحرير ولا يقف عرقلة في طريق الجيش الفرنسي نحو الجنوب التونسي وسيكون من المحزن حقا أن نراه في يوم ما يسلم نفسه الى الفوضى. ان الدولتين التونسية والمغربية مستقلتان حقا ولكن فرنسا هي وحدها التي أوجدتهما كما هما وإن لنا حقوقا هنا وهذه الحقوق تتلخص بالنسبة لفرنسا في النظام الستراتيجي اعني الاحتفاظ بالجيش المرابط هناك .. هذا الى الحق الثقافي والاقتصادي

يجب أن نضمن لمواطنينا هناك امكانية العمل في أمن وسلام ويجب أن تظل أشخاصهم محترمة وأن تحمى حقوقهم عدالة غربية في أمة كالمغرب تعيش كما لو أنها في القرون الوسطى . ان هذه الحقوق وهذه الضمانات بالنسبة لبلادنا وأبناء بلادنا يجب الحصول عليها ويجب بصفة خاصة أن تنصرف مجهوداتنا الى أن تظل محترمة مهما كانت الظروف ومهما كانت النتائج !

بيد أنه للوصول الى هذا الهدف ألا يكون مَن واجبنا نحن قبل كل شيء أن نتناول أحوالنا باصلاح فيما يتعلق بالجزائر يظهر أن فرنسا أدركت أخيرا ماذا يجب عليها حيال هذا المشكل .. اننا نعلن أن الجزائر لن تظل الا فرنسية وإننا لنؤكد هذا ليس فقط بمجرد الأقوال ولكنها أقوال تساندها أعمال ! إن المسيو روبير لاكوسط ذلك الجندي الاشتراكي سيكون كليمانصو الافريقي ! وسيعطي الدليل على أنه ما يزال يوجد هناك رجال يتمتعون بوطنية لا تقبل الهوادة واللين .. لقد لمس المشكل الجزائري وتفهم حقيقته ولم يكتف بالنظريات بل رأى الجياة التي يحياها مواطنونا في الجزائر سواء منهم الذين ينحدرون من أصل أوربي أو أصل اسلامي لقد برهن على واقعية وعلى تضلع كبير من علم النفس ... ولكن هل إن هذا سيكون كافيا وحده لمجابهة الواقع ؟

إن مصدر الشرور كلها منا نحن !

فعلاوة على أن هناك شيوعيين فرنسيين يعملون ضد مصلحة بلادهم يوجد في فرنسا نوع من التفكير السقيم المنحط ! نعم نوع قاتل من الثقافة لا تفكر الا في تحطيم معنوية ابناء البلاد ! انها طائفة من الناس تعمد الى الحوادث والاعمال فتمسخها مسخا ..وتعرض يوميا بأعصاب العائلات عائلات الجنود الى الامتحان العسير وذلك بما تنقله وتذيعه وتعلق به ويرجع بنا الجنرال الى أيامه بالرباط ليقص علينا محضر محادثتين جرتا حول هذا الموضوع . موضوع تخاذل الفرنسيين بعضهم بعضا .. قال الجنرال :

لقد نالتا مني منالا عميقا بلغ مني الصميم .. ولقد تبين لي من خلالها أن المتحدثين إلي كانوا على جهل تام بالحقائق كما كان يلوح من الحديث ذلك التشيع المغرض الذي كان خليقا بأن يعمل على توسيع دائرة الشر وسواء أحببنا أم كرهنا فإن هناك جانبا من بلادنا فرنسا يوجد على حالة قريبة من حالة الحرب مع الجانب الآخر فماذا قال محادثي الأول ؟ ستعرف ذلك في الأسبوع المقبل.

لقد كان حديثي الأول مع مدير لجريدة فرنسية تصدر بالمغرب اختفت عن أنظار قرائها منذ ذلك الحين ، لقد تحدث الي عدد كثير من الموظفين الفرنسيين في شيء من الضغينة والحقد ، وكنت من حديثه بحق مشدوها .. فلقد كان يعزو للارهاب المضاد كل ما يشعر به من هم وألم .. انه يضم حقدا متزايدا لأحد أقاربه الذي كان صديقا لي ، لماذا ؟ لأنه يحمل أفكارا تناقض أفكاره هو لقد جرح حقيقة شعوري لدرجة أنني صرحت له بأنني لا أرغب سماع حديثه الى بعد ! وعندما هم بوداعي ختم كلامه معي وهو يشير الى أحد الاشخاص الذين لا يشاطرونه آراءه : إني لا أفهم أبدا كيف تسمح لك نفسك بأن تكون لك علاقات مع ذلك الرجل انه ينتمي للماصونية (فران ماصون) لقد أخرجني تشييعه عن دائرة العقل ، ولذلك فلقد أجبته بكل جفاء : « إني أهوى كثيرا أن تكون لي علاقات بالماصونيين المواطنين وأفضل ذلك على أن تكون لي علائق بكاثوليكي يخون بلاده » وختمت هذه المحادثة على ما ترى !

أما الحديث الثاني فقد جرى لي مع راهب ... فلقد أخذ بادئ ذي بدء يصب علقم لومه وتجريمه على الاستعمار ... انه اتهم بلادنا بأنها المسؤولة عن سائر الهفوات المحتملة ، ولقد كنا أجمعين في نظره — وهومتأكد من أن هذا هو الحق عينه — من أولئك المرذولين وعلى العكس من ذلك فقد كان يعتبر خصومنا من المحقين المقسطين .. تركته يتكلم دون أن أقاطعه ، واسترسل في الحديث طيلة عشر دقائق تقريبا وتنفس الصعداء في منتهاها وسكت.... فطلبت اليه عندئذ : « قولوا لي ،

هل انتم على خبرة من كلمات المسيح ، فأجابني . وقد ظهرت عليه امارات التعجب مع هذا السؤال : نعم ! فقلت له : وهل تعرفون من تلك الكلمات التي فاه بها سيدنا المسيح هذه الكلمة اجعلوا لله ما هو لله ، واجعلوا لقيصر ما هو لقيصر » فأجابني وقد امتعض بعض الشيء : نعم ! وهنا قلت له :

في حال كهذه الحال ينبغي أن تشتغلوا فقط بما يعنيكم ! أنقذوا النفوس من الغوايات ، وشهروا بالذين يتعدون حدود الله .. إن ذلك من واجبكم لكي لا تشتغلوا أبدا بالسياسة الاسلامية لأنها ليست من اختصاصكم »

لم يدفعني لايراد هذين الحديثين الا شيء واحد ذلك أن اكشف لكم عن وجوه أخرى تذكى نار العداوة ، وتسبب الهزيمة .

إن مثل هذا التشيع ، وهذه المناصرات ليس لها كبير قيمة في اوقات السلم اذ من حق كل واحد أن تكون له أفكار خاصة به ، يميل اليها ، فهذه هي روح الديمقراطية ، ولكن ، ولكن في وقت الخطر : الخطر الذي يهدد البلاد يصبح الأمر على العكس من ذلك ... اننا لسنا أبدا في سنة 1925 في وقت حروب الريف ... ان فرنسا على ذلك العهد كانت تعتبر احدى الدول العظمى القوية في العالم ، فكانت تستطيع — والحالة تلك — أن تصمد تجاه كل اعتداء ، وكل معارضة في موضوع الحرب التي تخوضها لكن الحال اليوم غيرها بالامس ... فلقد هوجمنا من كل مكان ، ومن كل جهة كما قلت لكم أوائل هذا الكتاب ...

إن الحالة أخطر مما كنا عليه سنة 1940 فإذا ضاع من يدنا ما نملكه اليوم تلاشينا في كارثة لا يقدر قومنا في فرنسا مدى نتائجها وعواقبها مع كامل الأسف ! فيجب أن نربح الصفقة ويجب أن تتضافر طاقتنا كلها .. فإن سلام البلاد يفرض علينا ذلك،بيد أنه لتحقيق ذلك ينبغي أن نأخذ بالوسائل : الوسائل التي تضمن ذلك السلام ...

إن الهدوء في الجزائر يتم عن طريق جنودنا الأكثرين ، وإن حكومة الجمهورية طلبت الى هؤلاء الجنود أن يبذلوا أقصى ما في استطاعتهم ، بل وطلبت الى بعضهم أن يجودوا بحياتهم ... فمن الواجب على هذه « الحكومة » أن تحمي هؤلاء « الجنود » من ضربات الخناجر التي تكال اليهم من وراء ... وإن كل فرنسي عمل أو كتب أو تكلم ضد تحركات الجيش في الجزائر ، تلك التحركات التي كانت عن أمر من الحكومة أقول كل فرنسي كان بتلك المثابة فهو خائن للبلاد لا يقل في خيانته عن أولئك الذين كانوا سنة 1917 يشنون حملات كلامية من هذا القبيل ... لقد أرجع أولئك المتقدمين كليمانصو فيجب علينا اليوم أن نقتدي به فإن سلامة الوطن يجب أن تحتل الصدارة ازاء كل اعتبار في هذه الآونة ...

وإن جهازنا السياسي لا يكفي وحده لتحقيق هذه الأمنية ... وإن الجنرال دوكول كشف عن هذه الحقيقة منذ سنوات ، ورئيس الجمهورية كذلك صرح به منذ قليل على مرأي ومسمع ، والمسيو كي موليه طالب هو الآخر بمراجعة الدستور ... غير أن الكلام وحده لا يكفي مادام لم يقترن بعمل ، إن الوقت يمضي بسرعة ... يجب أن ينص في الدستور على بند يتعلق بتحديد المسؤولية ...

في استطاعتنا اليوم أن نلقي الأسئلة الآتية : من كان السبب في ضياع حرب 1940 ؟ من كان السبب في الهزيمة بالهند الصينية ؟ لكنه سيكون من المستحيل علينا أن نذكر اسماء الحكومات التي في مستطاعها أن تتقاذف بالمسؤوليات ، وتتبادل بعضها مع بعض اللوم ، وغالبا ما يكون هذا الترامي ناشئا عن حسن نية ... فإذا ما فقدنا غدا افريقيا الشمالية فسيكون من العسير كذلك أن نجد أمامنا مسؤولين نحملهم تبعة هذا الضياع ...

ويفيض الجنرال الحديث هنا مشيدا بأهمية البند المرجو ادخاله في

الدستور والذي يرمي إلى « تحديد المسؤولية » والتمكن من .معرفة مَن هو الفاعل فعلته ...

لقد تحددت المسؤولية بالأمس القريب في الماريشال بيتان فلفظ أنفاسه الأخيرة — رغم أنه بطل فردان — في أعماق السجون ... يجب أن نتحدث دائما عن الاصلاح الذي يهدف الى تمحيص المسؤولية ... فإن المسؤولية الملقاة على رجل ، أو على جماعة قليلة من الناس التي تصدرت للحكم ، في أثناء زمن محدود معين تجعل ذلك الشخص أو تلك الجماعة يقف في يوم من الأيام مسؤولا أمام صاحب الجلالة واعني بصاحب الجلالة هنا الوطن أجمع ... ينبغي أن تظل السلطة التنفيذية هي الحاكمة وان تظل وحدها المسؤولة عن الجميل والقبيح بينما تظل السلطة التشريعية في وضعها العادي الذي ينحصر في التصويت على الميزانية وعلى المشاريع المقدمة اليها ... من غير أن يكون من حقها أن تعصف بالسلطة التنفيذية الا في أحوال استثنائية خاصة ...وانه إذا لم نصل إلى تحقيق فكرة مراجعة الدستور ، فإنه لن يمكننا بأية حال أن نتخلص من أدوائنا القاتلة .. وستنزل فرنسا — ومن دون ما ان يكون هناك أمل في انقاذها — إلى الهاوية السحيقة حيث الخراب والدمار ...

وسنقرأ في الأسبوع المقبل الفقرات التي يختم بها الجنرال كتابه ...

... ان جنودنا في الجزائر يقومون بواجبهم أحسن قيام ، وانهم على علم تام من أن الأمل الذي تبقي لبلادهم يتجلى في هذه الحرب القائمة هناك ، نعم إن هذا المسعى يتطلب منا مجهودات فهناك كثير من الناس أصابتهم عدوى النظريات الفتاكة ، واستسلموا للترهات ... ان جنودنا رغم هذه الأباطيل ، وان حسن ادراك شعبنا المجيد ، أقول كلا الطرفين يشعر بأنه لا سبيل للتسليم فما يقرب من مليونين من مواطنينا في الجزائر وان الاذغان لذلك معناه اسلام الوطن كله للهزيمة ، انهم جميعا ادركوا إذا لم نصمد تجاه هذا الاجرام فإنه سوف لا يكون في مستطاعنا بحال أن نجلس الى جانب أبنائنا دون أن تعلو جباهنا حمرة الخجل ! نعم الخجل من صنيعنا حيث إننا لم نقدم النجدة لاخواننا في الجزائر !

لقد سقط صهري في الميدان بالجزائر ، هذا الفتى الذي ربته زوجتي والذي كنا نعتبره تماما كما لو كان فلذة من فلذات أكبادنا .. وولدي الأكبر هو الآخر جرح مرتين اثنتين قبل هذا الوقت ، ورجع من المغرب ليعود من جديد لأداء واجبه بالشمال الافريقي ...

إننا لا نشتكي ، بل على العكس من ذلك نقبل كل التضحيات التي تتطلبها منا البلاد ، ولكن على شرط أن لا يذهب عملنا سدى ، لذلك فإنه يجب علينا — واعيد القول بأنه يجب علينا — أن نحمي ظهور جنودنا هناك من الهزيمة ، يجب أن لا نتساهل في فرنسا ازاء كل حملة من شأنها أن تفت في عضدهم وتقوي روح التمرد هذا التمرد الذي يسقط في الجزائر

تحت رصاصه أبناؤنا . وفيما يتعلق بالتصميم الخاص بالشمال الافريقي ، فإنه مما لاشك فيه أن أول عمل يجب علينا أن نقوم به هو أن يسود النظام والأمن في الجزائر ، وإن المسيو روبير لاكوسط من أجل هذا يعمل ...

وإنه إذا كان من رأي أبديه حول سير العمليات بالجزائر فإن هذا الرأي يتلخص حسب ما أكتسبته من تجارب في أن نحصل على عون ايجابي من الهدف ما دامت هناك وحدات متعددة من الجيش في مكان معين ، وذلك لنتمكن من أن نباشر عملية تطهير سريعة وعنيفة وقاسية ضد العناصر المتمردة التي تهيج السكان ، وفي الوقت ذاته ينبغي أن تكون جهابت البلاد كلها في شوارعها وطرقها تخضع لشبكة منتظمة تمكّن من الانقضاض السريع على الأماكن المهددة .

وبهذا يمكن أن ننظم البلاد ونسلح العناصر « الطيبة » من السكان . تكون محمية بقواتنا وسيكون في استطاعة هؤلاء آنئذ أن يأخذوا بيدنا ، لنعمل على التخفيف من عبء الفتن ، وهكذا نستطيع أن نضع أيدينا على البلاد ، وعند هذا الوقت وفي هذا الوقت بالذات يمكن لعملنا في الجزائر أن يؤتي ثمرته ...

إننا الآن مرتبطون بعمل طويل الاجراء فلا يجب أن نعتقد أن السلام في الجزائر سيجد طريقه في أقرب الأوقات ، يجب أن نجعل نصب أعيننا هذا والا فستتحمل عاقبة مللنا ... ففي سائر المشاكل الستراتيجية يتطلب الحل وقتا ... يجب أن تكون لنا هناك واجهتان : واجهة سلبية ، وأخرى ايجابية ، وهذه الأخيرة ينبغي أن تتوفر على قوة هائلة مهمة لا تكون الواجهة السلبية مفتقرة اليها ...

وإن الألم ليحزني حزا عندما أذكر حرب الهند الصينية حيث توزعت مجهوداتنا فكانت الكارثة ... !

إن السلام في الجزائر سوف لا يكون الا خياليا وموقتا كذلك مادمنا لم نحتط له من الطرف الشرقي والطرف الغربي ...

ولأجل أن نصل الى أن ترفرف راية السلام من جديد في الشمال الافريقي ، يجب كما قلت، هذا من قبل أن نتمكن من ضمانات سواء من جانب **المغاربة** أو من **جانب التونسيين**.. إن المستقبل بدون شك سيؤول الى نوع من الحلف الفيدرالي بين أقطار الشمال الافريقي الثلاثة بيد أن هذه الفيدرالية لا ينبغي أن تقبل ، ولا تعقل الا على أساس أن الجزائر فرنسية ... إن المشكلة هنا ... فسائر الحلول ينبغي أن تكون مقبولة ولكن على شرط واحد ، ذلك أن لا يقبل بحال أن تتناقش حول أي مبدء من المبادئ يتنافي مع هذه الكلمة الواحدة « الجزائر أرض فرنسية » !

نعم يمكن أن تأخذ هذه الأرض صبغة تختلف ونظام أم الوطن بفرنسا بيد أن مبدأ سيادة الجمهورية هو هو.. والا فإن الجميع سينهار !.. هذا وإن الجغرافية من جهة أخرى تؤكد أن هذه الأقطار الثلاثة أحب من أحب أو كره من كره **لها طابع عربي** ... فإن فرنسا خلقت تونس والمغرب الحاليين ، لذلك يجب أن تظل الى جانبهما ويجب أن تظل قائدتهما فإن ذلك من مصلحتهما كما ومن مصلحتها كذلك .

وإنه لأجل الوصول الى اقناع الناس بهذه النظريات ، يجب أن نتخلص من الشعور بأننا ضعاف ! ان هذا الشعور هو الذي ظوّح بنا منذ 1940 . يجب أن تعلم مصر التي يأخذ بناصيتها عبد الناصر أنه لأجل احترام حقوقنا وحفظ مواطنينا المقيمين في الجزائر منذ أجيال في تلك الأرض المملوكة لهم والمملوكة أيضا للمكتسحين العرب الذين يقيمون فيها ، أقول لأجل ذلك فإن بلادنا سوف لا تتردد — متى استنفدت سائر الوسائل الأخرى — في أن تلتجئ بدورها الى استعمال حد السلاح

يجب علينا أن نسترجع مكانتنا كأمّة قوية، وان على الحكومة وحدها

أن تمكن البلاد من هذه القوة ... ان البلاد تشعر شعوراً مريراً بما تدفع اليه اليوم

نعم إذا كنا ننوي أن نسترسل في طريق النزول الى الحضيض ، حضيض التنازل عما لنا من حقوق فإن البلاد سترجع القهقرى في أقرب ما يكون ... وسيكون من الخطأ المبين متى ثقنا بمنطق « المعاهدات وأحلاف التعاون » مع هؤلاء الناس .. يجب أن لا يكون ايماننا بمثل هذه المعاهدات اليوم أكثر من الإيمان الذي كان لنا بالمعاهدات وأحلاف « التعاون » المبرمة مع ألمانيا الهتليرية .! وان الحوادث تؤكد ما نقول ..

ولأجل الرجوع الى مركزنا كأمة عظيمة يتحتم على الجمهورية أن تكون على استعداد تام لأن تقوم بما هو من اختصاصها فإن لم يكن في استطاعتها أن تفعل فستصبح في خبر كان ..

* * *

وبعد فتلك حقائق الجنرال دولاتور... أفرأيتها ؟ اما أنا فلست على اتفاق معه إلا في شيْ واحد ذلك أن فرنسا الاستعمارية تصير الى الكارثة ، وليس عندي من سبب لذلك الا اعتمادها على أمثال الجنرال في ايجاد الحلول للمشاكل السياسية ؟

رأي الرئيس أدكار فور
في انتفاضة المغرب[1]

— 1 —

مقدمة

وهكذا فبعد أن تخلص هذا المغرب الأبي من براثن المستعمرين الطغاة أخذت الصحف تطالعنا من حين لآخر بزفرات وحسرات ينفثها أولئك « اللذون » ينظرون اليها كناس خلقوا للوتد والقيد... أولئك « اللذون » يعتبرون نفوسهم شعب الله المختار الذي يستحق أن يتحكم في رقاب الآخرين مهما شرف ماضيهم ولمع تأريخهم ... ومن بين هؤلاء سياسيون محترفون يكتبون عنا في مجلة « جور دوفرانس » أحيانا بتوقيعهم الصريح المريح ، وأحيانا يتملكهم « الحياء » فيتركون ترهاتهم غفلا من كل علامة

منذ أسبوع كتبت الجريدة مقالا تهاجم فيه المسيو ادكار فور رئيس الحكومة الفرنسية السابق ، وتحمله مسؤولية « ضياع » مجهودات 150 سنة في الشمال الافريقي ، وكان هذا بطبيعة الحال باعثا للمسيو ادكار فور على أن يرد الحجر من حيث أتاه ... وحبب الى أن أعرب أهم ما جاء في هذا الرد حتى تعم به الفائدة ، ولا يعني هذا أننا على اتفاق في بعض الآراء مع الكاتب المذكور ، لكنا على كل حال نكبر في رجل الدولة السابق تفهمه للأحوال ونظره البعيد ».

(1) جريدة (العلم) المغربية عدد 27 — 11 — 1956

لقد سفَّه المسيو فور باديءَ ذي بدء رأى المجلة حينما تتهمه بأنه كان المحامي المخلص لصاحب الجلالة محمد بن يوسف ، فإنه لم يكن في ظرف من الظروف ولا في حال من الأحوال مدافعا عن العاهل ، لقد وجهت تهم من هذا النوع وفي أساليب متنوعة نحو المسيو فور من طرف أشخاص الفوا الثلب والشتم وسبق أن أدانتهم المحاكم

سلسلة الحوادث الى 1953

لقد عالجت يقول المسيو فور في مناسبات عديدة ، وعملت سواء في دائرة العمل الوزاري أو الحكومي على الاستفادة من الوثائق التي كنا نتوفر عليها فيما يتعلق ببلاد الشمال الافريقي ، تلك البلاد التي بقيت حظنا الوحيد المفتوح أمامنا لتركيز « الوجود الفرنسي »

ففي سنة 1953 وضعت بمساعدة المسيو موريس شومان برنامج اصلاحات تونسية كانت حظيت بموافقة السيد الطاهر بن عمار ، تلك الاصلاحات التي كانت جديرة بأن توفر علينا صعوبات وصعوبات ، وكنت في أوائل هذه السنة بالذات نبهت السلطات العامة الى خطر « العمل الغير المنظم » وكذا خطر « المشاريع الخيالية » سواء أكان ذلك فيما يتعلق بباي تونس أو سلطان المغرب .

لقد تكلم بعضهم عن خلع للسلطان ، وذكروا أن ذلك سوف لا يتم بواسطة الفرنسيين أنفسهم ولكن عن طريق المغاربة ابناء البلاد ، وكنت أرى أن تغييرا للدولة أو أحد من رجالاتها ، سواء أكان ذلك بإذننا المباشر ، أو — كما قيل — بتحكيمنا سيعتبر صنيعا من صميم ارادتنا نحن .

هكذا في هذه السطور كان المسيو فور خاطب مواطنيه ... وإنه لم يكن ليعرف سلطان المغرب معرفة حقيقية ، لقد رآه ذات يوم فقط عندما ضمَّتهم احدى الاستقبالات التشريفية. وباتفاق مع الحكومة الفرنسية على ذلك العهد وبتشجيع منها كذلك . كانت لي — يقول المسيو فور — مع

العاهل المغربي أحاديث طويلة ، ومكنني هذا الحديث من الاعتقاد بأنه — خلافا لما تشنه الحملات التمهيدية — فإن السلطان لم يكن بحال عرقلة في طريق تطبيق الاصلاحات ، بل إنه على العكس يطالب بها . وإنما كان يقترح أن تناقش تلك الاصلاحات من طرف نخبة مختارة من الفرنسيين والمغاربة ، نعم اقترح ذلك في رسالة له موجهة إلى رئيس الجمهورية ، بيد أن أولئك الذين يؤمنون بأن القوة في استطاعتها أن تحقق المستحيل عمدوا في شهر اغسطس 1953 وفرضوا عمليتهم الشنيعة على الحكومة نفسها . وضد التعليمات المتتابعة التي كان يصدرها وزير الشؤون الخارجية ...

لقد عبرت اذذاك عن تحفظاتي وعن احتجاجاتي في صراحة بيد أنه رعيا لمصلحة فرنسا العليا قررت أن لا اجهر بمعارضتي وقبلت نتيجة لذلك أن أتحمل انتقادات عادلة .

في رسالتي لرئيس الدولة المؤرخة بـ 26 اغسطس 1953 كتبت لرئيس الحكومة رسالة يوجد فيها على الخصوص ما يلي :

« إن خلع السلطان يعتبر افدح خطأ ارتكب . وان نتائجه السيئة سوف نتجرع ويلاتها بعد حين »

وفي جواب رئيس الحكومة الدي بعث الي به بتاريخ 29 أغسطس قال لي على الخصوص « إن نبل عواطفك . وشريف موقفك . وشعورك السامي بالواجب . ونكرانك للذات والثقة التي أبيت ألا تعبر لي عنها كل ذلك نال مني مناله ، وأثر في تأثيرا عميقا ..»

وأعتقد — يقول مسيو فور — أن هذا التاريخ الصعير بما فيه سيمكن أولئك الآخرين الذين لا يتوفرون على معلومات حقيقية أن يقارنوا بين عملي حينما كنت النصير العملي لقضية الاصلاحات أولا . وثانيا حينما كنت ضد العنف الأعمى ، أقول سيمكنهم انصافي وبعد نظري من الموازنة

بين موقفي . وموقف الذين يصبون على اليوم جام غضبهم الذي لا يبرره شيء ...

من سنة 1953 الى سنة 1955 .

إن أولئك الذين اعتمدوا على القوة كوسيلة للعلاج اهملوا اعتبار وجود شيء يسمى « المغرب الاسباني » وضربوا باسبانيا عرض الحائط ... فأصبحوا — والمغرب معهم — يعيشون في جمود وشلل ، لقد سلبوا من سلطانهم الذي نصبوه تلك الامتيازات الأخيرة التي بقيت للعرش الشريف والتي ما انفك السلطان المبعد يتمتع بها في نظر العموم رغم اختفائه عن أعين الناس ، لقد وضعوا سلطانهم المختار في غير المكان الذي كان للملك المبعد ، وهكذا فلم ينفذوا له أي اصلاح من تلك الاصلاحات التي كانوا يزعمون أن جلالة محمد بن يوسف كان عرقلة في طريق تنفيذها ، ولم يبذلوا من الجهد ولو قليلا لاعانة ابن عرفة حتى يمكنه أن يتغلب على التيار الشعبي الذي كان يجرف به العرش الى الهاوية ، ذلك التيار الذي استمر في تزايد مطرد منذ اللحظة التي اعلن فيها عن اسمه كعاهل !

واستمر المسيو ادكارفور يخاطب المجلة قائلا : « لست أنا صاحب البراعة التي كانت كتبت في مجلتكم هذه الكلمات : « انه في اليوم الذي تم فيه ماتم ... كان يجب على الحكومة الفرنسية أن تعمل حالا على ادخال الاصلاحات التي تراها ضرورية لتقدم المغرب نحو الحضارة العصرية ، ولكن شيئا من ذلك لم يكن » فكيف بعد هذا تملكون من الجرأة ما يجعلكم تجرمون رجالا وجدوا أنفسهم في سنة 1955 أمام نتيجة هذا المس من الجنون ، وهذا الفراغ الطويل ؟!

— 2 —

وتابع المسيو فور انتقاده على المجلة المذكورة قائلا :

عندما فتحت حكومتي ملف القضية المغربية كان تعفن الحالة بالمغرب قد بلغ مبلغا أصبح معه تلافي الموقف من الصعوبة بمكان ، هذا بينما كان خصومنا يهيئون الاستيلاء العام على جميع المغرب ، ومن أين ؟ من ذلك المغرب الاسباني الذي أهمل اعتباره حب الاقدام على المغامرات ...

لقد رأت حكومتي من واجبها أن تولى هذه المشكلة الحيوية ما تستحقه من العناية الفائقة ان حوادث سنة 1953 كانت قد أفادتني كثيرا ... ولذلك فقد حرصت على أن يكون زملائي في الوزارة على علم تام بجميع وجوه المسألة ، ولأجل الوصول الى هذا الهدف كانت تلك المناقشات الطويلة والعميقة معا ، سواء منها ما تفرغ له المكتب الوزاري المصغر ، أو مجلس الحكومة أو مجلس الخمسة الذي انعقد بصفة مسترسلة طيلة مؤتمر ايكس ليبان ، وكذا بمناسبة المهمة التي قررنا القيام بها في مدينة انتسرابي.

وهكذا فإن السياسة المحددة والمتبعة من لدن حكومتي نالت في مجموعها وفاق الجمعية العمومية باغلبية 470 صوت . وفي أثناء هذه المرحلة بالذات لم يلبث أنصار سياسة السوء يضاعفون مناوراتهم وينصبون حبائلهم ، وإذا كان هؤلاء لم يصلوا في هذه المرة الى احباط مساعي الحكومة الفرنسية ، فإنهم — ويفرض على الواجب أن أقول ذلك — قد نجحوا بعض الشيء في ابطال العمل الذي كان يتطلب سرعة فائقة وبالتالي فقد نجحوا في اضعاف مفعولية النتائج التي كنا نأمل الحصول عليها.

إذا كان المرء يريد أن يسبق عقارب الساعة ليتجنب العنف والاصطدام ، وإذا كان المرء يريد أن ينقذ في آخر لحظة ومهما غلا الثمن ، الصداقة الفرنسية المغربية ، فإنه يجب ولابد أن تعالج المشلكة الملكية .

لقد ورد على المقري المشهور بحنكته وباخلاصه طيلة قرن تقريبا أقول أتاني يحمل إلي في صراحة أن ساعة الانذار بالخطر علي وشك أن تدق.أنه لمن الخطأ أن يدعى المرء بأن الحكومة أو على الأصح أنا وصديقي مسيو بيير جيلي هي التي فرضت على كرانفال ودولاتور ذهاب ابن عرفة على مضض من المقيمين المذكورين.

انه لمن المعروف لدى العموم موقف كرانفال الذي كان يرى أن ذهاب ابن عرفة أمر لا مناص منه وفيما يتعلق بدولاتور .. فسأكتفي بأن أقدمه لكم يسائل نفسه ويجيب في كتابه الجديد قال دولاتور :

وهل كان من الممكن أن نرجع لابن عرفة سلطته على الشعب المغربي ؟ »— « إني لا أعتقد ذلك »

وإنه لا يقل سخافة عن هذا أن يدعى المرء أن كرانفال طالب في ضجة عنيفة من الحكومة أن تحصل على تخلي محمد بن يوسف تخليا نهائيا عن العرش المغربي وأن الحكومة رفضت هذا الملتمس من كرانفال .. انه لم يكن من المستطاع — إذا كنا نفكر تفكيرا جديا — أن نحصل في اغسطس سنة 1955 على صك يعترف لنا فيه ابن يوسف بأنه يتنازل عن العرش لأن مثل هذه الوثيقة أولا تفقد كل قيمة قانونية .. ولهذا فإن الحصول على هذا تعذر عمليا في كورسيكا عندما كان السلطان يعيش في أحرج أوقات محنته نعم ولقد رفض هذا الطلب من جديد من جانب السلطان في ديسمبر 1954 في المهمة التي ذهب فيها الطبيب الخاص للسلطان المسيو ديبوا روكبير .

وإن ذهاب ابن عرفة المحتم كان باعثا لنا على تكوين مجلس العرش وكان هذا هو الحل الممكن ولم يكن ثمة رأي آخر ، ذلك أن ملكا ثالثا أو مندوبا موقتا يمثل ظل ابن عرفة لم يكن في استطاعته أن يتوفر على سلطة أكثر من السلطة المزيفة التي كانت لابن عرفة نفسه .

لقد تكلمت في صرامة أمام الجمعية الوطنية التي عاضدتني وقلت آنذاك : « إذا كنا نريد أن نخلق حكومة بمساعدة الوطنيين فإنه يجب افراغ العرش من الجالس عليه وتكوين مجلس لحفظة العرش فإذا لم نفعل فإنه لن تكون هناك حكومة »

وأخيرا فإني استطيع التأكيد بأنه من السخافة كذلك أن يدعى أحد بأن الجنرال كونيك وأصدقاءه الثلاثة كانوا قد قدموا استقالتهم كاحتجاج على سياسة الحكومة فإن هؤلاء الوزراء الأربعة كانوا في وظيفتهم حتى يوم فاتح أكتوبر صباحا ، أعني في اليوم الذي بارح فيه ابن عرفة أرض المغرب ... ولم يحتج أحد كما أن أحدا لم ينسحب من الوزارة بل قد ظلوا في مراكز وظيفتهم حتى خامس أكتوبر صباحا،إنهم لم يتقدموا إلي بطلب استقالة ... ولم يكن هناك من باعث على تقديم استقالتهم الا شئ واحد : ذلك أنني استدعيتهم لرئاسة الحكومة وطلبت اليهم أن يستقيلوا على إثر الموقف الذي اتخذه حزبهم حينما طالب بإنشاء حكومة للسلام العام

رجوع « المبعدين »

هل كان جلاء ابن عرفة وتكوين مجلس العرش كافيين لتجنب رجوع محمد الخامس أو تأخير رجوعه على الأقل ؟ ان المسيو كرانفال يعتقد أنه كان من الممكن الحصول على هذه النتيجة لو أن برنامجه تم انجازه قبل 20 أغسطس . قد يكون كرانفال على صواب في رأيه وقد يكون على خطأ ... فإنه ليس. في الاستطاعة أن يصنع المرأ من جديد تاريخا مضى وانقضى ليعرف مدى صحة نظرية كرانفال بيد أنه يقول المسيو فور : إذا كانت

هذه هي نظرية الجريدة وكنتم تنعون علينا ارجاع ابن يوسف ، فإن اللوم لا ينبغي أن يتوجه ضد مسيو بيير جولي ولا المسيو بني ، ولا أنا كذلك ومن هم الذين يستحقون أن يوجه إليهم اللوم إذن ؟ إنهم أولئك الذين اخروا بل وخربوا عمل المسيو كرانفال ... حتى وقعنا في مأساة وادي زم ، نعم أولئك الذين ربحوا خمسة عشر يوما أخرى لعرقلة عمل دولاتور حتى وقعنا في خطر ايموزار.

إن جريدتكم نسبت إلينا ارجاع الفرنسيين المنتصرين وتنعي علينا وجود الرئيس بورقيبة في تونس ، ومحمد الخامس في المغرب ... إنه رأى لكم الحق كاملا في أن تتمسكوا به وتدافعوا عنه وتنتصروا له ، إنما كان بودي أن تفعلوا ذلك وأنتم تعتمدون على حجج جدية ... لا على ادعاءات وأباطيل ، أما رأيي أنا ... فإني كنت أعتقد أن من الأليق في مثل هذه الحالة التي تنذر بشر الأخطار أن يأخذ بناصية الأمر سواء بتونس أو بالمغرب رجال يمثلون الشعب أصدق تمثيل ، وجديرون بأن لا يكونوا امعة لمعسكر القاهرة يأتمرون بأمره وينتهون لنهيه ، على أن إرجاع المبعدين ليس شيئا مبتكرا حكمت فيه رأيي ... ودونكم التاريخ المعاصر : فهذه بريطانيا نفسها ودول أخرى بوأوا مقاعد الحكم اناسا كانوا بالأمس القريب مبعدين أو معتقلين.

وفيما يتعلق بتعبيركم الخاص « المبعدين المنتصرين » يهمني أن ألفت نظركم الى أن المنفيين لم يكونوا ليصبحوا منتصرين لولا أنهم تحملوا سلفا مرارة البعاد وآلام المنفى ، ثم أليس أن ابعادهم وارهاقهم ، وجحود سلطتهم كان الخطأ الأول والأخير.

— 3 —

المشكلة في أصلها

ويمضي المسيو فور فيسخر من الجريدة التي تسمح أن تنشر على أعمدتها المتناقضات الأمر الذي يدل على سوء نية ، فبينما تشيدون — يقول الكاتب — بعملنا عندما احتفظت حكومتنا **بالدفاع والشؤون الخارجية** تعيبون علينا أشياء تافهة غضضنا الطرف عنها .

إن حكومتي التي كان لها من الشجاعة ما مكنها من معالجة المشكلة العويصة ، مشكلة العرش ، والتي استطاعت بعملها هذا أن تتنكب انفجاراً هائلا كان وشيك الاندلاع أقول إن حكومتي لم يكن من عملها اجراء مفاوضات ولكنها خلقت فقط الشرط الأساسي لتلك المفاوضات التي كانت تعتبر في ذلك الوقت مستعصية بل ومستحيلة أن حكومتي ظلت متمسكة بالشرط الأساسي حتى في تصريح فاتح أكتوبر وبعبارة أخرى فقد ظل المسيو فور متمسكا بالمعاهدات

وخلافا لما قالته المجلة في عبارتها فإنه لم يكن في نية حكومتي أن تطبق في المغرب أكثر مما كان لتونس ودونكم ما كان كتبه بورقيبة بتاريخ 16 يناير 1956 في صحيفة « العمل » الاسبوعية لقد قال بورقيبة « لقد قيل لنا إن قناتنا لانت مع الفرنسيين قبل الأوان وإننا لم نحصل الا على البسيط من الأشياء وان المغرب في بحر الأسابيع القابلة أو الشهور المتوالية سيحصل على غنم أكثر،انه إذا كانت الظروف السياسية **الجديدة ستمكن اخواننا المغاربة من الاستقلال أكثر منا فياحبّذا** ».

ويعود المسيو فور الى كلامه : إنه ليس في فاتح أكتوبر ولا في سادس نوفمبر 1955 ولكنه فقط في ثاني مارس 1956 خطا المغرب خطوته التي تجاوز بها خطوات التونسيين الذين لم يلبثوا هم الآخرون أن التحقوا بالمغاربة وأدركوا ما ناله هؤلاء.

ولست بصدد الحديث في هذه المناسبة عن : هل ان الحكومة الحالية كانت مخطئة أو مصيبة حينما منحت الاستقلال للمغرب وتونس لان الاستقلال نهاية طبيعية للحمايات كما اعترف بذلك المسيو أميل روش نفسه الذي قدم كتاب المسيو دولاتور.. نعم لست بصدد بسط الحديث عن هذا الموضوع وإنما الذي أريده هنا هو أن أوجه عناية المتكلمين حتى لا يتعمدوا اخفاء الحقائق ووضع المسؤليات في غير مواضعها الطبيعية وما أزال أوكد هنا ما كنت صرحت به أمام المجلس الوطني حول هذا الموضوع.. إن التصريحات التي أدليت بها لم تقابل لا بتحفظ ولا بتعقيب ، إن تقديركم لأعمالنا كان تقديرا مخطئا فيه جيف كثير وثلب عظيم لا بالنسبة إلى وحدي ولكن بالنسبة إليه كذلك.

خاتمة

أفرأيت أيها القارئ كيف يستكبرون علينا حقا من حقوقنا الطبيعية ؟ أرأيتهم كيف يرون أن الاستقلال الذي حصل عليه المغرب بفضل كفاحه لم يكن مما كنا نستحقه ؟ ثم أرأيت رؤساءهم كيف يتملصون ويتنصلون .. فهذا يقول انه ليس المسؤول عن نهج الاستقلال وإنما كان المسؤول عنه هو ذلك الذي مهد الطريق اليه بارجاعه محمد الاستقلال ثم هذا بدوره يذكر بأنه ليس هو الصانع المختار وإنما أولئك الذين أساءوا التصرف بجمودهم وتحجرهم وتجاهلهم للرغائب .. ولقد سمعنا من المتحجرين ضيقي الأفق أنهم يصبُّون لائمتهم على الأولين الذين فتحوا الأعين بوعودهم وعهودهم .. ثم ان هؤلاء الواعدين والمتعهدين يخلعونها على آخرين استمعو إلى الوطنيين واغتروا بأضاليلهم .. وهكذا دواليك .. وليس ببعيد — فيما يظهر — أن تجد من القوالين من سيحنق على البرلمان الفرنسي لسنة 1906 الذي لم يستمع لنصح الزعيم الاشتراكي **جان جوريس** الذي كان على ذلك العهد أبرق وأرعد ونصح إلى مواطنيه بأن لا يطمعوا في الاستيلاء على المغرب وبأن مجهوداتهم فيه ستضيع لا محالة . نعم من يدري فإن الناس يعضون أناملهم ..وهم في حال أصبحوا معها كالغريق يريد أن يتخلص ولو على حساب أخيه الذي يلفظ هو بدوره بأنفاسه الأخيرة

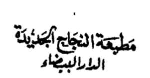
فهرس

تقـديــم 5

أيام فاس الدامية 7
تأليف هيبير جاك

حقائق عن الشمال الافريقي...................... 95
تأليف الجنرال دولاتور

رأي الرئيس إدكار فور 191
في انتفاضة المغرب


مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء

صـــدر عـــن :

* الحياة الأدبية فى المغرب على عهد الدولة العلويـــة
للدكتور محمد الاخضر

* الحلـــل الموشية فى ذكر الاخبار المراكشيـــة
تحقيق الدكتور سهيل زكار والاستاذ عبد القادر زمامة

* مقـــالات فى الفكر والتاريخ
للدكتور محمود اسماعيل

* الحكـــم الاسلامـــي
للاستاذ عبد الحى العمرانى

* الفـــارس والعتمـــة
للاستاذ محمد حمـــدان

* بنيـــــة الشعــــــر
للاستاذ محمد عـــزام

* تاريخ العالم الاغريقي وحضارته
للدكتور فوزي مكاوي

* البنيوية فى اللسانيات (الحلقة الاولى)
للدكتور محمد الحنـــاش



مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء